رواية

معتز العريني

شجرة لم يأكل منها آدم

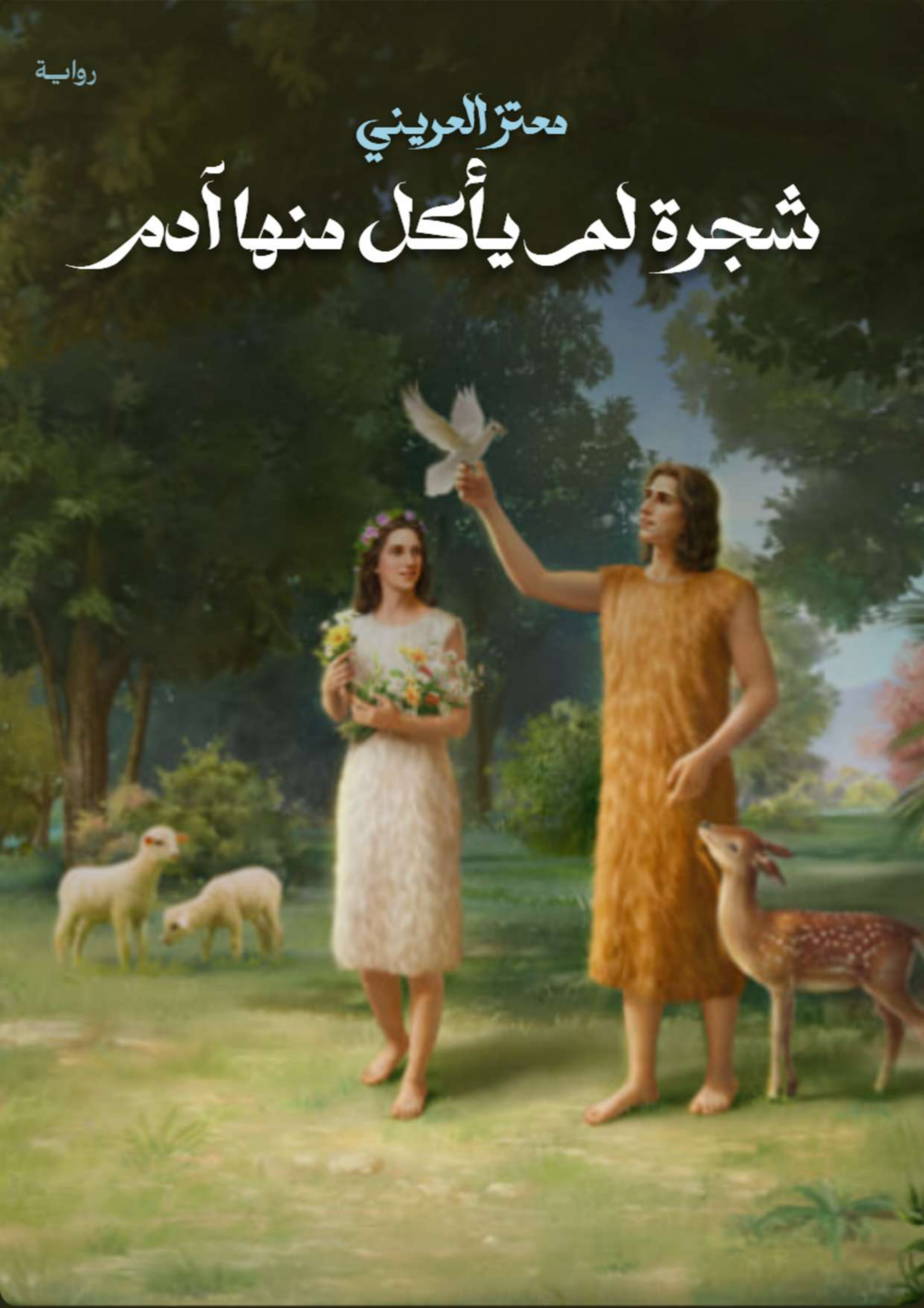

بسم الله الرحمن الرحيم

شجرة لم يأكل منها آدم!

{رحلتي من الجنة إلى الدنيا}

إهداء إلى الشعب الفلسطيني الذي سيذوق النعيم يوماً...

ماذا لو خُلق الإنسان في الجنة؟!

هل سيرضى بوجوده؟!

أم سيكون لديه الفضول ليعرف لماذا فاز بها بدون تعب؟!

(جميع أحداث وشخصيات الرواية من وحي خيال المؤلف وأي تشابه بينها وبين الواقع.. فهو محاولة للقرب من الله وفهم حكمته والتسليم لها حتى نُنَحّي الفضول جانباً ونطمئن لتدابير خالقنا وأقداره)

-١-

"خُلقت في الجنة ولديّ كل شيء.. لكنها لا تكفيني!"

لم أعرف سوى الجنة.. لا أفعل شيئاً سوى الإستمتاع بحياتي.. أفكر كثيراً وأتسائل: من أنا لأستحق كل ذلك؟! وهل أنا أستحق حقاً كل هذا النعيم؟! أنهار من لبن وخمر وعسل لذة لي وللشاربين.. حدائق وفواكه وكل ما لذ وطاب من طعام وشراب وحورعين.. حولي خيولاً ملونةً تطير في السماء من ياقوت أحمر بكل درجاته تصلني إلى أي مكان.. وأشجار جذورها من ذهب وأوراقها ضخمة كآذان الأفيال تظلل علينا عندما نأمرها بذلك وتكشف أوراقها فيمسنا نور السماء ونسمة الهواء الدافئة التي تلفح وجوهنا.. ورائحة المسك والعنبر التي نشمها في كل ركن من أركان الجنة.. وقصورنا من الذهب الخالص حيث تجري من تحت أرجلنا الأنهار التي تمر خلال أحجار من الزمرد والماس والمرجان الملون، اللامع.. بينما أسمع خرير الأنهار وحفيف الأشجار وزقزقة الطيور.. وبجواري "سلسبيل".. زوجتي وحبيبتي التي اخترت أن تكون وحيدتي في الجنة رغم حريتي في اختيار المئات من النساء.. لكنها تكفيني وتغنيني عن كل الحوريات.. عندما رأيتها كانت تأنس وحدها على جبل من جبال الماس كاللؤلؤة التي تتلألأ.. فاقتربت منها وطلبت منها أن تؤانسني في جنتي فتعجبت من أمري وتعجب مني بعض أهل الجنة لأنها كانت ملكة الحوريات التي تأمرهم ليمتعوا أزواجهم لكنني اخترتها هي وسألتها متعجباً عن سبب عزلتها وانفرادها بنفسها دوماً رغم جمالها لكن إجابتها جعلتني أتعلق بها أكثر عندما أخبرتني بأنها لا يملكها أحد.. فهي كالسماء التي تنير وحدها بدون الحاجة لأحد فتحدتني وجعلتني أبتغيها وأشتهي نورها الذي أضاء جنتي.. فعندما أنظر لها أجدها قطعة من الجنة.. لا أستطيع أن أصفها.. فهي تفوق الجمال جمالاً.. وجهها مضيء كنور السماء وعينيها زمردتين زرقاويتين.. شفتيها كثمار الفراولة التي أدمنها.. وشعرها كالحرير الذي يدفئني.. وعندما أضمها إلى صدرى وألمس جسدها أشعر بنعومته الذي يكون كماء البحر عندما يأتي بموجه على رمال ناعمة فتسري بين أصابعي.. وبينما نحن جالسان ناظراً حولي أفكر كعادتي ويثيرني الفضول بأن أسأل.. فتسكرني بصوتها الذي يطرب آذاني وتجعلني أكتفي من التفكير ومن كل شيء..

- هل تريد أن نذهب إلى مضجعنا يا "زاهر"؟!

نظرت لها مبتسماً وأومأت رأسي رافضاً لأنني وجدت رغبتها في البقاء.. فنحن نجلس مع أصدقاؤنا لنسمع "سهيل".. حكيم الجنة ومن القدماء في الجنة.. فهنا من يمكث طويلاً يصبح حكيماً.. والحكماء هنا يحتفظون بأسرار لا يفصحوا عنها لبقية البشر.. وفي هذا المجلس نلتف حول "سهيل" حيث يجلس على عرش من الذهب وكعادته يتحدث عن عظمة الخالق ولماذا خلقنا في جنته.. فيجعلنا نسبحه ونبجله ونمجده كثيراً وهناك مثل "سهيل" في كل بقعة من بقاع الجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض.. ولكنني لا أستطيع التوقف عن التساؤل: لماذا يوجد أسرار في الجنة؟! وماهي تلك الأسرار؟! ولماذا أُعدت الجنة لنا؟! ولماذا فزنا بها بدون تعب؟!

تبادلت النظرات بيني وبين "خازن".. خادم الجنة.. وهو ليس فقط خادماً أو ملاكاً.. لكنه صديقي الذي أثق به أكثر من نفسي.. وبجواره ينتظرني حصاني الأمين المفضل.. "ياقوت".. فهناك الكثير من الخيل المجنح الذي يطير بأجنحته المرصعة باللؤلؤ فيلمع في السماء.. ولكن أنا من بين أهل الجنة أشتهر بأنني محترف في ركوب الخيل.. خاصةً.. حصاني "ياقوت".. وسبحان من خلق بداخل كل منا موهبة تميزنا.. مثل "سهيل" الذي يتميز بحكمته ولباقته في الكلام.. و"خازن" الذي يتميز بذكاوه.. بينما "سلسبيل" تتميز في كل شيء وفي نظري هي جنتي.. وبدونها.. لا أريد الجنة.. فما أجمل من أن يبقى من أحب بجواري ولا يتركني مهما حييت.

- يا "زاهر".. لماذا لا تنصت لي كعادتك؟!

سألني "سهيل" بعد أن شردت بذهني بعيداً ثم استدركت عندما وجدت من حولي يضحك على ما قاله ولكنني لم أسمع سوى ضحكة "سلسبيل" وهي تنظر لي فهمست في أذنها ضاحكاً:

- أنتِ دوماً هكذا.. تأخذين عقلي وقلبي ثم تضحكين!

فنظرت "لسهيل" الذي كان يرمقني بنظرة عتاب مبتسماً.. فأردفت:

- كلامك كالخمر يسكرني ولذلك جعلتني أغرق في أفكاري!

فضحك الجميع و"سهيل" معهم قائلاً:

- لسانك المعسول هو الذي يجعلني أطيل في الكلام رغم أنني لا أعرف إذا كنت منصتاً أم لا!

فنظرت في الأرض لا أنبس بكلمة ولا أعرف ماذا أقول.. فتدخل "خازن" بطريقة مبالغ فيها قائلاً:

- أنا أنصت لك كعادتي..

فابتسم "سهيل" له:

- لم أسألك يا خازن.. وكنت أريد منك أن...

وقبل أن يُكمل كلامه قام "خازن" بفرد جناحيه فانتثرت بذور العنب على جميع الحاضرين وأمام كل منهم كئوس من ذهب بها ماء مصفى لونه أزرق.. فشكره "زاهر" والحاضرين.. ثم قال "سهيل":

- لنشكر إلهنا الذي خلق لنا كل ذلك بدون أن نطلب!

فنظر له "خازن" شزراً و رحل.. فلاحظت ذلك وقمت من مجلسي تاركاً "سلسبيل" تضحك مع أصدقاؤها تأكل وتشرب فاستئذنتها لكنها لم تنصت إليّ.. فذهبت وراء "خازن" وناديته ثم أوقفته جانباً:

- ما الذي بك يا "خازن"؟!

- لا شيء البتة.. لكنني لا أحب أن يتم معاملتي هكذا.. فمن لا يشكر غيره لا يشكر الله!

- ولكن "سهيل" لم يقصد ذلك أبداً..

- أنا كبير خادمي الجنة.. ولا أحب من يشعرني بأنني لا شيء.. فأنا لا أعرف لماذا لا أحظى بأي تقدير منه!

قالها ولأول مرة يأتيني شعوراً غريباً لا أستطيع وصفه فقلت له:

- أنا لم أراك بهذا الشكل من قبل! فالمزاح متاح هنا.. وقد توقعت منك أن تضحك!

- "سهيل" يحب الجميع إلا أنا.. دوماً يشعرني بالدونية.. رغم أنني الوحيد الذي أنصت لكلامه الغير مفهوم..

فضحكت واصطحبته معي لنعود إلى مجلسنا ولكنني لم أجد "سهيل" ولم أجد "سلسبيل" فسألت عنهما فلم يعرف أحد مكانهما.. ثم ركبت حصاني وكدت أن أطير به إلى المكان الذي تجلس فيه "سلسبيل" كعادتها.. فأوقفني "خازن" قائلاً:

- يا "زاهر".. اعلم جيداً أنني أحب خدمتك وخدمة "سلسبيل" وخدمة أهل الجنة أجمعين.. ولكنني أقصد...

فقاطعته قائلاً:

- لا تبرر يا صديقي.. لكل منا طبع.. ولعلك أنت و"سهيل" لا تتآلفان!

ثم انطلقت بحصاني المجنح المخلوق من ياقوت أحمر وزمرد أخضر ولؤلؤ يلمع في السماء كالماس متلئلئاً يغشاه جلداً ذهبياً ملمسه كالحرير ورائحته كالمسك.. ذهبت إلى حبيبتي التي رأيتها جالسة كزهرة لامعة على جبل أخضر مليء بالزرع والورود فاحتضنتها من الخلف وقبلت وجنتيها وهي سارحة تنظر إلى الخيول البيضاء والخيول الملونة، اللامعة التي تطير ثم انهمرت السماء كعادتها بالهدايا.. فأسقطت علينا المن والسلوى وأكلنا منه ونحن نضحك ثم انفجرت عيناً تسمى "سلسبيل".. فهذه العين هي المفضلة لديَّ لأنها على إسم حبيبتي.. فضممتها إليّ والتصقت شفتيّ بشفتيها وثملت من رحيقها الذي أجد طعمه ألذ من العسل ثم رأيت "خازن" يقترب منا ويوقظني من سحرها قائلاً:

- لقد كنت تسأل عن "سهيل" فأحببت أن أخبرك بأنه عاد إلى مجلسه المعتاد..

فأومأت برأسي موافقاً ثم وجدت "سلسبيل" تقول "الخازن":

- "سهيل" لا يقصد أن يضايقك.. فلا يضيق صدرك!

فابتسم "خازن" ممتناً:

- في الجنة لا يضيق صدرنا.. لكنني دوماً أحب أن أكون صديقاً أكثر من خادم.. ولا أحب إنكار الجميل!

فنظرنا له في حب وتعاطف.. ثم استأذنتهما لأذهب إلى "سهيل" حتى أسئله بعض الأسئلة كعادتي فركبت حصاني "ياقوت" وانطلق بي إلى مجلس "سهيل".

اقتربت من "سهيل" الذي وجدت أطفالاً حوله كاللؤلؤ المنثور يخدمونه وهو يأكل ويشرب ما لذ وطاب.. فرمقني بنظرة مبتسماً:

- يا "زاهر" تعال اجلس معي.. واطربني بأسئلتك البديعة..

فضحكت وعرفت أنه يسخر من فضولي ثم دنوت منه حتى جلست قبالته:

- رأسي يضج بالتفكير!

- كالعادة..

- وماذا أفعل؟!

- لا تلتفت..

- وكيف أوقف شلال تفكيري؟!

- بالتأمل فيما خلق الله..

- أنا أعرف أنني أسألك كثيراً ولكنني لا أجد إجابة مقنعة بالنسبة لي.. فلماذا...

وقبل أن أُكمل قاطعني "سهيل" قائلاً ليكمل ما سأقوله:

- لماذا خلقنا الله في الجنة بدون أن نتعب لأجلها.. هذا سؤالك المعتاد بجانب أسئلتك العديدة التي ليس لها إجابة

- ولماذا لا يوجد إجابة؟!

- ليست كل الإجابات تُرضي العقل.. ولكن الإجابة ستجدها بداخل قلبك أنت!

- ولكنني لا أجدها..

- لأنك لديك من الفضول ما يجعلك أعمى البصر والبصيرة!

- هل لك أن تجيبني ماذا تستفيد من جلوسك هنا والتحدث عن الله ثم تخبرنا بأن نحمده ونشكره ونسبحه؟!

- كنت أعرف أنك لا تنصت لكلامي جيداً.. ولكن ما أستفيده.. هو أنني أملىء القلوب بالرضا..

- ولكنني راضي وسعيد..

- إذن لماذا تشغل عقلك بما لا ينفعك ولا يضرك؟!

- لعلي أشعر أنني لا أستحق الجنة.. لا أعرف.. لكن ما حكمة الله في أن ينعم الله علينا بالجنة بدون جهد منا؟!

- لعله خير لنا..

- لكننا نملك كل شيء بدون أن نسعى ونجتهد للحصول عليه.. كيف ذلك.. ولماذا؟!

رمقني "سهيل" بنظرة حادة وهو يهز رأسه فقام من مجلسه وتمشينا قليلاً ونحن نركل بأقدامنا حصى من ذهب وفضة ثم قال لي:

- لعل سؤالك منطقياً.. ولكن اعلم جيداً بأن فضولك سيجعلك تذهب إلى طريق لا يُحمد عقباه..

- لقد سألتك من قبل أين أبانا "آدم" لأفهم منه كل شيء.. وسألتك كيف أستطيع أن أتحدث مع الله ولم تجبيني!

- يا "زاهر".. ليس كل شيء علينا معرفته.. مثل علاقتي مع "خازن".. أنا لا أعتبره صديقاً الآن.. هو يستحق أن يكون خادماً فقط ليس أكثر.. فأنا من البشر القدماء الذين وجدوا أنفسهم في الجنة.. ودوماً كنت أشعر أن "خازن" غيور وماكر.. ولا أعرف لماذا ينتابني هذا الشعور.. فالمشاعر يحركها الله كيفما يشاء لحكمة بالغة!

- وما الحكمة في أن تخبىء عن أهل الجنة أسرار لا يعلمها سواك أنت وبقية الحكماء؟ وما السر الخطير ال..

فوضع يده على فمي مقاطعاً:

- أرجوك يا زاهر.. أنا أحبك.. ولا أريد لك الهلاك.. أرجوك!

نظرت إلى "سهيل" متعجباً وتبادلت النظرات بيننا فتذكرت عندما وجدت نفسي في الجنة وكنت لا أعرف سوى "خازن" و"سهيل".. لم أكن أفكر في شيء لأنني كنت منبهراً بجنتي.. وكان "سهيل" و"خازن" مقربان إلى حد كبير.. ولكنهما لم يصبحا على وفاق تام لسر بينهما لا أعرفه.. فقد قرر "سهيل" ألا يتعامل ثانيةً مع "خازن".. وكان دوماً يحذرني منه.. ولم أكن أصدقه لأن الجنة بها كل شيء جميل فكيف يتم تحذيري من مخلوق أو من شيء ما.. وعرفت أن هناك سر خطير يحتفظ به حكماء الجنة ولا يفصحوا عنه بجانب الأسرار التي يدفنونها في بئر عميق لا ينهل منه سوى المقربين إلى الله الذي اختارهم واصطفاهم.. ومن هنا بدأ عقلي يعج بالتفكير والضجيج والفضول والغيرة أيضاً.. ثم سألت "خازن" عن كل ما أجهله.. وهو الذي تعلمت منه أن أسأل وأعرف الكثير بنفسي ولا أسأم من ذلك.. ولكن على النقيض.. كان "سهيل" يحذرني من أن أغرق في بحار الفضول حتى لا أجد نفسي في النهاية ساخطاً، قانطاً لا أتلذذ بطعم أي شيء في الجنة فيغضب عليّ ربي.. وأنا لا أعرف كيف يغضب الله من أحد خلقه.. لأنه فقط يرغب في المعرفة؟!

ولماذا لا نعرف كل شيء حتى نرتاح؟! وهل سنرتاح حقاً؟!

فناديت على حصاني وشكرت "سهيل" على سماعه لأسئلتي ثم ركبت "ياقوت" قائلاً "لسهيل":

- ربما لا يوجد مكاناً أفضل من الجنة.. ولكننا لم نُخلق كي نسعد ونرتاح فقط بدون كد وعمل.. وسأعرف سر وجودنا هنا عاجلاً أو آجلاً!

فنظر إليّ نظرة يشوبها الخوف.. ثم انطلقت بحصاني متجهاً إلى قصري.

-٢-

"هل إرضاء فضولي سيجعلني أسعد؟!"

أسير في حدائق وبساتين قصوري أتأمل البنيان الذي يدهشني رونقه ولمعانه في كل مرة.. فكل قصر يشبه الجوهرة واللؤلؤ والياقوت الأحمر والزمرد الأخضر الذي يتكون من طوبة ذهب وطوبة فضة.. بينما اللبنة التي تمسكهما من مسك وعنبر حيث رائحته تسكر العقول.. ثم ألتفت لأشم الزهور التي أجدها من ياقوت وأتأمل أشجار الزيتون والعنب والتين والمانجو التي تفوح رائحتها في كل مكان.. ثم يخطر في ذهني أن ألتقط ثمرة فأجد الغصن قد تدنى مني لأقتطف ثمرتي منه وبعد أن ألتهم آخر قضمة منها.. أجدها عادت إلى غصنها كالإبن الذي يعود إلى والدته ويعود الغصن كما كان بعد أن تلذذت بفاكهتي.. ثم أسمع خرير الماء الصافي فأجد جذور الأشجار الشاهقة.. حيث أنها جذور من ذهب ولؤلؤ.. وبها فتحات تسقي البساتين بأنهار من ماء ولبن وخمر وعسل.. وأوراقها تثمر ثياباً وحُلي لأتزين بهم.. والكثير من الشلالات التي أراها في كل مكان.. وفي كل خطوة أخطوها أجد نفسي أسير فوق أنهار تجري من تحتي تمر من خلال أحجار كريمة وحصى من لؤلؤ وأرى الأنهار من حولي ومن تحتي ألوانها تتداخل ببعضها البعض.. فأجد مزيجاً من اللون الأبيض والشفاف والأصفر الذهبي اللامع والأزرق المصفى.. ثم أجد الملائكة البيض فوقي بأجنحتهم والخدم يطوفون حولي ومعهم أطفال وغلمان كاللؤلؤ المنثور يسلمون عليَّ ويبتسمون لي ويخدمونني وهم يحملون لي أواني وكئوساً من ذهب وفضة ممتلئة بالطعام والشراب فأنظر إلى حمامة ملونة تطير في السماء فأشتهيها لتهبط مشوية في آنية من الأواني الذهبية فأجد "خازن" يشاور على بقية الخدم ليقوموا بخدمتي وإعطائي ما أشاء فأجلس على صخرة من لؤلؤ لأقوم بأكل الحمامة الشهية.. وعندما أُلقي العظام في الآنية تعود إلى هيئتها وتطير ثم تنفجر عيناً تسمى "سلسبيل" كإسم حوريتي وزوجتي وتلك العين موجودة في كل مكان فتكون نافورة زرقاء أشرب منها وأتلذذ بها وأنتعش تحتها.. فعندما تتبلل ملابسي أجدها تحولت إلى ملابس أخرى من حرير وسندس تدفئني نعومته وتبهرني ألوانه.. ومعظمها الأخضر بكل درجاته لتتسق مع لون الأشجار والحدائق والبساتين.. وبعد تأملاتي.. أركب "ياقوت" منطلقاً وأرى أهل الجنة يتمتعون مثلي فأبتسم ممتناً.

* * *

أطلت اللعب واللهو مع "ياقوت" ناظراً إلى جمال الجنة ورونقها.. فكل شيء من ذهب وزمرد ولؤلؤ والسماء تقطر ماءً لامعاً كالماس ورائحته كالمسك والبشر سعداء يرقصون ثم ينظرون إليّ فأشعر بتميزي بينهم وهم يحيونني لأقوم بحركات بهلوانية بالحصان حتى أقترب من قصوري الممتلئة بالنخل والأعناب واللآليء فأدخل قصراً من قصوري لأجد "خازن" مع "سلسبيل" يترك لها طعامها وشرابها ويرحل ثم أجلس معها وأقترب منها لأسئلها لماذا اختارت أن تكون زوجتي في الجنة فتضحك من سذاجة سؤالي المعتاد وتكون قبلاتها هي الإجابة التي تشعرني بتفردي فألثم كل قطعة من جسدها المضيء، ناصع البياض تاركاً ذهني يفكر كعادته: ماذا فعلت أنا لأنال كل هذا النعيم؟!

نظرت لي "سلسبيل" وأوقفتني لتسأل:

- لماذا لم تحب حوريات أخريات غيري رغم أن هذا متاح لك في الجنة؟!

- لأنني لم أرى في جمالك ولا في رقتك..

ثم أكملت التهامها شفتاي فسألتني:

- وإذا رأيتني مع رجل غيرك.. ماذا ستفعل؟!

فاستوقفني سؤالها.. وشعرت بالغيرة.. فسألتها متعجباً:

- لماذا؟! هل أنا لست كافياً لكِ؟!

- لا لا تقول ذلك.. لقد راودني هذا السؤال ليس أكثر.. لكنني لا أحب أحداً سواك..

- ولماذا تسألي هذا السؤال؟!

- لأتأكد أنك لازلت تحبني أنا فقط ولا تحب أحداً غيري.. فأنا أعشق غيرتك..

فضحكت وابتسمت لها ثم غرقنا في قبلة جعلتني أنتشي وأنسى جنتي وأنسى أسئلتي.. فخلعنا ملابسنا والتصق جسدي بنهديها ثم حملتها على ذراعيّ لتنام على سريرنا المخلوق من الزمرد والياقوت الذي تفوح منه رائحة المسك والعنبر بينما نسمع خرير الأنهار التي تمر وسط الأحجار الكريمة من تحتنا في أرض مرصعة بالذهب فأمسكت نهديها البيضاويين وصرت ألثم رقبتها إلى أن وصلت لفرجها الذهبي، المضيء حيث ملمسه الذي كالحرير بينما لا تمل عيني من لونها الأبيض، المضيء ورائحتها التي كجوز الهند.. ثم اعتدلت وأمسكت رأسي لتديرها فتكون هي فوقي حتى لمست عضوي المذهب، الحريري الذي يجعلني أتسائل لماذا يوجد هذا العضو؟! ثم أخذت تقبلني بشفاهها المتلئلئة، الممتلئة حتى وجدت عطراً رائحته طيبة يخرج من عضوي ومن جسدي فوجدت نفسي قد شردت بذهني بعيداً ثم توقفت حتى سألتني:

- ماذا بك؟!

فخطر على ذهني كأس من ماء فمددت يدي وجلست منتصباً حتى وجدته بين أصابعي فشربت ثم عاد لمكانه..

- هل تعتقدي أننا قد خُلقنا كي نلعب ونلهو ونستمتع فقط؟!

وبعد أن سألتها.. توقفت وعدلت من جلستها:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أنني أشعر أن هناك معنى وقيمة لوجودنا.. فلماذا كل هذا النعيم ونحن لم نفعل شيئاً يجعلنا نستحقه؟!

- لأن الله كريم ويحبنا..

- لماذا؟!

- لماذا تسأل كثيراً وتكرر أسئلتك؟! ما الذي تريد أن تقوله يا "زاهر"؟!

- أريد أن أقول لماذا لا يطالب أهل الجنة بمعرفة السر الخطير الذي يخفيه الحكماء عنا بدون أي سبب؟!

فقاطعني دخول "خازن" إلى قصري ولكنه أصبح يشبهنا كثيراً فكان يشبه الملائكة.. ولكنه الآن يشبه البشر ولم أعد أرى أجنحته فتعجبت من أمره المفاجيء فسألته متعجباً:

- ماذا بك يا خازن؟! وما الذي حدث لك؟!

فرد عليّ "خازن":

- لقد أصبحت بشرياً مثلكما تماماً.. ولن أكون خادماً للجنة بعد الآن!

- لماذا؟!

- فرمان إلهي..

اقتربت إلى "خازن" واحتضنته وقلت له:

- مبارك يا صديقي..

فوجدته متجهماً ومتعجباً:

- على ماذا؟!

- على أنك أصبحت بشرياً مكرماً مثلنا وستستمتع بكل ما لذ وطاب..

فابتسم نصف ابتسامة وأومأ برأسه ثم اقترب من الأنهار الجارية وأخذ كأساً ممزوجاً بالعسل واللبن والخمر فقبل أن يشربه في رشفة واحدة وجده قد اختفى من بين يديه.. ثم شرح لنا بأن هذا عقاب له.. وهو الآن قد أصبح بلا قيمة وبلا أهمية.. وهو الآن يرغب في الخروج من هذه الجنة.. فعندما كان خادماً.. كان نافعاً.. ولكنه ماذا يفعل الآن؟! فهو أصبح إنساناً لا يحق له التنعم كأهل الجنة.. فربت على كتفه وأنا أسئله:

- لماذا حكم الله عليك بذلك؟!

- لأنه لا يحبني كملاك.. فعاقبني وجعلني بشراً..

فتدخلت "سلسبيل" قائلة:

- ولكن البشرية ليست عقاباً.. وأي ملاك يتمنى بأن يكون إنساناً مكرماً..

فضحك "خازن" ضحكة مدوية.. ثم سألته:

- ولماذا عاقبك؟!

فنظر لي نظرة حادة:

- لأنني مثلك يا زاهر.. أتدخل فيما لا يعنيني.. فقد أفشيت السر الذي ينبغي عليّ بأن لا أقوله عندما رأيت الكثير يرغب في معرفته كما تريد أن تعرفه.. وقد تسبب ذلك في هروب الكثير من الجنة!

فانتبهت لكلامه قائلاً:

- ولماذا أفشيت السر يا خازن؟!

- لأنني أردت الخير لأهل الجنة وشعرت أنهم في قفص كبير يسمى "الجهل".. ومن حقهم معرفة ذلك السر.. والجميع سيعرفه عاجلاً أو آجلاً.. لكن سهيل كان يمنعني من ذلك.. حتى وجدت الكثير مثلك يرغب في معرفته فشعرت أنه ليس من العدل أن لا أفشيه.. فضحيت لأجلهم ولأجل نزع الغمامة من على الأعين!

- وماذا حدث بعد أن عرفوه؟!

- لقد اختفوا تماماً...

- اختفوا؟! إلى أين؟! وكيف حدث ذلك؟! وما هذا السر؟!

- إذا أخبرتك.. لا أعرف ماذا سيحدث لي أكثر من ذلك.. ولا أعرف ماذا سيحدث لك أيضاً..

- ولماذا لم تقل لي السر وقد قلته لغيري وأنت تعلم أن فضولي يلح عليّ دوماً؟!

فنظر لي "خازن" وهز كتفيه:

- ربما لأنني أخاف عليك ولا أريد أن يعاقبك الله.. وإذا ابتعدت عني.. سأشتاق إليك كثيراً..

- ولماذا يفعل الله بنا ذلك؟!

فلم يرد "خازن" وتبادلت النظرات بيني وبينه ثم بيني وبين "سلسبيل".. فارتدينا ملابسنا وخرجنا ثم ركبت حصاني "ياقوت" وهي ورائي و"خازن" معنا على ظهر الحصان فوجدت أن عدد أهل الجنة قد قل كثيراً ثم وجدت "سهيل" وهو يخطب على منبر من ماس لبعض أهل الجنة فيحثهم على البقاء في جنة الخلد ويحمدوا الله على ما آتاهم ولا يتوهموا بأن الخروج من الجنة هو الفلاح والمُلك الذي لا يبلى فرأيت شخصاً يسأله:

- وكيف لنا أن نتأكد من أن هنا أفضل من أي مكان آخر؟!

- إذا غاب عنك اليقين وتسلل الشك إلى قلبك ستفقد إيمانك وستُطرد من الجنة..

- لكننا عرفنا أن هناك سراً خطيراً تحمله في صدرك منذ القدم وتخبئه عنا..

- أجل.. أنا وبعضاً من الناس.. ولكن من الأمانة ألا أفشي هذا السر أبداً..

- لكن هناك الكثير ممن عرفوا السر واختفوا.. فلماذا لا نعرفه نحن أيضاً؟!

- هؤلاء تمردوا على الله الذي خلقهم.. فلا تخلقوا من فضولكم شيطاناً يغويكم..

فاقتربت من "سهيل" وسألته:

- أي سر هذا؟! أريد أن أعرف الآن.. هناك من عرفوا هذا السر.. وعندما عرفوه اختفوا..

- يا زاهر.. أنا أخاف عليك..

- من ماذا؟!

- من الوقوع في ظلام المجهول.. فإذا عرفت السر واختفيت.. لن تتحمل عقاب الله..

- وأين العدل في أن تملك سراً لا يعرفه أهل الجنة؟!

- لم يفضلني الله عليكم.. ولكنه رآني مناسباً لأحتفظ بتلك الأمانة..

فتدخل "خازن" قائلاً:

- وأنا أيضاً رآني أستحق ذلك.. ولكنه عاقبني في النهاية!

فنظر له "سهيل" نظرة تحدي فسألته:

- وما الذي يضمن لي أن ما تقول هو الحق؟! هل تعرف ما وراء ذلك السر؟! هل لديك اليقين؟! أريد الحقيقة!

- كفى أسئلة يا "زاهر".. تلك الأسئلة ستوديك إلى نتيجة ستجعلك نادماً.. فعلينا أن نُسَلِّم لحكمة الله التي نجهلها

- لعل الله أرادنا أن نعرف هذا السر.. وأنت الذي لا تريدنا أن نعرفه لتكون لديك السلطة في أن تفعل ما تشاء!

فبهت "سهيل" مصدوماً مما قلته وقد جحظت عيناه.. بينما أنا لازلت متعجباً من أمره فتركته وأنا أفكر في ذلك السر الذي سيضيف إلى عقلي وفضولي لعنة أخرى.. ثم نظرت حولي فدلفت إليه وسألته مستفسراً:

- وأين ذهبوا أصدقائي الآن؟!

فرد عليّ قائلاً وهو ينظر إلى "خازن" نظرة عتاب:

- لا أعرف.. لكن هناك من قام بإفشاء السر.. فعندما عرفوه.. حدث لهم ذلك!

- هل هذا يعني أنني لن أرى أصدقائي مرة ثانية؟!

- لا أعرف.. لا أعرف أي شيء.. كفى كلاماً.. لقد زاد الأمر عن حده!

- إذن سأبحث عن أصدقائي.. وسأعرف السر وحدي إذا لم ترغب في أن تقوله لي.. أنت.. أو خازن!

فنظرت "الخازن" نظرة لوم فنظر حوله متجنباً النظر في عينيّ.. بينما كانت "سلسبيل" تنظر لي نظرات يشوبها القلق و"سهيل" ينظر لي نظرة حسرة يصاحبها تنهيدة طويلة وهو يومىء برأسه متعجباً من أمري ثم وجدت الحاضرين ينظرون لي بافتخار كأنني بطلهم الذي سيحرر أهل الجنة من الجهل وسيكشف الأسرار التي غابت عنا طويلاً وسيُخرجها من البئر المظلم.. فأخذت "ياقوت" رفيقي في رحلتي ثم انطلقت به في أرجاء الجنة الواسعة أبحث عن ذلك السر الغامض منادياً بصوت عال:

- يا أهل الجنة.. لا تسمحوا بأن يُخبأ عنكم أي سر من الأسرار.. فمن حقكم أن تعرفوا ذلك السر الخطير!

ثم وجدت التهليل والتكبير وكأن أهل الجنة كانوا ينتظرون من يشجعهم على العلم والمعرفة.. فلعلي جئت لأُنير عقولهم وأُخرجهم من الظلمات إلى النور.

-٣-

"لن أبرح حتى أعرف ذاك السر الخطير!"

لم أعرف وجهتي.. فكنت أجول في الجنة الواسعة.. اقتربت من سوق الجنة الذي يمتلىء بالملائكة والبشر.. فوجدت سحباً بيضاء أسير عليها ولآليء مصفوفة بجوارها ملائكة.. وكل لؤلؤة لها وظيفة وهناك ملاكاً يشرح وظيفتها فهو يقف ليعطي البشر هدايا ويلعب معهم ألعاباً ممتعة.. فهناك لؤلؤة بها ثياباً من سندس وحرير ولؤلؤة أخرى بها كائنات وخيول "كياقوت" وغيره.. وهناك ألعاباً حيث أن كل إنسان يحمله ملاكاً ويطير به إلى أعالي السماء ويهبط به تحت الأنهار والبحار.. وهناك ألعاباً أخرى تجعل الإنسان يصبح كالأسماك في الأعماق فيرى كائنات ملونة وملائكة بزعانف بيضاء لونها.. وهناك مالذ وطاب في ذلك السوق فهناك طعاماً وشراباً متنوع ومختلف أنواعه وألوانه.. وهناك لعبة أحبها كثيراً حيث أن كل شخص يحمل شجرة من الأشجار ويلقيها بعيداً.. ومن كانت شجرته أبعد فقد فاز بحورعين.. ولكنني أكتفي بحوريتي "سلسبيل" فأنا ألعب للتسلية والمتعة ليس أكثر.. وهناك لؤلؤة بها مراية.. من ينظر إليها ويتخيل نفسه بشكل معين فيصبح أكثر جمالاً يفوق خياله.. وبينما أنا أنظر إلى الوجوه المستمتعة بجنتها وأسمع ضحكاتهم التي تجعل قلبي ينبض فرحاً.. حاولت أن أسأل عن السر الخطير.. ولكن لم يفيدني أحد.. فتوجهت إلى نهر تسنيم حيث ماؤه الممزوج بالزنجبيل ورائحته كالمسك.. فارتويت منه قليلاً ثم حاولت أن أسأل كل من يمر على النهر ولكنهم لم يفيدونني بشيء فذهبت إلى نهر الكوثر حيث أن لون ماؤه كبياض السحاب حيث يشبه اللبن وتفوح منه رائحة العنبر.. وبعد ذلك مررت على خيام من لآليء فدخلتها وسألت من يسكن بداخلها عن ذاك السر الخطير ولكنني لم أعرف أي شيء.. فمشيت على التراب حيث ملمسه الناعم الذي يتكون من الزعفران الأصفر الذهبي اللامع.. فدوماً أشعر أنني أسير في حديقة من حرير مليئة بالزهور حيث رائحتها الذكية التي تجلي القلب وتنعش الروح.. وبينما أنا أسير وأبحث عن السر وجدت طيوراً ودواباً عجيبية في غاية الرونق والجمال فسبحان من خلق كل ذلك.. ولكن لماذا سخره لنا نحن؟! فماذا فعلنا ليحبنا كل هذا الحب ويعطينا كل ذلك لنا ويميزنا هكذا؟! وأين ذهب أصدقائي؟! ولماذا اختفوا؟! لعن الله أسئلتي وفضولي الذي سيقضي عليّ!

التقيت بحكماء وملائكة وخدم لكن دون جدوى.. رأيت أهل الجنة بدأوا في الإختفاء واحداً تلو الآخر حتى جلست أفكر على أحجار كريمة تنبعث منها الأنهار.. فتأملت الطيور والخيول في السماء.. فلاحظت أن معظم الطير يذهب في اتجاه معين فركبت "ياقوت" وذهبت ورائهم ومررت على بحار فضية تتلألأ كالكريستال رائحتها كالزبد وصوت أمواجها سيمفونية موسيقية.. فأكملت طريقي حتى وجدت نفسي في مكان به أشجار عديدة وكل الشجر من الذهب المرصع بالماس واللآلىء وأمر في طريقي على أنهار وشلالات شفافة تفيض من السماء حولي.. بينما أنا و"ياقوت" نمر من خلالها.. أكملنا مسيرنا ثم وجدنا فجأة رجلاً يجري في اتجاهنا متمتماً: أستغفرالله.. سامحني يا الله.. فتعجبت من أمر ذلك الشخص.. فركضت وراءه حتى أوقفته حتى تعجب مني فسألته:

- ماذا تعني باستغفارك ومطالبتك السماح من الله؟! ما الذي حدث؟!

- لقد انتشر سراً خطيراً في الجنة وقد سمعت أن من يبحث عنه ويعرفه سيلقى عقاباً من الله ولكنني تراجعت!

- وما هذا السر؟!

- من الأفضل ألا تعرفه..

- لابد أن أعرفه.. هل تعرف أين ذهب أهل الجنة؟!

نظر لي كأنه يشفق عليّ وأنا أريد أن أفهم ما الذي يحدث.. فحكي لي أن أهل الجنة لديهم ذلك الفضول وكانوا يعرفون أن هناك سراً خطيراً لكنهم رفضوا البحث عنه أو معرفته.. حتى وجدوا وساوس تجري في دمائهم كمجرى الدم في العروق.. وكانوا يتسامرون مع خدم الجنة الذين يتصنتون على الحكماء.. فتم إفشاء هذا السر الذي جعل أعين أهل الجنة تلمع وفضولهم يُثار حول ذلك.. فشعروا أن هناك مكاناً أفضل من الجنة وبدأوا يتسائلون عن سبب فوزهم بالجنة بدون أن يسعوا لأجلها ثم شعروا أنهم لا يستحقوها حتى التهمهم ذلك السر الخطير فأُثير فضولي أكثر وكنت أعتقد أنني الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة.. ولكن ما سر هذه الوساوس الغامضة؟! فسألته:

- ولماذا لم تذهب معهم؟!

كانت هذه أول مرة أرى شخصاً ضميره يؤنبه ويشعر أنه قد أذنب وأخطأ في جنة لا يوجد بها شيئاً صحيحاً أو خاطئاً فكلنا نعيش في الجنة بضمير نائم ومستمتع.. لكنني عرفت منه أنني قد اقتربت من ذاك السر ولذلك تأتينا مشاعر غريبة لم تحدث لنا من قبل.. وقد تراجع لأنه شعر بالذعر والندم.. فهممت أن اسأله سؤالاً آخر لكنه تركني ورحل خائفاً فتعجبت منه وحدثت نفسي بأن ذلك الشخص لن يجعلني أتراجع عن قراري فلابد أن أعرف الحقيقة التي أخفت أصدقائي.. ثم أكملت سيري حتى خطر في ذهني بأن آكل لحماً مشوياً ثم أقوم بإكمال رحلتي لكنني لم أجد شيئاً حيث أنني قد طلبته من الله.. لكنه لم يأتي لي بأي شيء.. فابتلعت رمقي خوفاً واقتربت من مكان يُشبه الكهف.. فترددت قليلاً ثم وجدت "ياقوت" قد تراجع ولم يرغب في الإقتراب.. فتعجبت ثم دخلت ذلك الكهف المظلم فوجدت صُراخاً.. فتوخيت الحذر وأنا أقترب.. ثم ناديت على أصدقائي ولكن لا أحد يرد.. فشعرت فجأة بغصة في صدري وتلاحقت أنفاسي وبدأت أشعر بأشياء لا أستطيع وصفها.. لكنها مشاعر تؤلمني وتجعل قلبي يخفق بشدة.. ثم شعرت بإعياء غريب لم يحدث لي قبل ذلك.. وبعد قليل خرجت من الكهف من الناحية الأخرى.. فانقبض صدري من هول ما رأيته وشيء ما جال في خاطري بأن هذا هو السر الخطير.. رأيت العديد من الأجنحة البيضاء وكل جناح يمتد من الأرض إلى السماء فريقي قد جف وأنا أنظر إلى أعلى.. فرأيت شيئاً منيراً يقترب مني حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى فارتعدت فرائصي من هيبة ذلك الكائن الذي لا أعرف إذا كان ملاكاً أم ماذا.. فحاولت النظر لوجهه الذي كاد يعميني نوره فرأيت ملامح ضخمة ومضيئة وبيضاء ثم أخذني على جناحه ورفعني لأعالي السماء ولم ينبس ببنت شفة ولكن نظراته توحي بأنه غاضباً.. فحاولت أن أسئله ولكنني غير قادر على النطق فوجدت فوهة فمه الواسعة وهو يصيح في وجهي صيحة مدوية.. فارتميت خارج الكهف حتى وجدت نفسي بجوار "ياقوت" فتلاحقت أنفاسي وفكرت بأن أعود ثانيةً إلى قصري.. ولكنني لم أستسلم وكررت الكرة مرة ثانية.. ثم وجدت حديقة شاسعة وخاوية ورأيت نهراً بعيداً لامعاً فذهبت ناحيته في حذر وأنا أنظر حولي ولكنني وجدت الكثير من البشر يهرولون ناحيتي وهم ينظرون خلفهم ونظراتهم خائفة فأوقفت شاباً لأسئله ولكنه دفعني وأكمل طريقه.. فشعرت بأن هناك شيئاً يتحداني.. فأكملت طريقي لأعرف السر وأرضي فضولي وأجد أصدقائي.. ثم اقتربت من ممر به أشجار كثيرة وطيور ضخمة حيث أن كل شجرة عليها طائر لونه وردي..

ثم وجدت كل طائر يصدر صوتاً مزعجاً يشبه القرقرة فسددت آذاني وأكملت طريقي حتى اقتربت من سور طويل وكبير فالتففت حوله حتى وجدت باباً شاهقاً وضخماً فرأيت حارساً يجلس أمام الباب بوجه متجهم ويظهر عليه الغُلب والإستسلام.. فتجاهلته وحاولت الدخول ولكن الباب كان مغلقاً تماماً.. حتى وجدت ذلك الحارس يمسك بيدي وينظر لي:

- هل أنت متأكد من فعل ذلك؟!

أومأت برأسي موافقاً ثم سألني:

- لماذا؟!

فلم أجد إجابة.. فهيبته جعلتني لا أستطيع أن أتكلم.. ثم ابتسم لي نصف ابتسامة:

- لا تخف.. فما يخيفك ليس هنا.. ولكن في مكان آخر.. ستختاره أنت عندما تجد ما سيلتهمك.. قبل أن تلتهمه..

تعجبت من طريقة كلامه الغريبة فسألته:

- ما الذي سيلتهمني؟!

فقال مبتسماً نصف ابتسامة:

- عندما يتعلق القلب بالمفقود.. يلتهم صاحبه!

فنظرت إلى الباب في خوف ثم عدت لأنظر إلى هذا الحارس ولكنه اختفى فنظرت حولي باحثاً عنه ولكنني وجدت نفسي وحدي ثم دفعت الباب فتم فتحه بصعوبة.. ثم وجدت رياحاً عاتية تتلفح وجهي كأنها تمنعني من الدخول لكنني قاومت ذلك ودخلت حتى تم غلق الباب ورائي وقد هدأ الجو وأصبح صافياً فنظرت أمامي لأجد منصة بها ملاكاً ذو هيبة.. أجنحته بيضاء وكبيرة ومرفوعة جالساً على عرش ذهبي وحوله أشجاراً عليها طيوراً ضخمة تشبه النسور.. وبينما أنا أرفع رأسي لأنظر له.. رمقني بنظرة عتاب وأمسكني بإصبعيه ورفعني للأعلى أمام وجهه قائلاً بنبرة يشوبها الحدة:

- لماذا تتمرد على خالقك؟!

- أنا لم أتمرد.. ولكنني كنت أرغب في معرفة الحقيقة فقط ليس أكثر..

- أي حقيقة؟!

- السر الخطير الذي لا يعرفه أهل الجنة..

- هل تريد الخروج من الجنة؟!

- أريد أن أخرج لأبحث عن أصدقائي.. وسأعود مرة ثانية!

- هل تعرف ما الذي سيحدث لك إذا خرجت من الجنة؟!

- لا..

- إذن لماذا تريد أن تترك كل هذا النعيم في سبيل معرفة ذلك السر الذي تريد أن ترضي به فضولك المسكين؟

- كي يطمئن قلبي.. أريد أن أطمئن بأنني أستحق الجنة.. وكي يرتاح عقلي.. أريد أن أعرف لماذا خلقنا الله في الجنة بدون أن نبذل أي مجهود لنحظى بها؟! ولماذا يخبىء عنا أسراراً ونحن في جنته التي سخرها لنا؟!

- وإذا أخبرتك بالسر الآن؟! هل ستذهب لتراه وتجربه؟! أم ستعود إلى قصورك في الجنة؟!

- لا أعرف.. ولكنني أريد أصدقائي الآن.. وأريد أن أعرف أين ذهبوا.. وأريد أيضاً أن أطمئن بأنه ليس هناك مكاناً أفضل من الجنة!

ثم اختفى ذلك الملاك فوقعت على الأرض و وجدت فتحة تحت قدمي فوجدت نفسي أهوى في حفرة عميقة وصرخت صرخة مدوية وأنا أسقط كورقة شجر.. ولأول مرة أشعر شعوراً مزعجاً كأن هناك شخصاً يسحب أنفاسي وأنا أقاوم متمسكاً بها لا أريدها أن تتركني.. وبينما أنا أسقط.. أنظر تحتي راغباً في أن أستقر على أرض صلبة ولكنني أجد أنني أقع في بقعة سوداء لا أرى لها أي قاع.. ثم ارتطمت بأرض فتأوهت وخرجت مني صرخة يصاحبها ألماً يحتل جسدي بأكمله.. فنظرت إلى الأعلى بأنفاس متقطعة وصمت مرعب فوجدت ثقب بعيد يظهر منه نور السماء.. وفجأة وجدت كائناً غريباً يقترب مني ملثماً وجاحظ العينين كأنه يرتدي عباءة سوداء فشعرت بتنميل في جسدي حتى ضمني إليه بعنف ثم شعرت باختناق فتمتمت بصوت مختنق:

- يارب.. يارب

وبعد ذلك لم أشعر بشيء ولكن انتابني ثقل في رأسي ورأيت كل شيء حولي يدور حتى أغلقت عيني جفونها وأُظلم كل شيء ففتحت عينيّ حيث تتلاحق أنفاسي ثم وجدت نفسي أمام بحر أزرق أجلس على رمال فتوقفت وأنا أترنح ونظرت حولي ثم لاحظت أن هناك جبالاً ورمالاً وأمواجاً يصطحبها صوت موسيقى غريب يقترب مني فذهبت ناحية ذلك الصوت حتى وجدت سحباً كثيفة على مرمى بصري فرأيت هناك جزيرة في وسط البحر ثم وجدت السماء تمطر عنباً كثيراً فتعجبت من ذلك ولكنني أكلت بعضاً منه وبعد ذلك أخذت خطوة ناحية البحر وجعلت أصابعي تلمسه.. ثم نظرت إلى تلك السحب.. فسمعت صوتاً مهيباً لم أعرف مصدره فتوقفت لأسمع ما يقول:

- لقد أردت أن ترضي فضولك وتعرف ذلك السر الذي سيجعلك تغادر الجنة.. والآن سأخبرك بالسر الذي طال انتظارك لمعرفته.. فالسر في الشجرة..

- وما هذه الشجرة؟!

- شجرة العنب المحرمة.. من يأكل منها سينال ابتلاءً وعقاباً من الله..

- لماذا؟! أنا أبحث فقط عن إجابات تزيدني معرفة..

- المعرفة كالبحر.. كلما زاد علمك زاد نقصك!

- ولماذا تمنعوني؟!

- لأن الله يحبك..

- من يحبني يُزيد علمي ومعرفتي بأي شيء!

- ليس شرطاً.. فعندما لا نعرف أشياء.. نرتاح أكثر ونسعد ونرضى..

- ولماذا أنا لا أستطيع أن أرتاح أو أسعد أو أرضى؟!

- لأنك تشترط على نفسك بأن تعرف أشياءً معينة حتى تكون مرتاحاً أو سعيداً أو راضياً.. لقد عبدت فضولك وسعيت لإرضاؤه.. ولم تعبد ربك ولم ترضيه.. فلك الخيار.. أن ترضى وتحمد أو تسخط وتجحد!

- وكيف أصل إلى الرضا؟!

ثم وجدت صمتاً تاماً وشعرت بالتيه وتمنيت أن أختفي مثل أصدقائي.. لعلي أرتاح من كل تلك المتاعب الغير مبررة التي أواجهها وحدي.. ولعلي أجد إجابة لتساؤلاتي تجعلني أطمئن فقط ليس أكثر!

- ٤ -

"شجرة العنب المحرمة"

نزلت البحر وسبحت وقاومت الأمواج حتى شعرت بالتعب والإنهاك فاقتربت من السحب.. ولكنني فجأة فكرت في التراجع.. فماذا لو لم أعد مرة ثانية؟! سأفتقد "سلسبيل" حبيبتي و"سهيل" و"خازن".. ولكنني أريد أن أطمئن على أصدقائي قبل أن أرضي فضولي.. ثم تشجعت وحاولت الوصول إلى تلك الجزيرة.. ولكنني لم أستطع فهناك مقاومةً ما لا أعرف إذا كانت مني أم من البحر!

عدت مرة ثانية ونظرت حولي فوجدت جبلاً موازياً قريباً من الشاطىء.. فتسلقت ذلك الجبل لأعرف ما الذي تخبئه هذه الجزيرة.. حاولت النظر من أعلى الجبل على ما بداخل هذه السحب.. فوجدت السحب بطول الجبال ملتفة حول شيء ما يبدو أنه شاهق وهناك طيراً يذهب ناحيته وهناك الكثير من البشر يتجهون ناحية السحب ولا أحد يعود غير القليل منهم يعود مهرولاً.. وأنا أتمعن بنظري أرى لمعاناً وسحراً بداخل هذه السحب الكثيفة فتوقعت أنها الشجرة وعرفت أنني يجب أن أذهب إلى هناك وأتجه إليها.. فقد وصلت لما أريد وعرفت السر وسأعرف أين أصدقائي وسأجد إجابة لأسئلتي وسيغفر لي ربي لأنه يحبني.. فهو خلق فضولي وسيرضيه فأنا لم أفعل شيئاً خاطئاً.. ولن أبرح حتى أصل إلى شجرة العنب المحرمة.. وإذا كانت الشجرة هي السر فبالتأكيد ورائها أسراراً وكنوزاً يجب أن أعرفها.

لا أعرف لماذا سُميت بالشجرة المحرمة؟! فما الحرام في أن نأكل من شجرة كبقية الأشجار؟! ولماذا نُحرم من شيء لامع وساحر كتلك الشجرة؟! كنت أسبح في البحر وأتخبط في الأمواج ثم أغطس فأجد نفسي أرفع رأسي بسرعة فلا أعلم لماذا لا أستطيع التنفس تحت البحار وأعجز عن فتح عينيّ.. فكل ما أخافه هو أن ما كنت أستطيع فعله في الجنة وكل ما كنت أشعر به من مشاعر طيبة أُحرم منها الآن!

اقتربت من الجزيرة وأنا أرى حولي من يقاوم الأمواج ليصل إلى هناك.. فوصلت إلى تلك الجزيرة وقد أصابني الإنهاك.. فقمت بالدخول عبر السحب البيضاء.. فرأيت شجرة شاهقة وضخمة.. و وجدت أن الجزيرة كبيرة و واسعة لدرجة أنني شعرت بأنني وحدي.. ثم نظرت لأعلى فوجدت أطول شجرة رأيتها في حياتي حيث أن طولها يبلغ عنان السماء وحجمها يكاد يسد مابين السماء والأرض ثم اكتشفت أنها شجرة عنب وجذعها من الذهب الخالص وأفرعها من الماس يتدلى منها عنباً ضخماً وعنباً صغيراً كالآلىء مختلفاً ألوانه وهناك سلم ذهبي عريض وطويل يمتد إلى أعالي السماء.. فوجدت لعابي يسيل عندما رأيت العنب الذهبي والعنب الفضي يُضيء السماء بلمعانه ورونقه والعديد من الأعناب المغرية.. فلماذا يُعد كل ذلك محرماً؟!

ثم حاولت الإلتفاف حول الشجرة فوجدت فوهة كبيرة من جذعها تُخرج دخاناً غريباً ولكن رائحته ذكية تُشبه رائحة العود والبخور فعندما شممتها شعرت برغبة قوية في أكل العنب من الشجرة.. لكن هناك شعوراً منعني لا أعرف ما هو فأخمدت ذلك الشعور وقاومته.. لكنه هزمني وجعلني أرغب في العودة إلى بيتي بسبب لحظة الهيبة والخوف من مجهول ينتظرني.. فما أسخف الخوف.. ذلك الشعور الجديد الذي أختبره لأول مرة..
فخوفي الذي أعرفه هو النابع من الحب.. فعندما أخاف على "سلسبيل" من شيء ما بسبب عشقي لها يختلف عن خوفي من خطر ما أجهله فيشل أطرافي وتفكيري وينزع الاطمئنان من قلبي والأمان من حياتي ويطمس سعادتي ولكنني أشعر أن هناك شيئاً مسيطراً عليّ له لذة.. فشهوتي هي التي تقودني الآن إلى السلم لأصعده..
فأمسكت السلم ولكنني لم أستطع الصعود فحاولت و وجدت ملمسه لزجاً.. ثم وجدت رائحة العود والبخور قد تملكت مني وشعرت بطعم الدخان في فمي فسعلت كثيراً ثم رأيت كل شيء يهتز أمامي..

فلا أعرف إذا كان هذا حقيقياً أم دواراً قد لحق بس.. فتلاحقت أنفاسي وشعرت بغثيان وبألم في معدتي حيث أشعر أنها تريد إخراج ما بداخلها.. ثم تراجعت عن قراري وتركت فضولي يتعارك مع خوفي وكان صراعي أنا مع شهوتي.. بينما عقلي يتصارع مع قلبي كعادته.. ثم وجدت نفسي أنادي على "ياقوت" بصوت مكتوم ومختنق غير قادر على أي شيء حتى سقطت أرضاً وأنا أسمع صفيراً في أذني وشعرت أنني أسبح في السماء بعد أن ثبت نظري على ثمار العنب وأنا ممدد على الأرض فمددت يدي وأنا لا أعرف ماذا أريد حقاً.. حتى أُسدلت جفوني.. ثم وجدت نفسي في قصري وأنا أسمع الأصوات المألوفة حولي.

* * *

رأيت "ياقوت" أمامي و"سلسبيل" حيث يبدو عليها أنها قد اشتاقت إليّ ويظهر على "خازن" أنه يرغب في الاطمئنان عليَّ.. ولكن "سهيل" يبدو عليه التعجب من أمري ومن فضولي الغير مبرر الذي يرى أنه سيقضي على حياتي!

رأيتهم جميعاً أمام سريري يتحدثون وأنا لا أعرف كيف عدت إلى قصري فقد سعدت بنجاتي ولم أتوقع أنني سأواجه كل ذلك وحدي.. ثم اعتدلت في جلستي وأنا أتابع حديثهم.. فوجدت "سهيل" يسأل "خازن" معاتباً:

- لماذا قد فعلت كل ذلك يا خازن؟!

- فعلت ماذا؟!

- خنت الأمانة!

- أنا لست خائناً.. ولا يوجد خيانة في الجنة.. لماذا تظلمني دوماً؟!

- لا يوجد أيضاً ظلماً في الجنة.. ولكننا نظلم أنفسنا عندما نكذب..

- أنا لا أكذب!

فتدخلت "سلسبيل":

- كفى كلاماً.. فالجنة مكاناً للحب والرحمة والسلام.. فكيف تتفوهون بتلك الإتهامات؟!

ثم رد "سهيل" عليها:

- الجنة بريئة من أي شيء يحدث بين البشر.. فالله أعطانا الإختيار بأن نبقيها جنة أو نجعلها تتحول إلى جحيم كما فعل الجان في أرضهم قبل أن نُخلق.. وقد جعل معرفة ذلك السر أو البحث عنه حراماً.. وهذا لصالحنا..

ثم حسمت "سلسبيل" الأمر و وجهت كلامها لكليهما:

- خازن.. لعله خطأ منك وقد دفعت ثمنه بعد أن عوقبت.. ويا سهيل.. ما دامت تلك الشجرة موجودة فالله له حكمة في ذلك.. ولا يوجد سراً يبقى في البئر إلى الأبد.. فاترك غيرك يختار ما يريد!

ثم نظر "سهيل" لهما متعجباً:

- أنا لا أصدق ما أسمعه منكما.. أنتما تعرفان جيداً ماذا سيحدث إذا انتشر السر بين أهل الجنة.. ستفقد جنتنا سحرها ورونقها.. وسيفقد أهلها سعادتهم وأخلاقهم ومشاعرهم الطيبة وسنُحرم من النعيم!

فرد عليه "خازن" ضاحكاً:

- هل لازلت تصدق تلك الخرافات؟!

- إذا كانت خرافات فلماذا بعد إفشاء السر وانتشاره أصبحنا نعادي بعضنا ولا نرضى بسهولة كسابق عهدنا؟!

- أنت الذي أصبحت تعادينا جميعاً وغرورك جعلك لا ترى سوى نفسك.. وإفشاء السر كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً فلست أنا السبب في كل الأحوال.. ولكن السبب هو فضول أهل الجنة وافتقادهم لأحبابهم الذين اختفوا..

- أنا أعرف أنك قد أفشيته بسبب والدك الذي طرده الله من الجنة.. فتريد أن تجعل جميع أهل الجنة يخرجوا كما خرج!

فنظرت "سلسبيل" نظرة غيظ "لسهيل".. فاعترض "خازن" قائلاً:

- لا.. ليست هذه الحقيقة.. أنت دوماً تعتقد أنني شيطاناً.. رغم أن الشيطان الحقيقي في رأسك أنت.. ولماذا لا تكون أنت السبب في خروجهم حتى تكون الجنة لك وحدك؟!

ثم تدخلت "سلسبيل" قائلة:

- لماذا أصبحتما كذلك؟! لقد كنتما أعز صديقان والأقرب دوماً في الجنة بأكملها.. ماذا حدث؟!

فقاطعت حديثهم عندما قمت وأنا أترنح يميناً وشمالاً كأنني ثملت.. حيث كنت أحاول أن أثبت قدمي على الأرض تاركاً سريري المُذهب وغطائي الحريري مقترباً إليهم وهم منغمسون في نقاشاتهم وأسمع همهماتهم ولازالت أنفي بها آثار رائحة البخور والعيدان.. فتأملت الألوان من حولي ولا أعرف إذا كانت ألواناً حقيقية أم هذه ألوان صنعتها عيناي بعد أن تعرضت إلى تلك الشجرة العجيبة.. ثم وجدت "خازن" و"سهيل" و"سلسبيل" توقفوا عن كلامهم واقتربوا مني لأحكي لهم ما حدث.. فحكيت لهم ما رأيته ورأيت نظرات الإنبهار في أعينهم فوجدت "سلسبيل" عيناها تلمع ويظهر عليها أنها فخورة بما صنعت وبدا عليها أنها سعيدة بعودتي وعدم اختفائي.. أما "خازن" وجهه كان متجهماً غير مفهوم ولكنه يظهر عليه الإنصات بينما "سهيل" يظهر على وجهه القلق والخوف والحذر لأول مرة.. ثم بادرتهم بسؤال طرأ في ذهني:

- أين يذهب أهل الجنة عندما يأكلوا من شجرة العنب هذه؟! ولماذا يختفوا ولا يعودوا؟! ولماذا يحدث كل ذلك عندما نقترب منها؟!

فتبادلت النظرات بين "خازن" و"سلسبيل" ولم يرد أحد وقد أشاح "سهيل" بوجهه بعيداً.. ثم أردفت موجهاً له أسئلتي غاضباً:

- لماذا هناك أسراراً وحقائق لا تريدني معرفتها؟! وماذا سيحدث إن عرفتها؟!

فنظر لي نظرة حادة و وضع يده على كتفي:

- هناك أشخاصاً يسمعوا النصيحة ثم يأخذوا حذرهم فيحميهم الله.. وهناك آخرون مثلك.. يحبون أن يتعلموا الدرس بأنفسهم حتى وإن كان درساً قاسياً.. ولعل هؤلاء من هم على شاكلتك يتعلموا جيداً أكثر من غيرهم لكنهم يندموا ويتألموا ويعانوا كثيراً..

لا أعرف ما الذي يجعلني مُصِرّاً على معرفة كل شيء.. لعلها فطرتي التي فطرني الله عليها.. ولعل فطرة الفضول لديّ زائدة عن بقية الخلق!

شعرت أنني عندما أصررت على معرفة ذلك السر.. فكان إصراري محفزاً لأهل الجنة حيث جعلهم يرغبون في معرفته والخوض في مخاطره.. فأعتقد أن "خازن" غير مُلام.. ولكن لعلي أثرت فضوله.. و ربما قد فعل ذلك في سبيل أن يرضيني ويُرضي فضولي ولهذا قام بإبلاغ أهل الجنة بالسر من خلال الخدم حتى لا أشعر بوحدتي فيجعلني أطمئن بأن هناك العديد ممن لديهم الفضول مثلي لمعرفة السر الخطير.. لأننا عندما نجتمع على أمر ما.. يكون أفضل من أن أكون أنا الشخص الوحيد، الغريب، المتمرد من بين أهل الجنة أجمعين!

ثم وجدت "سهيل" متجهم الوجه قائلاً بعد تنهيدة طويلة ليتخلص من إلحاحي:

- السر الأخطر هو أن السعي وراء تلك الشجرة.. يجعلنا نفقد قدراتنا في الجنة وتتم استبدال مشاعرنا بمشاعر أخرى غريبة لا يعلمها إلا الله.. ولعل هناك يوماً نجد فيه الجنة فارغة.. ولكن وجودنا أو اختفائنا سيكون سواء

نظرت إلى "سهيل" وفهمت ما الذي يرمي إليه.. فلعله عقاباً بأن يقل تذوقي للنعيم حتى يصبح محدوداً أو فانياً ولعل الجنة تظل على حالها.. ولكن لن يبقى أحداً منا على حاله.. ثم قلت لهم:

- ربما من يأكل من الشجرة يختفي فيصبح كقطرات الماء أو نسمات الهواء ولا يذهب إلى أي مكان آخر أو...

ثم نظرت ورائي فوجدت "ياقوت" فأردفت:

- يتحول إلى حصان!

ثم قال "سهيل" بنبرة حادة:

- الإنسان لا يفنى ولا يتحول يا زاهر.. فهو أبدي ومُكرم من رب العالمين.. ومن يأكل من الشجرة سيلقى عقاباً من الله.. لأنه سيكون جاحداً بما أنعم الله به عليه.. وسيذهب إلى مكان قميء جزاء ما فعل!

فأكملت:

- أو مكان أجمل من الجنة لا تريدنا الذهاب إليه يا سهيل!

فأومأ "سهيل" برأسه في يأس و زفر في ضيق.. ثم سألني "خازن":

- هل هذا يعني أنك ستذهب إلى الشجرة مرة أخرى؟!

فتدخلت "سلسبيل" بنبرة حاسمة:

- سأذهب معك يا زاهر!

فابتسمت لها.. ثم نظر إلينا "سهيل" وهو فاقد الأمل.. ونظر إلينا "خازن" في ترقب وتوجس.

-٥-

"هل أنا مخير في خروجي من الجنة أو بقائي فيها.. أم مسير من إلهي؟!"

أسبح في سماء الجنة على ظهر "ياقوت" ولأول مرة ينتابني الشعور بالذنب.. فلعلي السبب في اختفاء معظم أهل الجنة.. حيث كنت مصراً على معرفة ذلك السر الخطير وكنت مستعداً أن أخاطر لأعرفه وتمردت على القدر وجعلت أهل الجنة يتعجبون من جرأتي.. ولكن عندما وصلت إلى الشجرة.. تراجعت.. بعد أن جعلتهم يتذوقون ما أردت أن أتذوقه.. فكيف فكرت في أن ألوم "خازن" أو "سهيل" رغم أنني أشعر بشيطنتي الآن ولا أعرف إذا كنت أبالغ أم لا.. بل أنا وصلت الآن لمرحلة من الشتات.. فلا أعرف ماذا أريد حقاً فالجنة ستصبح صحراء جرداء قريباً بسببي أنا.. فإذا كنت ألجمت لساني لما حدث كل ذلك.. فكيف فعلت حدث كل هذا؟! وهل أنا السبب حقاً؟! أرى الأشجار وأسمع حفيفها وأرى الأحجار والأنهار وأسمه خريرها.. بينما القصور بها القليل من البشر.. فالجنة مُسخرة لنا.. وإذا أكلنا من الشجرة.. إذن ستصبح مُسخرة لمن؟! لعلي أستحق العقاب من الله.. ولعلي مذنباً حقاً بسبب جحودي!

عدت إلى قصري بعد أن تجولت في جنة تمرد فيها البشر وقرروا أن يهربوا مما سُخر لهم.. فما أغربنا حقاً نحن بنو البشر.. ثم رأيت "سلسبيل" مع "خازن" يتحدثان ويناولها الطعام والشراب.. فنظرت لهما متعجباً ثم استأذن "خازن" وخرج ليتركنا وحدنا.. فسألتها:

- ما الذي كان يفعله خازن معكِ؟!

- لا أفهم مرادك! ماذا تقصد؟!

- أقصد أنه ليس خادماً الآن.. فما الذي يحدث هنا من وراء ظهري؟!

تعجبت "سلسبيل" فاقتربت مني بنظرات مشدوهة وحادة:

- قُل لي أنت ما الذي حدث لك؟! هل تشك في حبي؟! هل تعتقد أنني....

فقاطعتها قائلاً بنبرة يشوبها الندم:

- لا لا ليس قصدي..

فردت عليّ بحدة مقاطعة:

- لا.. قصدك أنني أحب أحداً غيرك.. فشككت في خازن.. صديقك المقرب.. وصديقي أنا أيضاً.. ألا تعرف أن الزواج من الخدم ممنوع ومُحرم في الجنة ولا ينبغي على حور العين أن يتزوجوا من أي منهم أو من نسل الجان أو الملائكة حتى لا تحل عليهم لعنة الرب؟!

- أعرف ذلك وأعرف أنكِ مُسَخَّرَة للبشر فقط ولكنني...

ولأول مرة أجدها غاضبة فقاطعتني ثانيةً:

- ألا تعرف أنني ضحيت لأجلك أنت؟! فقد رفضت أن أحب أي شخص.. ولم أقع في حب أي إنسان غيرك.. فأنا ملكة الحوريات.. وقد اخترت أن أحبك أنت وأعيش معك أنت.. والآن تشك في محبتي لك؟! فقد أعطيت لك قلبي وروحي وأصبحت خادمة لك بعد أن كنت ملكة.. فقد سُخرت لك أنت! كيف تجرؤ أن تفكر في ذلك؟!

خجلت من نفسي وشعرت أن "سهيل" كلامه صحيحاً.. فالأحوال تبدلت في الجنة وأصبحت رأساً على عقب وغير مفهومة.. فالغيرة أصبحت شكاً والفضول أصبح طمعاً وجحوداً والحب أصبح تملكاً.. وهذه أول مرة أرى "سلسبيل" تتحدث بعجرفة وغضب.. وأول مرة تنتابني الشكوك والظنون السيئة!

رأيت مقلتيها تلمع بعد أن امتلئت بدموعها.. فكان "سهيل" يحدثنا عن أن أعيننا لا تدمع في الجنة والمرة الوحيدة التي رأى فيها البشر عيوناً تدمع.. كانت عيون والد "خازن" عندما تمرد وتكبر وعصى الله فطُرد من الجنة عندما امتلأ قلبه حقداً من سيدنا "آدم".. فبكى وذُرفت دموعه.. فهل أنا شيطان آخر؟!

* * *

ذهبت إلى "سهيل" في مجلسه المعتاد ورأيته وحده ينظر إلى الأرض ويلعب بالحصى المتلئلئة فجلست بجواره بدون أن أنبس ببنت شفة ثم سألني متجهماً:

- هات ما لديك؟! إتهام آخر؟!

فربت على كتفه نادماً:

- اقبل اعتذاري.. أنت تعرف مدى حبي لك.. ولكن شيطاني أغواني!

- لا يوجد شياطين في الجنة.. فبعد ما فعله والد خازن.. لم يعد هناك أي شيطان..

- ولكن الشياطين في رؤوسنا نحن!

- ربما..

- أشعر بالذنب يا سهيل ولا أجد ما يكفره!

- لا تُحَمِّل نفسك فوق طاقتها.. فبوجودك أو بدونك.. سيُفشى السر ليتم اختبارنا واختبار إيماننا..

- وهل فشلت في الإختبار؟!

- لازلت معلقاً..

- لا أريدك أن تهجرني.. فأنا أعلم أنني ظلمتك وفتشت في نواياك وأصدرت عليك أحكاماً لا تليق بك ولكن هذا بسبب ضعف قوتي وقلة حيلتي!

فتنهد تنهيدة طويلة قائلاً:

- لا يهم يا زاهر.. ولكن ما يهم الآن هو أن تنفض غبار تفكيرك وتستهدى بإلهك..

- وأنت.. ماذا ستفعل والجنة تخلو من حولك؟!

- فوضت أمري إليه.. فهو يعلم ما هو خير لي.. لا تحمل همي.. فيكفيك همك الذي تحمله!

نظرت إلى "سهيل" نظرة شفقة.. فلم يعجبني حاله.. فقد أصبح وحيداً وشريداً.. لعل من يتبنى أفكاراً ومعتقدات فريدة يشعر بأنه وحيد.. فهو يتمسك بإيمانه حتى وإن كان وهماً.. وأنا أتمسك بمنطقي حتى وإن كان مجرد شهوة!

* * *

ذهبت إلى والدة "خازن" وهي تتأمل شلالاً ذهبياً ينزل من السماء على الأحجار الكريمة بينما هي تجلس على لؤلؤة كبيرة وسط الأشجار التي ينبعث منها أنهاراً من لبن وخمر وعسل.. فاقتربت منها وأنا أسمع خرير الأنهار وأتأمل أجنحتها الملائكية.. فهي كالفراشة الشفافة التي يتطاير شعرها المسدول على كتفيها وأشم رائحتها التي كالتوت البري فجلست بجوارها على الأحجار وهي شاردة الذهن.. فنظرت لي متعجبة لتسألني:

- لعلي أخدمك بشيء يا سيدي؟!

فنظرت لها معجباً:

- أنتِ من تستحقي أن أخدمك أيتها السيدة الجميلة..

فابتسمت بوقار:

- العفو يا سيدي.. فأنت تعرف القوانين جيداً..

فضحكت قائلاً:

- لو بيدي أن أكسرها لقمت بذلك يا سيدتي!

فابتسمت لي ابتسامة غير مصدقة وهي تقول:

- سيدتك؟! العفو.. ولكن أعذرني.. هل أنت.. زاهر؟!

- هل تعرفينني؟!

ففردت أجنحتها فوراً ونظرت في الأرض خجلاً:

- ومن لا يعرفك؟! فأنت أشهر أهل الجنة وأعظم فارس يركب الخيول الذي جاء ليحررنا من جهلنا بجرأته

فلم يعجبني كلامها وارتعدت خوفاً.. فجرأتي هذه ستكون سبباً في هلاكي وهلاكنا أجمعين.. فتماسكت ولم أُظهر خوفي.. ثم أمسكت وجهها بحنو لترفع رأسها وأنظر إلى عينيها الزرقاء وأتأمل شعرها الذهبي اللامع ووجهها ناصع البياض الذي يشع نوراً في المكان ويدي لم تمل من نعومة وجنتيها.. ثم أزاحت يدي بهدوء:

- أرجوك.. أنا لا أتحمل أن يعاقبني الله.. فأنا خادمة.. لست بشرية أو حورية!

- لقد جئت لأسئلكِ عن خازن و والده..

فنظرت لي في ذعر وأشاحت بوجهها عني وكأن لسانها قد انقطع.. فأردفت:

- أريد أن أعرف كل شيء عن إبنكِ و زوجكِ.. أرجوكِ..

فوجدتها تنهدت تنهيدة طويلة كأنها تستعيد هموماً تحاول نسيانها.. ثم حكت لي ما حدث:

لقد خلق الله أرضاً لنا لنعيش فيها.. فقد كنا ملائكة وكان هناك الجان أيضاً.. حيث نسكن مع بعضنا في سلام تام ولم يكن هناك جنة وقتها.. ولكن تمردت بعض الملائكة وبعض الجان على خالقهم.. حتى أصبحوا شياطين وذلك عندما وجدوا أنهم عبيداً لله.. فكانوا يطمعون في أن يكونوا آلهة تُعبَد وتُعظَم.. خاصةً بعد أن بعث الله رسولاً لنا من الملائكة يبلغنا بأن الله سيخلق كائناً بشرياً ليكون خليفة الله في الأرض ويكون عوناً لنا وسيخلقه الله على صورته وسينفخ فيه من روحه.. فوجدت شريك حياتي وملاكي.. "مأمون".. قد قرر أن يتشيطن ويعترض على ذلك بعد أن تملك منه الحسد والحقد.. فرجوته أن يعود إلى رشده.. فخالقنا أعلم بما هو خير لنا ولكنه تمرد وتغير وأصبح يعوث في الأرض الفساد حتى دُمرت تدميراً عظيماً.. وقبل أن يتحول إلى شيطان.. أنجبت منه "خازن".. فأشفقت عليه وندمت على مجيئه.. ثم تفرقنا أنا و"مأمون".. وترك إبنه "خازن" ولم يعد يرغب في رؤيتنا ولا نعرف أين هو حتى الآن.. ولكنني أتعجب من تحوله المرعب فقد أصبح كائناً آخر غير الذي أعرفه.. فكان ملاكاً بحق.. ولا أعرف ما الذي صار له ليصبح كذلك.. فالخير والشر يكمن في صدورنا جميعاً ويترك الله لنا الإختيار.. ولعله كان بصيراً ولكنه قد أعماه الغرور والطمع والجحود.. ثم أمرنا الله بأن نجتمع هنا جميعاً في الجنة.. ليرينا خلقته المفضلة.. "آدم".. وليرينا أيضاً أنه قد سخر تلك الجنة بأكملها له فانتبانا الشعور بالرفض والخذلان.. وكان اختباراً صعباً علينا.. فهناك من ثبت على شيطنته وهناك من تمسك بملائكيته.. وقد جعل الله الملائكة وبعض الجان يخدمون "آدم" وبنيه.. حتى أصبح الآن من أهل الغرف.. في الفردوس الأعلى حيث أعلى مراتب جنة الخلد.. حيث المكان المقدس الذي يحفظه الله ويجعلك تراه وتتحدث معه بدون حجاب وذلك المكان لا يصل له إلا من كان أميناً وإيمانه راسخاً بحق.. وعندما رأينا تفضيل الله "لآدم" علينا.. تمرد البعض وتسائل عن سبب ذلك.. فنحن لم نعرف إذا كان ذلك عقاباً لنا ندفع ثمنه أم خير لنا وسنؤتي ثمار صبرنا فيما بعد.. ثم خلق الله شجرة العنب المحرمة وقد حذرنا من الإقتراب منها.. ولكن عندما امتلئت الجنة بالبشر زاد تمرد بعض الملائكة والجان الذين أصبحوا خدم الجنة.. فجميعنا نخدم بني آدم.. ولكن كان هناك اعتراضاً وتكبراً من بعض حور العين والجان والشياطين والخُدّام.. حتى قام "مأمون" بفعل شنيع.. وهو محاولته لدفع كل من في الجنة إلى الشجرة ليتحدى الله فيصبح هو ربهم.. وهناك من الإنس قد أطاع "مأمون" وعصوا خالقهم.. كأن الإنسان قد خذل الله بعد أن وثق فيه.. ولكن الله يعلم بأن الإنسان سيضعف.. وتلك هي الفجوة التي وجدها "مأمون" في بني آدم.. لقد وضع يده على نقطة ضعفه.. وهي الشهوة.. فقد وجده لا يشبع ويشتهي أكثر.. فوسوس لكل إنسان وجعل عقله الذي يفكر لعنةً عليه بعد أن كان نعمة يتميز بها.. جعله يطمع ولا يرضى و وجد أن لكل شخص.. شهوة في شيء ما.. فهناك من يشتهي طعاماً ومن يشتهي كلاماً ومن يشتهي علماً ومن يشتهي حباً ومن يشتهي جنساً ومن يشتهي ذهباً ومن يشتهي نساءً فالإشتهاء كان مفتاحه ليصبح سيد بني آدم فيستطيع التحكم بسهولة ويقوم بالسيطرة عليه وعلى عقله من خلال شهواته حتى تصبح الجنة له هو فقط ويحتلها هو وبني جنسه.. فغضب الله على "مأمون" بعد أن كان ملاكه المفضل وقرر أن يطرده ويطرد بقية الشياطين رغم أنهم كان لديهم فرصة ليتوبوا ويتنعموا في الجنة.. فبكى "مأمون" أمامنا جميعاً وقد رأى "خازن" ذلك المشهد عندما اختفى والده من أمامه فتأثر ولم ينسى ذلك ثم اختار أن يطيع الله.. وفي يوم ما.. قرر أن يتخلى عني.. حيث أن الجنة واسعة وهو يرغب في بعض من الحرية ولم أقوى على فراقه.. لكنني تحملت ذلك واحترمت رغبته.. فتأخر ولم يعد يزورني وبحثت عنه في كل مكان حتى وجدته.. ولكنه كان يلومني معتقداً أنني لم أتمسك "بمأمون" وتخليت عنه ولم أدافع عنه أمام ربه وحتى لم أذهب وراءه.. فابتلعت مرارة اتهامه وأحكامه.. ثم رحلت وحاولت أن أنسى كل ما حدث.. وأبقى خادمة مطيعة في جنة أُعدت لبني آدم.. وأرضى بقدري.. حيث أن الله قد سخرنا لكم.. وبعد ذلك أصبحت تلك الشجرة سراً خطيراً وكان السر ينتشر ولا نعرف من ينشره.. ثم نجد من يختفي ويُطمس حتى ظهر الحكماء.. مثل "سهيل" ليحتفظوا بذلك السر وتلك الأمانة.. وكان الخدم يعرفون ذلك أيضاً..

ولكن هذه أول مرة يتمرد إنساناً ويدفع أهل الجنة لمعرفة السر والخروج من جنة سُخرت له.. فالله لم يطرد أحداً بعد "مأمون".. ولكن أهل الجنة أصبحوا يطردوا أنفسهم عندما عرفوا السر وذهبوا إلى تلك الشجرة!

فأنهت قصتها وقد ارتعدت فرائصي.. ثم قلت لها مدافعاً:

- لكن نيتي لم تكن كذلك.. وخازن اعترف بأنه هو الذي أفشى سر تلك الشجرة وسمح للخدم بأن ينشروا ذلك السر الشجرة حتى عاقبه الله على فعلته!

فابتسمت نصف ابتسامة قائلة:

- لقد خلق الله لنا أفواهاً لنتكلم بها.. فقد يمكن لأحد أن يُفشي السر ونواياه حسنة أو لعله نسي أنه سراً فلماذا نسيء الظن؟! فالله يعلم أن السر سيتم إفشاءه في يوم ما.. سواء بقصد منا أو بدون قصد.. ولكن المعضلة هنا.. عندما نعرف السر.. ماذا سنفعل حياله؟! وهذا هو الإختبار الذي يفشل فيه معظمنا على الدوام إلا ما رحم ربي

فنظرت لها وابتلعت رمقي مما حكته وقلّ فضولي وزاد ندمي وشعرت بالتيه.. وخوفي بدأ يشل تفكيري.. فذهبت أنا و"ياقوت" لنكمل جولتنا في الجنة حيث أشعر بغصة في صدري عندما أجدها تخلو من البشر.

* * *

وصلت إلى حديقة قصري فوجدت "خازن" و"سلسبيل" يقفان أمام القصر في تربص.. فنزلت من على ظهر حصاني وتوجهت إليهما بنظرة استنكار بينما تقدم إليّ "خازن" حيث تدق عينيه شرراً متسائلاً بصوت عال:

- هل قمت بزيارة والدتي؟!

- آآ أنا فقط...

- لماذا قمت بزيارتها؟!

فارتعدت متعجباً من نبرة صوته الحادة، الغاضبة ولم أجد حروفاً أتفوه بها.. فأعاد السؤال على مسمعي وقد تلاقت عيني بعين "سلسبيل" الباكية.. فهذه أول مرة أرى قمراً مضيئاً يبكي.. ثم قلت:

- نعم يا خازن.. قمت بزيارتها لأسألها عنك وعن والدك!

- ولكن هذا شيء لا يخصك!

فعلت نبرة صوتي قائلاً:

- من سمح لك بأن تتحدث معي هكذا؟! أنت لا يخصك أي شيء.. فأنت هنا خُلقت خادماً ليس أكثر والآن أصبحت لا تساوي شيئاً.. فالجنة سُخرت لي ولبني آدم أجمعين.. فلا يحق لك أن تتكلم معي بهذه اللهجة فأنا لدي السلطة بأن أطردك كما طُرد والدك.. ومن اليوم ليس لك علاقة بسلسبيل وليس لك علاقة بي.. فهمت؟!

فبهت خازن ولم ينبس بكلمة ناظراً لي مصدوماً.. ثم نظر "السلسبيل" بنظرات باهتة ومشدوهة.. فتركني و رحل بعيداً ثم اقتربت مني "سلسبيل" بهدوء يسبق عاصفة ما.. فأمسكت أعصابي وكبحت جماحي فقالت:

- هل أعجبتك والدة خازن؟! أم أحببتها أيها الزوج المخلص؟!

- آآآ.. أنتِ تعرفين جيداً بأنه متاحاً لي أن أكون مع أكثر من واحدة في جنتي.. ولكنني لم أفعل معها شيئاً وقد اشتهيتها فقط ليس أكثر.. ولأنني مخلص لكِ وأحبكِ أنتِ فقط.. لم أقترب منها..

- بل هي التي أبعدتك.. أيها الخائن.. لقد تغيرت كثيراً بشكل غريب.. فأنت كاذب.. وشيطان!

فتلاحقت أنفاسي وشعرت بسخونة عجيبة تسري في جسدي.. فأمسكتها بعنف حتى صرخت وتذوقت رحيقها وتلذذت بطعم جسدها الممزوج بجوز الهند والزنجبيل.. بينما هي تحاول دفعي لأبتعد عنها وأنا أكرر قائلاً:

- أنتِ مُسخرة لي.. عليكِ أن تطيعني.. فهمتِ؟!

ثم ركضت بعيداً فذهبت ورائها لأمسك بها حتى وجدتها ذهبت إلى كنف "خازن" لتقف وراءه فيحميها بينما ذلك المشهد قد استفزني ولم أفهمه فقلت:

- ماذا بكما؟! ما الذي يحدث؟! ولماذا تغيرتما معي وأصبحتما تهربان مني؟!

شعرت بمشاعر غريبة قد تسللت إلى أعماقي.. فدنا مني "خازن" ناظراً لي في ترقب:

- انظر إلى نفسك يا زاهر.. لقد فقدت سيطرتك.. فأنت حقاً تذكرني بوالدي.. لقد أعماك غرورك وطمعك.. وأنت تعرف جيداً أن سلسبيل صديقتي فقط ولا تجوز أن تكون زوجتي.. وتعرف أيضاً أنك السبب في كل ذلك وإذا فكرت في أن تلومني.. فكل الذي فعلته أنا.. هو أنني حاولت أن أرضيك أنت.. وأن أفشي ذلك السر لأنني أحبك.. فقد ضحيت بخدمتي في الجنة لترتاح أنت.. والآن هذا جزائي؟!

فنظرت له خجلاً ثم نظرت لسلسبيل التي أصبحت نظراتها مصدومة ويظهر عليهما الخوف مني بعد أن كنت مصدر الأمان لديهما.. فوجدت نفسي أبكي وأزرف دموعاً غزيرة وأشعر بصخرة تطبق على صدري أريد أن أزيحها فاعتذرت لهما كثيراً وندمت على ما فعلت وركعت على قدمي قائلاً:

- أنا لا أعرف ماذا حلّ بي! أشعر أنني صرت ملعوناً.. وأشعر أن الجنة قد تغيرت.. أو ما بداخلي هو الذي تغير فأنا لا أستطيع العيش بدونكما.. فتقبلا اعتذاري.. آسف يا خازن.. آسف يا سلسبيل.. لا تهجراني وكل منكما يحاول أن ينسى ما اقترفته منذ قليل.. فأنا أشعر بشيء من الجنون قد انتابني.. لعل هذا هو العقاب الذي أُلقيه من الله بسبب فضولي وطمعي وجحودي..

فربت خازن على كتفي بينما دنت مني سلسبيل وألصقت رأسي في صدرها وضمتني بين ذراعيها وأنا أبكي ندماً فشعرت بعودتي إلى ملاذي الآمن.. ثم حاولت أن أهدأ قليلاً بعد العاصفة التي جرفت بمشاعري فسألتهما منتحباً وبصوت متهدج:

- أين سهيل؟! لم أراه منذ مدة.. هل هو بخير؟!

فنظرت لي سلسبيل وهي تزم شفتيها.. ثم تبادلت النظرات بينها وبين خازن.. فقال لي متردداً:

- سهيل ذهب إلى الشجرة.. وأكل منها.. واختفى!

فبهت ونظرت إليهما في صدمة.

-6-

"سلسبيل وخازن.. وأنا"

لم أعد أستمتع بأي شيء في الجنة.. فكل تفكيري في "سهيل" الذي خدعني وخدع أهل الجنة وذهب هو ليأكل من الشجرة.. فقد صدمني رغم افتقادي لوجوده.. فقد ظلمت "خازن" و"سلسبيل".. وظلمت نفسي.. أطير على ظهر "ياقوت" كأنني أشعر أن الجنة بأكملها ملكي أنا وحدي.. ثم أعود لزوجتي وصديقي وأجلس في حديقة قصري حيث أشعر أنني لا أشتهي طعاماً أو شراباً.. أتمشى على اللآلىء والمرجان وأمر على الأنهار وأتأمل الأشجار المخلوقة من الذهب اللامع بدون أن أشعر بشيء.. فما فائدة الجنة بدون أصدقائي وبدون "سهيل".. وماذا لو وجدت نفسي وحيداً فيها وابتعد عني "خازن" و"سلسبيل".. فلعلي تراجعت عن قراري عندما وجدت أنني سأفارقهما.. بينما أنا لا أقوى على الفراق.. فبعد أن ذهبت إلى الشجرة.. شعرت بشيء غريب في صدري يمنعني من الذهاب مرة ثانية.. ولكن الجنة لم تصبح جنة.. وأهلها مستهم لعنة الرب.. فأصبحت أشعر بالذنب الذي يجعلني أنظر إلى نفسي نظرة دونية.. رغم أنني لا أعرف الذنب الذي اقترفته.. فأنا لازال لدي الفضول لأعرف سر الشجرة وسر وجودنا هنا بدون أن نبذل أي مجهود يجعلنا نستحق كل هذا النعيم ولكن فضولي هذه المرة.. يصاحبه ندماً وحسرة وخوفاً.. أريد أن أعرف الحقيقة التي أعافر لأجدها بدون أن أخاطر بنفسي أو بأصدقائي أو بحبيبتي.. ولكن ذلك السر.. ثمنه هو حياتي!

وجدت "خازن" و"سلسبيل" يتحدثان بحدة.. فاقتربت إليهما لأعرف ماذا يحدث حيث أن كلامهما يتداخل في بعضه وغير مفهوم فتدخلت متسائلاً:

- ماذا يحدث؟! ما خطبكما؟!

فقالت "سلسبيل":

- لا شيء.. لا شيء

ثم قال "خازن":

- لا هناك شيئاً.. فكنت أقنع "سلسبيل" بأن نأكل من الشجرة ونذهب جميعنا من هنا.. فالجنة أصبحت صحراء جرداء ومشاعرنا تتبلد شيئاً فشيئاً وتصبح أكثر غرابة.. فما الذي يجعلنا نتمسك بها الآن؟!

فقالت "سلسبيل" معترضة:

- لأن هذا هو مكاننا.. ولا يوجد مكاناً غيره!

فقال "خازن":

- يوجد مكاناً وراء تلك الشجرة.. ولعله أفضل من الجنة!

- وما يدريك؟! ما كان الله حرم الإقتراب منها..

- ولعله يريدنا أن نبحث عنها ونأكل منها ولذلك قد خلقها لنا..

- لقد حذرنا من تلك الشجرة منذ قديم الأزل.. فكيف ينتظرنا ما هو أفضل من جنتنا؟!

- نحن هنا في جنة واسعة وحدنا ولا يوجد أحداً غيرنا.. ماذا يريدنا الله أن نفعل الآن؟!

- يريدنا أن نتمسك بإيماننا ولا نفشل في الإختبار..

- إذن تمسكي جيداً أيتها الموهومة..

تتبادل النظرات بينهما فينظر لها ساخراً بينما هي تنظر له متعجبة ثم ترحل وتتركنا وحدنا.. فقلت "الخازن":

- هل تعرف ماذا يحدث إذا أكلنا من الشجرة؟!

فيسير "خازن" وأنا بجواره لنتحدث قليلاً ونمر على الشلالات التي تنبعث من جذوع الأشجار ونتمشى بدون وجهة حتى نذهب عند البحار الكريستالية ونجلس أمامها على الزعفران التي تفوح رائحته حولنا فنرى الأسماك تقفز مشوية ومقلية على قواقع ضخمة فتمتزج مع رائحة الزعفران فنأكل منها ونتذوق السمك لكننا لا نشعر بشيء من المتعة كما كنا نستمتع بحق.. ولكن ما أرحم الله بنا.. فهو لم يحرمنا من الطعام والشراب.. ولازلنا نتنعم في الجنة.. ولكن هناك العديد من الأشياء التي قد تغيرت.. وعلى رأسها.. مشاعرنا التي أصبحت كالجبال على صدورنا.. تحدثنا أنا و"خازن" في أمور عديدة كالجبال التي خلقها الله من الماس حيث لا نمل من تأملها والنظر إليها ثم يحكي عن ذكرياته في الجنة وعن الأرض التي كان يعيش فيها مع والده و والدته.. وأخذنا نضحك كثيراً لننسى ما قد حل بنا.. ثم كررت سؤالي مرة ثانية:

- لقد تكلمت في أشياء عدة ولم تجيبني.. ماذا يحدث إذا أكلنا من الشجرة؟!

فنظر لي متردداً ثم قال:

- لا أعرف حقاً.. ولكن سهيل أخبرني أن من سيأكل منها.. سيحظى بمُلكٍ عظيم..

فنظرت له متعجباً:

- ولماذا قام بخداعنا؟!

فهز كتفيه وأومأ برأسه نافياً:

- لا أعرف.. لعله يرغب في أن يحظى بالمُلك وحده!

وبعد أن أفرغت من طعامي وجدت السمك الذي أكلته حيث لونه الذهبي والفضي والملون قد ظهر أمامي وصار حياً عائداً إلى البحر.. فأكمل "خازن" كلامه بعد أن أفرغ من طعامه هو الآخر وبدأنا الإمساك بجوزة الهند التي تشبه البلورة وملمسها ناعم كالإستبرق.. ثم أنصت إليه وأنا أشرب من جوزة الهند حيث طعمها المعسول فقال "خازن" مستطرداً:

- لعل الله جعلنا نعيش مع بعضنا جميعاً في سلام وأنعم عليكم بالجنة وكافئكم بها بدون سعي وبدون أدنى مجهود وأعرف أن هذا يؤرقك لأنه غير منطقي.. ولكن هذه هي الحقيقة.. فهو لم يُرِد لكم التعب ولكنه يعرف أن أهل الجنة سيتمردوا وسيخرجوا منها.. وكل ذلك في اللوح المحفوظ..

- ماذا تعني باللوح المحفوظ؟!

- كل شيء مكتوب عند عرش الرب..

- هل هذا يعني أننا مسيرين ولسنا مخيرين؟!

- نحن لا نعرف ما المكتوب بالضبط.. فنحن من نكتب كتابنا بأيدينا.. ولكن وفق مشيئة الله.. فطاقتنا وأفكارنا وأرزاقنا يسيرها الله كما يشاء فهو الذي يعلم بما هو مناسب لخلقه.. أما قرارتنا فنختارها نحن بكامل إرادتنا.

- وما فائدة ذلك؟!

- حتى نكون مسئولون أمام الله.. فكل شيء في علمه.. ولكن كل ما هو مكتوب.. بأيدينا نحن!

- شيء غريب! إذن لماذا يعاقبنا وهو يعلم أننا سوف نفعل ذلك؟!

- لأنك إذا خلقتني لأكون صنعتك.. فسوف تعرف جيداً ماذا سأفعل.. ولكنك ستتركني أفعل ما أريد حتى أثبت ولائي لك.. فإذا أطعتك ستكافئني.. ولكن إذا أصبحت متمرداً.. ستعاقبني لأنك ستراني ناكراً للجميل!

أومأت برأسي وابتلعت رمقي في خوف ثم سألته:

- ولكننا لم نطلب من الله أن يخلقنا في جنة أو في أي مكان آخر!

- ستفهم كل شيء في الوقت المناسب.. وليس مهماً أن تفهم كل شيء.. ولذلك أخفى الله بعض الحقائق حتى لا تشطط عقولنا.. ولكن كي تفهمني جيداً.. إن الله قد جعلكم خلفاؤه وأعطاكم أمانة لتحافظوا عليها..

- وما هي تلك الأمانة يا خازن؟!

- كل شيء حولك أمانة.. روحك، نفسك، جسدك وحياتك بأكملها أمانة.. كل ما هو مسخر لك أمانة.. ما تؤمن به وما تفكر فيه أمانة.. لكنه لا يختبر إيمانك.. بل يختبر جرأتك وأمانتك!

- لماذا لا تريد أن تقص عليّ بما سأراه إذا أكلت منها؟!

- لن تتحمل ما سأقوله لك..

- قل لي جزءاً حتى تشبع فضولي..

- فضولك لا يشبع.. وسيظل جوعاناً ما دمت لا تجد ما يشبعه..

- وما الذي يشبعه؟!

- ستعرف بنفسك في يوم ما.. ولكن سهيل قال لي أن هناك أرضاً وراء تلك الشجرة سنجد فيها حريتنا المطلقة.. ستكون فيها ملكاً تأمر وتنهي.. لا يوجد هناك أي قوانين.. لا يوجد شجرة محرمة أو أشياء ممنوعة.. فكل شيء ملكك أنت.. تفعل ما تشاء..

- ولكنني أفعل ما أشاء هنا.. أنا فقط أرغب في معرفة راحتي وسعادتي ورفاهيتي التي ليس لها مبرر!

- إذا كنت متعجباً من ذلك.. فستجد السعي وبذل المجهود هناك لتشعر أنك فاعلاً وليس مفعولاً به وستشعر أن لك أهمية وقيمة كبيرة.. أما هنا فكما قلت من قبل.. تأكل وتشرب وتلهث وراء شهواتك فقط ليس أكثر بل هناك ستكون ذو فائدة ونفع لنفسك وللآخرين!

لقد انبهرت بما قاله لي "خازن" وشعرت أنني أرغب في أن أتجه إلى الشجرة الآن.. فقد تشوقت للذهاب إلى تلك الأرض المنعمة التي سأشعر فيها بأن الحياة لها معنى.. وليست للمتعة فقط.. ثم سألت "خازن":

- ولماذا أصبحت متشوقاً لتأكل من الشجرة الآن؟!

فابتسم لي نصف ابتسامة وهو يلعب بالزعفران الذي أمامه ثم قال:

- أريد أن أبحث عن والدي يا زاهر.. لقد اشتقت له كثيراً..

- ولكنه تشيطن وتمرد..

- لعلي أستطيع أن أجعله يعود إلى رشده ونعيش معاً في سلام..

ثم زرفت دموع "خازن" ولأول مرة أراها.. فربت على كتفه لأواسيه ثم سألته:

- ستجده.. وستعيش معه ومع والدتك و...

فقاطعني بحدة:

- لا أريد أن أعيش مع والدتي مرة ثانية.. فقد هجرت أبي وتركته.. ولم تدافع عنه أمام الله!

- ليس ذنبها.. هذا أمر الرب..

- ولماذا لم يشعر بي ربي عندما قرر أن يطرد أبي؟!

- لعله لا يريدك أن تصبح مثله..

ثم هم بالرحيل فأوقفته متسائلاً:

- أريد أن أعرف شيئاً يا خازن.. لماذا أكل "سهيل" من الشجرة؟!

فاستدار ونظر لي نظرات مترددة:

- لعله لم يستطع أن يسيطر على الجنة ويتحكم في أهلها.. فقرر أن يقوم بذلك في مكان آخر..

فأومأت برأسي موافقاً ولكنني غير مقتنع.. ثم تركته يرحل فاختفى أثره أمام عيني وترك عقلي يفكر لا يعرف الصواب من الخطأ.. فنظرت إلى جبل الماس بجوار البحر فتسلقته حتى شعرت بالتعب..

رغم أنه لم يكن هناك أي شعور بالتعب في الجنة.. ولكن للتعب لذة عندنا نصل إلى نهاية الطريق.. ويبدو أن هناك مشاعر جديدة تقتحمني وتختبرني من حيث لا أدري.. ولا أعرف إذا كانت عقاباً أم تحذيراً أم ماذا؟!

ثم وجدت نوراً في السماء ينقشع وشعرت بحرارة تسري في جسدي لا أعرف مصدرها ولا أعرف هل هذا النور شمساً أم إلهاً؟! فقد علّم الله "آدم" الأسماء كلها وهناك أسماء ومشاعر لم نختبرها ولم تمر علينا قط فما الذي يحدث في الجنة؟! ثم أكملت مسيري حتى وصلت إلى قمة الجبل.. وبدلاً من المسك الذي كان يملأ جسدي.. وجدت رائحة كريهة بسبب العرق الذي اجتاحني.. ثم نظرت إلى الأعلى لأتحدث قليلاً مع إلهي الذي لا أراه ولا أسمعه:

- يا إلهي.. أين أنت؟! لماذا تفعل بنا كل ذلك؟! أعرف أنني ظلمت نفسي.. وأعرف أنني أخطأت ولكن فضولي جندياً من جنودك.. وهو الذي جعلني متمرداً وجاحداً.. فقد شعرت أنني لا أستحق الجنة واشتهيت المعرفة حتى التهمتني.. و رغم ضعفي وجدت نفسي جامحاً في أن أكشف الأسرار التي واريتها عن أهل الجنة.. ولا أعرف الآن.. هل أندم على ما فعلت وأستقر في جنتي وأتحمل عقابك وابتلائك حتى وإن خلت الجنة من جميع البشر.. أم أذهب إلى الشجرة وألتهم العنب وأُرضي فضولي كي يطمئن قلبي.. فما الذي يرضيك يارب؟! ما الذي يرضيك؟! أشكو إليك يا الله.. فأنا عبدك التائه الذي ليس له سواك.. ياليتني لم أُخلق ولم أكن يوماً إنسيا...

لم أجد رداً من ربي.. فلعل الإجابة بداخلي.. فهو قد نفخ فيّ من روحه وجعلني خليفته فكيف أنتظر الإجابة وأنا لديّ الإجابة.. لكنني لا أعرفها.. هل اعتيادي على الجنة جعلني أتمرد؟! أم أنا أرغب في أن يكون هناك سبباً ومعنى قيّماً لأفوز بها؟! أم أن الغموض والمجهول والأسرار والأشياء المحرمة تغوينا وتغرينا دوماً؟! ولماذا خلق الله بداخلي الفضول وهو يعلم بأن فضولي سيثيرني وسيقتلني أكثر من مرة؟! ولماذا خلق الله الشجرة وهو سيحرمها؟! وهل من أكل منها ذهب إلى مكان أجمل.. أم اختفى وأصبح هباءً منثورا؟!

وفي الحالتين.. سيكون خياراً أفضل من جنة خاوية تتحول إلى مكان غريب ونتحول معها إلى كتلة من مشاعر سوداء، متبلدة حتى نصبح جماداً.. أخاف من أن أذهب إلى الشجرة فأندم.. وأخاف من ألا أذهب إليها فأندم أكثر.. وهل إذا عرفت أسرار الجنة والأرض سأرتاح.. أم أن الفضول هو الذي يعطي للحياة إثارة ومتعة؟! ياليتني أعرف ما الصواب..

لكزني "ياقوت" وأخرجني من أفكاري التي لا أعرف إذا كان الله هو الذي يلهمني بتلك الأفكار أم أنا الذي أتحكم بها أم هي ابتلائي الذي يصيبني ويجعلني أسير على غير هدى.. وبينما أنا أنتظر رد إلهي شعرت بيأس طفيف وركبت على ظهر "ياقوت" لأعود إلى قصري وأحبابي.. فوجدت ظلاماً يخيم على السماء لأول مرة فذعرت وارتعدت أوصالي.. ثم وجدت رعداً وبرقاً مخيفاً ومطراً غزيراً فأخذت "ياقوت" وكان يحلق بي كأننا نهرب من القدر وغضبه!

-7-

"كيف أذهب إلى الشجرة بدون سلسبيل؟!"

وصلنا إلى القصر بأعجوبة ولا أعلم كيف استطاع "ياقوت" أن يطير في وسط هذا الظلام فنزلت بسرعة من على ظهره وحاولت أن أتحسس وبالكاد أرى ما حولي بصعوبة في وسط هذه الظلمة فدخلت وشعرت "بسلسبيل" وبالزرابي المبثوثة التي تجلس عليها ثم سمعت صوت أنفاسها فاقتربت منها وجلست في قبالتها على الأرائك المصفوفة و رأيتها ترتعد من البرد وتبكي فجلست بجوارها واحتضنتها لأشعرها بالأمان رغم أنني أفتقده كثيراً ولا أجده حتى شككت أنه وهماً ودرباً من الخيال.. فمفتقد المشاعر.. يعطيها بإسراف لكل من يحب ولكل من يحتاجها.. لكنني أجد راحتي وأماني وسعادتي عندما أعطي مشاعري "السلسبيل".

شعرت بتسارع دقات قلبي وأنا أسمع الرياح العاتية وأجلس في ظلام دامس محاوطاً "بسلسبيل" فقالت بصوت متهدج ومنتحب:

- لقد غضب الله علينا يا زاهر!

قالتها "سلسبيل" وهي بين ذراعيّ وقد اشتقت إلى رؤيتها.. ولكن الظلام يمنعني من أن أراها فتأخرت في الرد حيث أنني أشعر بالذنب كلما أسمع أصوات الرعد وأضواء البرق.. فبالكاد أرى وجه "سلسبيل" خلال ومضات الضوء.. فلاحظت أن ذلك الوجه المضيء أصبح شاحباً فلملمت شتات نفسي وقلت لها:

- لا تقولي ذلك.. فالله يحبنا.. لعلها علامة تحثنا على الرحيل..

- ولماذا يريدنا أن نرحل بعد أن خلق لنا الجنة؟!

- لعله ابتلاءً وعقاباً في باطنه خير لنا.. وسأظل جاهلاً حتى أعرف حكمته.. وإن عرفت.. لا أضمن الراحة!

ثم نظرت إليها في شفقة ولم أجد رداً آخر يطمئنها.. فأقبلت عليها وقبلت شفاهها والتهمتها وذبت في رحيقها العسلي فاحتضنتني وأغمضنا أعيننا رغم الظلام الحالك ونحن نسمع أصوات الأمطار والرعد فالشعور يزيد أضعافاً عندما تُسدَل جفوننا.. وسرت الحرارة في أجسادنا وشعرنا بالدفء.. ثم عادت الأجواء كما كانت و ساد الصمت والهدوء ولم نسمع سوى أنفاسنا المتلهفة، المحبة وصوت زقزقة العصافير وحفيف الأشجار فقد هدأ كل شيء و وجدنا نور السماء يعم المكان.. كأننا تحكمنا فيما حولنا عندما عدنا لمشاركة الحب والحميمية مع بعضنا ثم نظرنا في أعين بعض ونظرنا حولنا في تعجب وعدنا لنشبع من وجوه بعض بابتسامة ولكن النظر إلى "سلسبيل" لا أشبع منه ولا أكتفي.. فضممتها بقوة حتى لا ننفك عن بعضنا البعض ولأريها أنني لا أقوى على فراقها ونادم على أي خطأ بدر مني في حقها.. ثم ارتاح رأسها على صدري وذراعي حولها حيث أنها الشيء الثمين الذي قد خُلقت لأجله.. وفكرت في أن الله لا يغير ما بأنفسنا حتى نغيره نحن فيتغير ما حولنا ولعل الله بداخلنا يرشد قلوبنا إلى ما هو صواب.. بينما نحن نذهب بعقولنا وشهواتنا وأيدينا إلى ما لا يناسبنا فنصر على الهلاك.. لأن طريقه به إثارة أكبر.. رغم أن الله ينير لنا الطريق الذي نجد فيه الأمان ونحن لا نراه بل لعلنا نبصره بقلوبنا إذا أمعننا النظر.. ولكننا نهرب ونطمع ونشتهي فيما هو أكثر لاعتقادنا أننا نعرف طريق سعادتنا وراحتنا.. فسبحان الذي خلق الإنسان.. حيث أن والد "خازن" له كل الحق في أن يحقد على آدم وبنيه.. ففي خلقته شئون.. وفي صنعته أسرار ومعجزات.. لا يدركها عقل.. ولا يصدقها مخلوق ولكن يؤمن بها القلب ويطمئن.. بينما نحن البشر.. نجعله يعتاد القلق حتى يظن أن الإطمئنان وهماً.. فنلهث وراء سراباً للأبد.. ولا نعرف أن لكل صنعة أسرار يحتفظ بها صانعها.. فيثيرنا الفضول لمعرفة أسرارها..

في لحظة ما شعرت أنني أملك الجنة.. وكنت مفتقداً للمسات "سلسبيل" عندما اجتاحتني شهوتي فخرجت من أسر فضولي ونسيت جنتي ثم تأملتها وهي تأكل المن والسلوى بجواري وتقوم بإطعامي في فمي فأتلذذ بطعم السمان والعسل لأنها تطعمني من يدها التي تضيف للطعام نكهة.. فيسيل العسل من فمها فألتقطه بفمي وألعقه حتى أقضم شفاهها الممتلئة وأستشعر النعيم الغير مبرر الذي لازلت أشعر أنني لا أستحق أن أفوز به دون جهد مني أو سعي.. فماذا فعلت أنا لأحظى بمصدر الجمال الحقيقي الذي يسمى "سلسبيل" فيضيف لحياتي راحة وسعادة حيث أنظر لها وهي تبتسم لي وفمها ممتلىء بالطعام.. فأصبحنا نشعر بالبرد وبالحرارة بعد أن كنا نشعر دوماً بالدفء.. ولازلنا نشتهي الطعام الذي تبقى في جنتنا من رحمة الله.. ولكن وجودها يدفئني ودوماً أشتهيها وأشتهي كل قطعة من جسدها.. فأتحسس جسدها الناعم حيث ملمسه الحريري الذي يكفيني وأمسكها من خصرها كأنها ستهرب مني وأحاوطها بذراعي لأشعر بالأمان والإطمئنان وأنا أشم رائحتها الذكية التي تفوح في المكان.. فكيف أتجرأ وأطلب أي شيء وهي بجواري.. فيكفي رائحتها التي تكون تارةً كرائحة جوز الهند وتارةً تكون كالتوت البري.. وبينما أنا أتأملها لا ينفك تساؤلي: ماذا فعلت لأفوز "بسلسبيل"؟! فهي النعيم الحق.. ولعلها تستحق ملكاً.. لكن أنا الذي اخترت أن أكون لها عبداً..

رأيتها تعانقني من جديد بعد أن أفرغت من طعامها بدون كلمة ثم تنظر لي قائلة:

- لا ترحل يا زاهر.. لنبقى هنا في الجنة للأبد.. فلو أن أكثر الناس ذهبوا للشجرة.. إذن أكثر الناس لا يعلمون

- وما يدريكِ؟! لعلنا موهومون.. ولعلهم ذهبوا إلى طريق الحق!

- الحق هو النجاة.. ولن ننجو إذا قمنا بشيء لا نعرف عاقبته..

- إذا لم نجرب فلماذا نعيش إذن؟!

- نعيش لنكون في أمان..

- أين الأمان في مكان هرب منه الجميع؟!

فوقفت أمامي متعجبة:

- وأين الأمان في الذهاب إلى مكان نجهله؟! ألم تقل أنني جنتك و وجودي يكفيك؟!

- بالطبع.. وهل لديكِ شك في ذلك؟!

- نعم لديّ شك.. لأنك الآن تريد أن تذهب إلى الشجرة وتتركني وحدي!

فوقفت أمامها متعجباً وقلت موضحاً:

- أنا لم أقل ذلك يا سلسبيل.. لكنني أريد أن نذهب من هنا معاً.. وسنعود مرة أخرى..

فرفعت حاجبها:

- وهل تضمن ذلك؟!

- وهل تضمنين أن الجنة تصلح للحياة الآن؟! هل تضمنين أننا لن نُطرد منها؟!

فنظرت إليّ نظرة تعبر عن أنها فقدت الأمل في إقناعي.. فأومئت برأسها يائسة وهمت بالرحيل ولكنني أمسكت ذراعها فاستدارت لي ثم دنوت منها قائلاً:

- أنا لا أستطيع أن أجبركِ على شيء.. لكنني أرغب في أن أذهب إلى تلك الشجرة حتى أُرضي فضولي وأجد أصدقائي وأعثر على إجابة لتساؤلاتي حتى يرتاح عقلي وقلبي.. ولكن لن أستطيع الذهاب بدونك..

- لن ترتاح يا زاهر.. فأنت تريد أن تجد نهاية لتفكيرك.. ولكنه بلا نهاية.. فهو كالبحر الذي ستنهل منه ولن يفنى ولن تُروى أبداً.. فافعل ما شئت.. ولك الخيار الحر.. أن تبقى هنا معي.. أو أن تذهب بدوني إن أردت!

- ولكن أصدقائنا ذهبوا إلى الشجرة.. وسهيل أكل منها أيضاً.. وأنا أريد أن أعرف سبب ذلك!

فابتسمت نصف ابتسامة قائلة:

- وما الفائدة إذا عرفت السبب أو لم تعرف؟! ولماذا تخاطر بنفسك وتخاطر بنا جميعاً؟! ليس معنى أن الجميع ذهب في طريق.. فإذن ذلك هو الطريق الحق.. لعل قلة سالكينه هم من يكونون على حق!

فاقتضب جبيني ثم قلت لها:

- يا سلسبيل.. لابد أن يكون هناك مغزى للحياة.. فأين المنطق في جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت لنا بدون أن نبذل أي مجهود لأجلها؟! وحتى إن لم يكن هناك مكاناً أفضل من الجنة.. فلعل الله يختبرنا ويريدنا أن نختار السعي والإجتهاد حتى نستحقها في النهاية..

- ليس كل شيء بالمنطق يا زاهر.. فلدينا قلباً يشعر بأشياء غير منطقية.. وأنا لا أرى أي منطق في رحيلي!

- وإذا بقيتي في الجنة وحدك.. ماذا ستفعلي؟!

فقالت في تحدي وهي محدقة النظر لي:

- حينها سأذهب إلى الشجرة.. ولكنني لن أبحث عنك لأنني سأعرف شيئاً واحداً فقط.. وهو أنك كاذب لأنني هنت عليك.. فأنت لا تفكر في حبيبتك.. بل تفكر في اتباع غرورك وفضولك وشهوتك.. وأصدقاؤك أيضاً!

فنظرت لها مصدوماً وتعجبت من كلامها:

- لا تصعبي عليّ الإختيار.. فأنا لا أتخيل الحياة بدونك.. لماذا تقسين عليّ هكذا؟!

فأمسكتها من كفتيها في حنو ولكنها أزاحت يديّ قائلة:

- أنت الذي تقسو على نفسك يا زاهر.. وأنا لن أقسو عليك.. فهيا اذهب إلى تلك الشجرة واستمتع بالأكل منها.. وإذا رأيتني في يوم ما.. فتذكر أنك لم تعطني إثباتاً أنك تحبني.. واعلم جيداً أنك أنت السبب في كل ذلك..

- السبب في ماذا؟!

فاقتربت من أذني:

- السبب في إفساد جنتك.. والسبب في هروب أهل الجنة.. والسبب أيضاً في خسارتي.. فأريدك أن تنساني!

ثم ركعت على الأرض ممسكاً بيدها كأنني أعبدها متوسلاً لها:

- أرجوكِ لا تتركيني.. فلتُباد الجنة بأكملها إذا رحلتي!

فدفعتني ووقعت على الأرض.. ثم نظرت لها في صدمة بينما هي نظرت لي نظرة حادة كأنني لا أعرفها.. وكانت نظراتها تملؤها الحسرة والندامة.. فرحلت من أمامي وخرجت من القصر بينما أشعر أن الأرض قد أسقطتني في حفرة مظلمة فتلاحقت أنفاسي كأنها لهيباً مشتعلاً وثبتت نظراتي على "سلسبيل" غير مصدقاً أنها قررت أن ترحل وتتركني إلى الأبد.. فمن أين استمدت كل هذه القسوة؟!

* * *

تمشيت أنا و"ياقوت" ناظراً إلى الجنة وخلوها من كل شيء.. ركبت على ظهره وشعرنا أننا قد قطعنا أشواطاً طويلة ومررنا على أصناف وألوان من نعيم الجنة الذي ليس له عدد.. ولكنني لم أعد أستطيع الإستمتاع بأنهارها وأشجارها وطعامها وشرابها.. فأمر على نعيمها وأنا لا أشعر بشيء.. ثم وجدت "خازن" أمام "شجرة الخلق".. حيث أن شجرة الخلق هي الشجرة التي تُنجب أهل الجنة فتثمر خلقاً وبشراً لا يفقهون شيئا.. ثم يأتي الحكماء ليقوموا بتعليمهم كل ما ينتفعون به.. فكانت دوماً تثير إعجابي تلك الشجرة العملاقة حيث أن بها فوهة ضخمة ثم نجد بشراً كثيفاً يخرج منها لا يعرفون أين هم ولماذا خُلقوا.. وقبل "آدم" كان الجان والملائكة والشياطين يولدون أطفالاً ثم يكبرون.. ولكننا هنا نخرج من بطن الشجرة شباباً ضخماً ولكن تائهون فنوضع في فقاعات كبيرة كريستالية حيث تطير بنا إلى مقر الحكماء وندرس في أماكن مخصصة للتعليم بالجنة لنعرف كل شيء عنها وعن خلقتنا وخلقة أسلافنا وعن خالقنا.. ولكن أنا كنت من الندرة التي تمردت وتجرأت وأرادت أن تخوض فيما حرم الله من معرفة الأسرار التي لم يُسمح لنا بأن نعرفها وكنت أحاول دفع أهل الجنة لمعرفة تلك الأسرار لنتحرر من جهلنا.. ثم اقتربت قليلاً و رأيت "خازن" وقطعت شرود ذهنه حيث أنه لايزال جالساً ينظر إلى شجرة الخلق في تعجب.. فجلست بجانبه:

- ماذا بك يا خازن؟!

فتنهد تنهيدة تحمل في طياتها الكثير من الأسرار ثم قال:

- شجرة الخلق أصبحت عقيمة..

فقلت مذهولاً:

- ماذا؟! كيف حدث ذلك؟!

فأومأ برأسه جاهلاً:

- لا أعرف.. ولكن هذا يعني أن الجنة لم تعد مكاناً يصلح للعيش..

فشعرت ببعض تناقضي الذي يعكس خوفي عندما قلت:

- ولكننا نحن من نجعلها صالحة.. وهي بدوننا.. تصبح مهجورة ولا تصلح!

- ولكن يا زاهر حياتنا هنا أصبحت بلا معنى.. وقد حان الوقت أن نخلق سبباً نعيش لأجله.. فهل لديك سبباً يجعلك تبقى هنا في الجنة؟!

ثم شعرت أن ذلك الحوار قد تكرر بيني وبين "سلسبيل" مع اختلاف الأدوار وكأن "خازن" قد تجسد في صورتي ويواجهني بأسئلتي التي ليس لها إجابة عندي.. ثم شعرت بمرارة في حلقي وفكرت قليلاً وقلت له:

- سلسبيل هي السبب الذي أعيش لأجله هنا في الجنة..

فابتسم نصف ابتسامة قائلاً:

- واذا سبقتك وأكلت من الشجرة وتركتك.. ماذا ستفعل؟!

فتعالت دقات قلبي وشعرت بقلق يهز أوتاره وتذكرت كلامها ثم قلت له بصوت متهدج يظهر ارتيابي:

- ماذا تقول؟! سلسبيل لن تتركني أبداً.. ولن ترحل من الجنة.. فهي رفضت الذهاب إلى الشجرة!

- اهدأ يا زاهر.. لقد حاولت إقناعها لأجلك لكن دون جدوى..

فسألته في فضول:

- ماذا قلت لها؟!

- قلت أنها إذا أكلت من الشجرة.. ستصبح ملكة حقاً في أرض واسعة.. ولن تكون خادمة أو جارية بعد الآن..

- ولكنها حورية.. بل ملكة الحوريات!

- نعم.. يستخدمها البشر ويتلذذون برحيقها هي وبقية حور العين.. فهي أمة هنا ونحن كلنا عبيد!

فوقفت أمامه وكبحت جماحي وتلاحقت أنفاسي وقلت ثائراً:

- سلسبيل ليست كذلك.. فهي حبيبتي وملكي أنا..

ثم توقف أمامي قائلاً بهدوء:

- بالضبط.. هي ملكك.. ولا يوجد ما يمنع أن يملكها جميع أهل الجنة.. ثم أنا أردت إصلاح ما بينكما..

- أنت أفسدت كل شيء.. فأنت أقنعتها لتفكر في نفسها ولا تفكر في أن تذهب معي!

- وأنت يا زاهر.. لا تفكر في أحد سوى نفسك.. فدع البشر يفكرون في أنفسهم قليلاً..

فجحظت عيناي وانتابتني الصدمة عندما واجه شيئاً بداخلي أنكره.. ثم قلت له:

- أنا لا أفهمك حقاً يا خازن.. لا أعرف إذا كنت ملاكاً كوالدتك أم شيطاناً كوالدك!

- وماذا فعلت أنا لتتهمني هكذا؟! لم أقل شيئاً سوى أنني حاولت إقناعها.. وفي النهاية القرار في يدها هي أم أنت تشعر بالضيق الآن لأنك لم تنجح في إقناعها و وجدت أن هناك احتمالاً لتقتنع هي بكلامي؟!

لعل "خازن" محقاً.. فالغيرة تجعلني أشعر بحرارة في صدري لا أستطيع أن أواريها.. ثم اعترفت له:

- لعلك بريء.. ولعلي ظلمتك.. لكنني أشعر أنني سأخسرها.. وبداخلي خوف من ذلك.. فحبي لها يعميني!

ثم قال لي "خازن":

- بل الغيرة هي التي تعميك.. وهي قد شعرت أنها قد هانت عليك عندما وجدتك تصر على الذهاب إلى الشجرة وتتركها.. فأخبرتني أنها إذا ذهبت لتلك الشجرة وأكلت منها.. فذلك أهون عليها من البقاء مع شخص يشعرها بأنها غير مهمة.. ولتعرف حُسن نواياي.. فاسألها عن المجهود الذي بذلته لأؤكد لها أنك تعشقها..

فنظرت له نظرة شك.. فتلك الغيرة التي بداخلي لا أستطيع إيقافها.. فكيف تجد الأمان والإطمئنان معه؟ وكيف حاول أن يقنعها بالذهاب إلى تلك الشجرة ومن المحتمل أن تأكل منها؟! بينما أنا كانت ترفض رفضاً قاطعاً.. كأنني عدوها ولست حبيبها.. ثم نظرت حولي لأبحث عن "ياقوت" فوجدته قد أتى إليّ ثم ركبت على ظهره ذاهباً إلى "سلسبيل" لأعتذر لها وأبرم اتفاقاً يرضينا ويحفظ حبنا.. ثم أوقفني "خازن" قائلاً:

- إذا ملأ الشك قلبك واجتاحتك الغيرة.. فأنا يمكنني أن أصطحبك إلى مكان لترى فيه الأرض التي ستذهب إليها إذا أكلت من الشجرة لتعود ثقتك بي ثانيةً.. فما رأيك؟!

فتوقفت أنا و"ياقوت" وانعقد لساني وشعرت بشيء من الأمل.. فاستدرت ونظرت له وقد تبادلت بيننا النظرات فقد نظر لي نظرة حانية ونظرت له نظرة ندم.. فتسرعي يجعلني أخسر نفسي قبل أن أخسر أحبابي.

-٨-

"هل أبقى في الجنة وأنسى أمر الشجرة؟!"

ذهبت مع "خازن" إلى أقاصي الجنة حيث أشجار التين والزيتون والرمان وحيث الهضاب الخضراء وحولي جبالاً من اللؤلؤ والماس والكريستال ماراً على بحيرات ذهبية وفضية وأنا أسير منبهراً بتلك المناطق التي أراها لأول مرة.. فكلما اعتقدت أنني قد ذهبت إلى جميع المناطق التي في الجنة أكتشف أنني كفراشة وقفت على ذراعي فاعتقدت أنها في وادٍ كبير من الوديان ولم تدرك أنه شيء صغير من كيان ضخم لا يمكنها تخيله ثم أعرف قدري وأعرف كم أنا مخلوق ضئيل في ملكوت خرافي لا يتصوره عقل.. ولكن ذرة الكبر التي تمسنا تجعلنا ننسى أنفسنا ونعتقد أننا جبابرة وآلهة يخلقون ولا يُخلَقون! فيسير "خازن" أمامي كمرشد لي وأنا وراءه أستنشق رائحة العود في الأجواء حتى وصلنا إلى بحيرة بيضاء بياض اللبن فأوقفني قائلاً:

- تلك البحيرة يا زاهر.. ستخبرك بأسرار الخلق والوجود.. وكل ما تريده.. ستجده هناك.. وستعرف السر!

ثم أشار بإصبعه تجاه البحيرة فشعرت برجفة خفيفة فاقتربت في حذر وهو بجواري ونظرت إلى البحيرة التي تلمع وتتلألأ فقلت له مستفسراً:

- كيف ستخبرني بكل شيء؟!

- اقترب منها وانهل ما شئت.. ثم اسألها.. وستجد الإجابة بداخلها.. ستعرف مصيرك إذا أكلت من الشجرة.. وحينها ستقرر.. والآن سأرحل أنا.. لأتركك مع البحيرة..

فاستدرت له ممسكاً بذراعه:

- لا ترحل!

- سأرحل يا زاهر شئت أم أبيت.. فأنا لا أعرف بعد إفشائي لذلك السر.. هل سأبقى هنا.. أم سُأطرد كوالدي!

فقلت له متأثراً ومتعجباً:

- ولماذ فعلت هذا إذن وخاطرت من أجلي؟!

- لأنني أحبك.. ولا أريدك أن تسيء الظن بي..

- ستبقى هنا يا صديقي.. سنبقى هنا أو سنرحل من هنا.. فنحن معاً إلى الأبد!

فتبادلت بيننا النظرات وعانقنا بعضنا ثم رأيته وهو يرحل حتى اختفى وراء الهضاب ثم استدرت و وقفت عند البحيرة وجلست أتأملها ثم وضعت يدي بداخلها فوجدت بها بعض اللزوجة.. ثم شربت منها ووجدت طعمها كزيت كبد الحوت مع مزيج من زيت الزيتون والعسل.. فشعرت بطعم غريب ولكنه يطرب البدن ثم سألتها:

- أيتها البحيرة.. كنت أريد أن أسألك آآ...

وقبل أن أُكمل سؤالي سمعت صوت خرير الماء مع صوت أمواج متلاطمة ثم وجدت البحيرة تتحول إلى دوامة فوقفت خائفاً حتى هدأت وهدأ الصوت معها فوجدت صور متحركة في البحيرة تتكون وتتحول فحملقت بعيني وشرد ذهني معها وأنا أشاهد أسرار كأنني متواجد بكياني هناك..

فانبهرت بما أراه حيث وجدت الملائكة والجان مصطفين وعددهم مهول وخلقتهم مختلفة حيث أن كل ملاك من الملائكة لونه أبيض و ووجهه مضيء ولديه أجنحة ضخمة حيث تتراوح أعداد تلك الأجنحة.. فهناك من لديه جناحان وهناك من لديه أربعة أجنحة وهناك ستة أجنحة وهناك ثمانية.. بينما الجان لونهم أحمر ولديهم أجساد ضخمة تشبه أجساد الخيول.. بينما رقابهم و وجوههم تشبه كائنات أخرى.. فمنهم من يشبه الأفعى ومنهم من يشبه الكلب ومنهم من يشبه القطط السوداء.. وكنت أعرف أن الجان أمم أمثالنا فمنهم الجان الذي يفعل الخير ومنهم الجان الذي يفعل الشر.. والملائكة والجان يمكنهم أن يتجسدوا في صورة بشر.. ولكننا نحن لا نتجسد في صورة أي شيء.. ويمكننا تسخير الجان ولكن لا يسخرنا أحد.. ثم استكملت مشاهدتي حيث أن هناك ضوء مهيب قد عم المكان بعد ظلمته فتجلى على جبل أمامهم صورة سيدنا "آدم".. حيث ظهر أمامهم صورة جنين مغمض العينين يشبه المضغة حيث يظهر أنه جسد مصنوع من صلصال أو طين.. وكان ذلك أول جنين بشري من صنعة الله بعد أن قام الجان والشياطين بالإفساد في الأرض فانتقلوا جميعاً إلى الجنة وكانت لديهم فرصة ليعيشوا في سلام ولكن بعد أن رأوا ذلك الجنين الذي سماه الله "آدم" انبهرت الملائكة وبعض الجان وقعوا له ساجدين.. فكان ذلك مبهراً بالنسبة لهم.. ثم وقفوا مهللين ومسبحين وموحدين.. ولكن بعض الشياطين من ضمنهم "مأمون" لم يسجدوا فضحك والد "خازن" قائلاً:

- ما هذه الصنعة؟! إنه كائن ميت لا يسمن ولا يغني من جوع!

فظهر الملاك الموكل الذي يتحدث بالنيابة عن الرب حيث أنه أكبر المخلوقات التي رأيتها حيث فلديه مئة جناح وكل جناح يسد مابين السماوات والأرض وهو يظهر فوقهم بضوءه وملامحه البيضاء ويشبه السحاب فحدثت نفسي إذا كان ذلك حجم الملاك الموكل إذن كيف حجم إلهنا الذي نتحدث عنه كأنه مخلوقاً وليس خالقاً عظيماً ثم وجدت ذلك الملاك يعارض "مأمون" قائلاً:

- لقد خلقه الله من طين وسيجعله خليفته في الأرض وسيسخر له الجنة..

فقال "مأمون" حاقداً:

- أنا خير منه.. فقد خلقه من طين بينما أنا قد خلقني من نار!

ثم سأل ملاكاً من الملائكة سؤالاً:

- أيخلق من يفسد فيها ويسفك الدماء كما فعل من قبل الجان والشياطين بينما نحن نسبح بحمده ونقدس له؟

فقال الملاك الموكل:

- إن الله يعلم ما لا تعلمون!

فظهر الحقد والغضب على "مأمون" بينما ينظر إليه "خازن" و والدته في حذر.. وفي لحظة ما تذكرت عندما انتابتني مشاعر خبيثة فعرفت أنها من الشيطان وعرفت أن بداخلنا شيطاناً وملاكاً وإلهاً حتى وإن كنا في الجنة فتلك هي المعجزة التي خلقها الله..

معجزة الإنسان الذي ينتظر الكثير من المعجزات ويجهل أن بشريته إعجازاً إلهياً.. حيث خلق الله بداخله الخير والشر والقدرة على الإختيار والتغيير والتمييز والتأقلم والتعايش.. وهو الذي يستطيع الحفاظ على جنته وتعميرها أو إفسادها.. وبمعنى آخر.. هو الذي يجعل من حياته جنة أو نار!

ثم نظروا جميعاً إلى الجنين حيث اقتربت منه نسمة ريح خفيفة بيضاء تدخل جوفه فعطس وفتح عينيه وتحرك جسده فسجد كل الحاضرين.. إلا "مأمون".. فبقى واقفاً وظهر الدم وهو يغلي في دماغه.. ثم سأله الملاك الموكل:

- ما منعك أن تسجد لما خلق الله بيديه الكريمة؟! هل استكبرت أم كنت من العالين؟!

- لماذا يفضل ذلك الكائن علينا؟! لماذا يجعله خليفته في الأرض ويسخر له الجنة وينفخ فيه من روحه ويجعله على صورته؟! فهو سيطغى وسيفسد في الأرض كما أفسدنا وأكثر.. فهو ليس أفضل منا..

- يخلق ما يشاء.. وهو قد أكرمكم ولم تحافظوا على نعمة التكريم فخلق من يستحقها وجعله في أحسن تقويم.. فالله أعلم بخلقته التي لعلها تبهر الملائكة باختياره للطاعة وعمل الخير.. ولعله يبهر الجان أيضاً.. فذلك هو المخلوق الذي يمكنه أن يكون ملاكاً وشيطاناً فيختار ما يستحق أن يكون.. وينال أمانة السماوات والأرض!

- سأريكم جميعاً من الذي يستحق ومن هو الأفضل!

ثم يعم الصمت وتظهر نظرات الدهشة على كل الحاضرين بينما أنا منهم أيضاً.. فيقول الملاك الموكل:

- سيلعنك الله وسيُخرجك من رحمته كما فعل مع من تمرد وأفسد في الأرض..

فتظهر أصوات همهمات وتظهر الصدمة على وجه "مأمون" قائلاً:

- أنا؟! لقد كنت ملاكه المفضل.. بعد كل ما فعلته من طاعة وخنوع يفعل معي أنا ذلك..

فقال الملاك الموكل بحدة:

- تأدب مع الله.. كفاك تمرداً وغروراً وجحوداً..

فقال "مأمون" بصوت منتحب وقد زاد احمراره من الغضب:

- سأغوينهم أجمعين.. إلا عباده المخلصين.. ولن أبرح أغوي عباده مادامت أرواحهم في أجسادهم..

- سيغفرلهم ما داموا يستغفرونه.. ولن يمل حتى يملوا.. واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في كل شيء فليس لك عليهم سلطان.. وكيد الشيطان ضعيفاً وكفى بربهم وكيلاً..

سرت في جسدي قشعريرة عندما رأيت "مأمون" وهو يتحدى الله ويحقد علينا بهذا الشكل.. فهل نحن كبش الفداء الذي ندفع ثمن صراع الشياطين مع الخالق؟! فما ذنبنا؟! لعل الله لا يحتاجنا وهو غني عن العالمين.. ولكنه جعلنا نحمل أمانة السماوات والأرض وجعلنا إثباتاً لوجوده ودليلاً لخيره وعبرة لشرور الشياطين.. فنحن نبحث عن آيات الله حولنا بينما نحن الآية التي إذا أبصرنا بداخل أنفسنا قليلاً سيتبين لنا أننا سر عظيم..

ولكننا نجهل أن عظمة الأسرار ورونقها وجمالها في كونها أسرار تحمل في طياتها الكثير من إبداع الخالق في صنعته.. ثم رأيت "خازن" وهو يتوسل لوالدته أن تدافع عن "مأمون".. ولكن اللحظة كانت مهيبة فرحل الجميع في صمت وبقى "مأمون" وحده لا يعرف ماذا يفعل.. ثم وجدته ينسل كأن الله لا يراه.. ولكنه تركه يفعل ما يشاء.. وقد وثق في خلقته التي صنعها.. فأخذ يتمعن في جسد "آدم" ويتأمله جيداً فوجده أجوف.. وجد أن به فراغاً غريباً.. ثم سرى في جسده وفي عروقه كمجرى الدم حتى عرف نقطة ضعفه.. فهو خالياً من الداخل.. لا يتماسك ولا يثبت على شيء ولا يقوى على شيء.. فهو متزلزل الأمر ومتغير الحال ويتعرض للآفات ولا يصبر ودوماً يجوع ولا يشبع.. ليس جوع الطعام فقط.. ولكن أيضاً جوع المشاعر.. يفتقر إلى الغذاء والشراب ولا يصبر عليهما.. يفتقد إلى الحب والإهتمام.. ويطمع في المال والبنون والنساء ولديه جوع وجشع مهما ملك في أغلب الأوقات.. ويرغب في أشخاص حوله.. ولا يتحمل الرفض والوحدة.. وكل ذلك يؤدي إلى عدم الرضا بما يملك ويمد عينيه على ما لا يملك فهو يشعر دوماً أنه في إحتياج دائم حتى ولو كان احتياجاً وهمياً.. فرأى "مأمون" أن أفضل شيء يفعله لينتقم ويأخذ حقه هو أن يثير شهوة البطن والفرج ويُزحم فراغ العقل ويُشتته.. ويُثير الخوف في القلب ويجرحه ويحطمه.. فيجعله قلقاً، شكاكاً، غير مطمئن حتى يُزيد فراغه ويشوه محبته فيفقد إيمانه ويزلزله ويُضعف حدسه.. ثم ينفخ في تلك الفراغات التي لدى "آدم" وبنيه لتهيج غرائزهم وتُثار إنفعالاتهم فيغويهم ويحيدهم عن الإيمان والإطمئنان واليقين والتسليم.. فضحك "مأمون" ضحكة مدوية.. ثم وجد وراءه ظلاً كبيراً قاتم السواد فظهر جسد ثور ورأس أفعى سوداء.. حيث أنه كان يبتسم له فيأخذه معه.. ثم يذهبان إلى الشجرة المحرمة.

توقفت وشعرت أنني قد اكتفيت من ذلك ثم ابتعدت عن البحيرة قليلاً بينما تتسارع نبضات قلبي فعادت البحيرة إلى طبيعتها ثم فكرت في تمردي وجحودي وشعرت بأنني أُمَثِّل الشيطان.. لعلي سمعت عن بعض الأشياء ولكنني عندما رأيتها اختلف فكري و وجدت أنني أستحق الجنة لأن الله رأى ذلك.. فلماذا أبحث عن التعب ولا أبحث عن الحمد؟! لعل فضولي هو الذي جعلني أعمى البصر والبصيرة.. فذهبت إلى "ياقوت" وركبت فوق ظهره متحمساً حتى أفاجيء "سلسبيل" بأنني قد اخترتها واخترت أن أعيش معها في الجنة إلى الأبد وسأطلب من الله المغفرة حتى تعود جنتي كما كانت ويعود أصدقائي وأهل الجنة أجمعين.. فأنا لا أعرف أين ذهب عقلي وإيماني عندما قررت أن أذهب إلى تلك الشجرة التي ستودي بي إلى الهلاك؟! فكيف فكرت في ذلك؟!

-٩-

"ما فائدة الجنة بينما لا يوجد بها سواي.. ولا يوجد بها سلسبيل؟!"

وصلت إلى قصري ونزلت من على ظهر "ياقوت" منادياً على "سلسبيل" وعلى وجهي ابتسامة لا تفارقني.. ولكنني لم أجدها.. فتعجبت من ذلك وتلاشت ابتسامتي تدريجياً وابتلعت رمقي وجاء في عقلي تصورات حاولت أن أمحيها بقوة.. ثم بحثت عنها في كل مكان ولم أجدها.. والأغرب من ذلك.. هو أنني لم أجد "خازن" أيضاً.. فأين ذهبا؟! ثم ركبت "ياقوت" ولم أترك مكاناً إلا وقد ذهبت إليه.. حتى الشجرة ذهبت إليها أيضاً.. جريت في كل مكان تائهاً في شرود وأنا أنادي عليهما بأعلى صوت حتى شعرت بأحبالي الصوتية ستنقطع:

- يا سلسبيييل.. يا ماااالك!!

فجلست على صخرة من لؤلؤ أمام قصري ناظراً حولي في دهشة وصدمة بينما ينظر لي "ياقوت" نظرة شفقة شعرت بها وأنا لا أصدق أنني الآن في الجنة بدون "سلسبيل" وبدون "خازن".. فأنا وحدي في الجنة!

لا أجد "سلسبيل" في أي مكان.. ولا أجد "خازن".. أصبحت وحدي تماماً.. أنا و"ياقوت" فقط نطير في الجنة الواسعة، الخالية من كل شيء.. ولعل الحياة في الجنة بدون أي كائن حي حياة صعبة.. حتى جميع الكائنات الأخرى قد اختفت من حولي.. ولكن بدون "سلسبيل".. فالجنة لا تستحق أن أبقى فيها.. فحاولت أن أبحث عنها لكن دون جدوى.. وحاولت أن أعيش وأتنعم بدونها ولكنني لم أشعر بأي متعة.. فهي جنتي وروحي وحياتي ومتنفسي.. فكيف أعيش بدونها؟! فقد خسرت حبيبتي وصديقي ومرشدي ولم يتبقى لي سوى "ياقوت" الذي يجعل للجنة طعماً مميزاً.. فنحن نفهم بعضنا بالنظرات فهو ينظر لي الآن نظرة شفقة وحسرة فيجعلني أشعر بالذنب ثم يقترب مني بفمه وأنا متكىء على الصخور كأنه يريدني أن أعود لابتسامتي وحماسي ولكنني لا أشعر بأي شيء وأحياناً أشعر أنه لا يريدني أن أبتعد عنه.. وهذا مستحيل.. فلن أرحل وأترك "ياقوت" أبداً.. ولكن ما يجعل دموعي تترقرق هو أنني قد جعلت "سلسبيل" تنفر مني ولا ترغب في أن ترى وجهي بعد كل ذلك الحب.. فأنا السبب في أن تهجرني وتتركني وتكره جنتها بسببي.. وأنا السبب في رحيل أهل الجنة والبقاء فيها وحدي.. ولكن لدي الأمل بأنني سأجد "سلسبيل".. فلم أجد أي حل آخر إلا أن أتجه إلى الشجرة وأذهب حيثما ذهب أهل الجنة لأبحث عن "سلسبيل" وأعثر عليها وأجد "خازن" وأتحدث مع "سهيل" وأعود لأعيش مع أصدقائي.. فلابد أن أُصلح أخطائي التي اقترفتها.. فأنا الآن عرفت أنني لا أستحق الجنة.. ولم يعد لدي خياراً آخر سوى أن أهرب منها وأذهب إلى تلك الشجرة المحرمة.. فلعلي أجد "سلسبيل" وأعتذر لها ونعود لنعيش سوياً.. فقد تعلمت الدرس وتعلمت ألا أضمن شيئاً أو شخصاً ورغم ترددي بأن أذهب إلى هناك.. فقد وجدت "ياقوت" يحاول منعي ويمسك ثيابي بأسنانه ولكنني لم أعبأ بذلك وركبت فوق ظهره وطمأنته بأن كل شيء سيكون بخير.. ولكن صوتاً مألوفاً أوقفني منادياً:

- يا زاهر..

أنا أعرف هذا الصوت جيداً فاستدرت.. ثم وجدت "سهيل".. لم أصدق ما تراه عيناي فارتميت بين ذراعيه ولاحظت أن وجهه أصبح مضيئاً أكثر كنور السماء و وجهه بشوشاً فتبادلنا النظرات المشتاقة متسائلاً:

- أين ذهبت يا سهيل؟! لقد افتقدتك كثيراً.. لماذا أكلت من الشجرة؟!

فنظر لي متعجباً:

- لم أفعل ذلك.. ولكن الله قد جعلني من أهل الغرف.. وقد سكنت الفردوس الأعلى.. ولكنني افتقدتك فطلبت أن أزورك..

ثم أجهشت في البكاء على كتفه متأثراً كأنني طائراً تائه في الجنة.. ثم ربت على كتفي:

- أنا أعرف كل شيء وأعرف كل ما حدث.. ولكنني لا أريدك أن تشعر بالذنب.. فما تشاء إلا أن يشاء الله..

- وإذا كانت مشيئة الله هي الراجحة.. فلماذا يفعل بنا ذلك؟! وأين حرية الإختيار في ذلك؟!

فابتسم "سهيل" وأومأ برأسه:

- لازلت تسأل كثيراً.. فإذا خلقك الله ملاكاً يسيرك كما يشاء.. ألن تسأل لماذا لم يخلقك إنساناً له حق الإختيار؟

فنظرت له متردداً:

- ربما.. ولكنني لم أختار أن أعيش هكذا.. فلماذا خلقني الله؟!

- بل اخترت يا زاهر.. وسأخبرك بسر لعله يريحك قليلاً..

فتعجبت من كلامه واقتضب جبيني ثم استطرد:

- لقد خلق الله الملائكة بعقل دون شهوة.. وخلق الحيوانات بشهوة دون عقل.. فمن غلب عقله شهوته أصبح أفضل من الملائكة.. ومن غلب شهوته عقله أصبح كالحيوان أو أضل.. وقبل كل ذلك خلق أرواحنا في عالم الذر وجعلنا نختار عقولنا.. ولكن من رحمته قسم أرزاقنا واختارها لنا.. ولذلك تجد أكثر البشر لا يشكرون!

فأومأت برأسي موافقاً:

- نعم.. فمعظمنا لا يرضى برزقه ولكن يرضى بعقله..

فزم شفتيه مكملاً:

- وعندما كنا أرواحاً.. تآلفت أرواحاً وتنافرت أرواحاً أخرى.. ولذلك تشعر أنك تحب شخصاً بدون سبب بينما لا تقبل شخصاً آخر.. ثم سأل الله تلك الأرواح قبل أن تسكن الجسد.. من يريد أن يحمل الأمانة ويكون خليفته ويعيش كإنسان ومُعَمِّر؟! فهناك من قَبِلَ التحدي و وافق على أن يحمل أمانة السماوات والأرض ويُثبت وجود الله بتعميره وشكره لأنعمه فيصبح خليفته أو بإفساده وسخطه وقنوطه فيصبح كالشيطان.. ولكن هناك من رفض هذه الفرصة.. ولا نعرف مصيره.. فالله لا يجبر أحداً على شيء ولا يكلف نفساً إلا وسعها ولكننا من نُحَمِّل أنفسنا فوق طاقتها.. بينما الجان عندما أفسدوا في الأرض إفساداً عظيماً ثم عاش أغلبهم معنا في سلام.. كان الفرق بيننا وبينهم.. هو أن خلقتهم التي من نار.. تجعلهم يبالغون في كل شيء.. وهذا لا يجعلهم أفضل.. فهم ليسوا مثلنا.. ولكن ما يميزنا هو أننا نستطيع أن نصل إلى الإتزان.

- ولكنني لا أتذكر أن الله قد سألني من قبل.. ولا أتذكر أنني قد وافقت على أن أعيش!

- نحن خالدون يا زاهر.. ونرغب دوماً في البقاء.. وهذا دليل على أننا نريد أن نعيش الحياة بأكملها ولكن الشياطين يريدوننا أن نقنط ونيأس ونكره حياتنا بأكملها.. وأنت لا تتذكر ذلك لأن أرواحنا قد سكنت أجسادنا فذلك الصوت الخفيض الذي تسمعه بداخلك هو روحك التي تريد أن تعيش النعيم أو المعاناة..

- لا أحد يريد أن يعاني يا سهيل!

فابتسم نصف ابتسامة وقال بنبرة ساخرة مستنكراً:

- نعم نعم بالطبع.. مثلك بالضبط!

- إذن ماذا أفعل الآن؟! دلني وارشدني أرجوك..

- ألم تريد أن تذهب إلى الشجرة؟!

- ولازلت أريد ذلك.. فالجنة بدون سلسبيل ليس لها أي معنى..

- إياك أن تسكن قلب شخصاً وتجعله جنتك حتى لا يصبح جحيمك.. وإذا أردت النصيحة.. فليس لك خياراً سوى أن تأكل منها..

- وإذا بقيت هنا؟!

- لن تتحمل.. ولعلها حكمة الله.. ورحمته بك أيضاً..

- كيف؟!

- ستعرف.. لعل الله يريد أن يعلمك درساً.. فوقتي معك قد انتهى يا زاهر.. ليرعاك الله.. ألقاك مرة أخرى..

فابتسم لي ووجدت البراق قد هبط بجواره ليركبه حيث أن البراق عبارة عن دابة تشبه الجمل بجناحين فيأخذه ليطير إلى الأعلى.. ثم حاولت إيقافه راكضاً نحوه:

- انتظر يا سهيل.. لا ترحل أرجوك..

ثم شاور لي بيده مودعاً ومبتسماً.. بينما أنا أستغيث به حتى أصبح كنجم في السماء لم أطيله ثم وجدت عاصفة حولي فسعلت وشعرت بالإختناق وأنا أبكي.. ثم نظرت إلى "ياقوت" فتوجهت إلى هناك وكأنني افتقدت تلك الشجرة ولم أجد حلاً سواها.. وصلت إلى هناك ثم وقف "ياقوت" بجواري وأنا أنظر إلى الشجرة متمعناً ومتأملاً في تعجب فنظرت إلى الأعلى.. فوجدت ثمار العنب والتين والتفاح تتساقط بينما أنا أتذكر أنه لم يكن هناك سوى العنب الضخم والسلم الذي يقودني لأعلى.. وفي ذهني لا يوجد سوى سؤالاً واحداً.. إذا كنت آخر شخص سيرحل من الجنة.. فستكون لمن؟! هل ستختفي أم ستظل خاوية أم سيحتلها كائنات أخرى أم سيخلق الله فيها من هم أفضل من البشر أم ماذا؟! ولم أتسائل إذا كانت هذا الشجرة ستقودني إلى أي مصير.. فأينما توجد "سلسبيل" سأكون معها حتى وإن كانت في غياهب الجب.. فإذا كانت إلهاً لقمت بعبادتها.. ثم وجدت الدخان الذي أفقدني وعيي يملأ المكان وكانت رائحته كالبخور فوجدت نفسي لم أتأثر..

ولكنني ذهبت تجاهه وتجاه الفوهة الواسعة التي في منتصف الشجرة حيث يخرج منها دخاناً كثيفاً رائحته كالبخور والعود.. فاستدرت ثم وجدت "ياقوت" قد أُغشي عليه.. فناديت بعلو صوتي وأنا أهزه بعنف:

- ياقوووت.. ياقوووت.. لا تتركني أرجوك!!

لأول مرة أجده متعباً هكذا فأشعر برعشة خوفاً على فراقه.. فربت عليه ورجوت الله بأن يفيقه ثم ملت برأسي عليه منهاراً:

- لن أرحل بدونك يا ياقوت.. فليس لي سواك الآن..

ومن رحمة ربي وجدته قد استفاق قليلاً و وقف و فرد أجنحته فابتسمت كأن روحي قد عادت إليّ مرة ثانية واحتضنته فاحتواني بجناحيه.. ثم صعدت إلى السلم رغم تساقط الثمار لأعرف ماذا يوجد بالأعلى.. بينما كان ينظر لي "ياقوت" وكانت نظراته قلقة ومتوترة.. فصعدت ثم نظرت إلى الأسفل حتى وجدت أن المسافة بيني وبين "ياقوت" بعيدة.. ثم نظرت إلى الأعلى فوجدت أن المسافة بيني وبين ثمار الشجرة أبعد.. وكان السلم لزجاً والصعود عليه صعباً بينما انتشرت رائحة البخور والعود في أنفي حتى عطست ثم وجدت نفسي أتهاوى وأتساقط كالثمار فارتطمت بجوار أقدام "ياقوت" حتى شعرت بألم يتصدع جسدي بأكمله حيث أن هناك هزة عنيفة سرت بداخلي حتى رأيت السماء أمامي تهتز بسرعة مخيفة ثم حاولت أن أقف مرة ثانية وذهبت إلى تلك الثمار المغرية كأنها تناديني.. وأكلت منها ما أشاء.. فنحن بنو البشر نعيش في صراع بين العقل والشهوة، النفس والروح، وبين كلٍ منهما شعرة رفيعة تجعل القلب يختار بين الخير والشر والملاك والشيطان الذي بداخلنا.. وهنا يكمن الإنسان البشري الذي يشبه الحيوان عندما يلهث وراء غرائزه.. فأكلت العنب والتفاح والتين حيث أن مظهر الثمار مغري ولأول مرة أرى تفاحاً ذهبياً وعنباً فضياً وتيناً من الماس.. فالتهمت تلك الثمار وشعرت أنني قد أدمنتها ولم أتوقف.. فطعمها كالشهد الذي يسيل اللعاب ثم اكتفيت وشعرت أن بطني قد امتلأت فنظر لي "ياقوت" نظرة لم أفهمها حتى وجدت رياحاً تعصف بي ناحية الفوهة الضخمة ولكنني وجدت "ياقوت" يقف متصلباً فأمسكت بجذع الشجرة بقوة صارخاً:

- هيا يا ياقوت.. لنرحل من هنا حتى نجد حياتنا.. ونجد سلسبيل وخازن وأصدقاؤنا.. ألم تفتقدهم؟!

فوقف "ياقوت" ولم يتحرك ثم وجدت الفوهة تسحبني بداخلها بقوة.. ولكنني أقاوم فأمسكت بجناح "ياقوت":

- لن أرحل بدونك يا ياقوت.. تعال أرجوك.. يارب لا تحرمني من ياقووووووت..

ينظر لي "ياقوت" نظرته الأخيرة وعينيه مدمعتان.. وكادت يداي تفلت وأنا أصرخ باكياً:

- يا ياقووووووت.. أين ستذهب بدوني.. كيف سأعيش بدونك؟! أرجووووووك!

ثم سمعت صهيل " ياقوت" ورأيته يتقدم ناحيتي ولكن شيئاً ما قد منعه فوقع أرضاً وقد سحبتني تلك الفوهة داخل الشجرة.. فصرخت ثم وجدت ظلاماً دامساً وأنا أسقط في ثقب أسود.. ولكن باختياري الحر.. فلم أشعر بشيء وازدادت ظلمتي وأُسدلت جفوني مودعاً جنتي وياقوتي.. ومُرَحِّباً بمجهول قد سعيت لأجله حتى أُرضي فضولي وأجد هدفاً لحياتي ومبرراً لجنتي.. وأجد حبيبتي.. ولكن إذا كانت "سلسبيل" هي التي أعيش لأجلها..

فلماذا لم أختار حياتي معها في الجنة وتوقفت عن تساؤلاتي وتمردي وجحودي؟! وإذا لم أجد "سلسبيلي".. فهل سأجد سبيلي؟! أم سأظل ألهث وراء ابتلائي.. شهوة الفضول.. تلك اللعنة التي تمنعني من الحياة وتجعلني أكره كل ما له علاقة بالرضا والقناعة والخنوع.. فاستسلمت وشعرت أنني ريشة في الظلام.. فعرفت حجمي وندمت على ما فعلت لحظة سقوطي في تلك الهاوية التي تسببت فيها.. فالله لم يظلمني.. ولكنني أنا الذي ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإن لم يغفر لي الله ويرحمني.. سأكون من الخاسرين.. وماذا سأخسر أكثر من ذلك؟!

-10-

"إلى أين قادتني تلك الشجرة الملعونة؟!"

هبطت على الأرض وحاولت استكشاف المكان فوجدت بحيرات وجبال وبشر وحيوانات.. أشعر بآلام في جسدي وفي رأسي و وجدت نفسي وحيداً على جبل وحولي جبالاً أخرى حيث أجد من هم مثلي يحاولون استكشاف المكان.. أين أنا؟! وجدت نفسي غارقاً في عرقي وتفوح رائحتي التي لا أتحملها بينما الشمس حارقة ثم نظرت إلى نفسي فوجدت نفسي عارياً.. فحاولت أن أبحث عن أي لباس يسترني.. فرأيت أشجاراً قريبة من الجبل التي وجدت نفسي أعلاه.. فنزلت من على الجبل وتوجهت إلى تلك الشجرة وأنا أواري سوئتي ولا أعرف لماذا أشعر بالإحراج.. وما هذه المشاعر الغريبة التي تنتابني؟! أشعر أن حجمي أصبح ضئيلاً.. أشعر بالتعب والإنهاك والإرهاق.. أحمد الله أنه قد علمنا الأسماء كلها.. فحاولت أن أتسلق الشجرة لألتقط بعض أوراق الشجر فأغطي نفسي.. فقطفت أوراقاً ضخمة ووضعتها حول رسغي و واريت عورتي وربطت تلك الأوراق ببعض الأغصان.. ثم تمشيت قليلاً وقد شعرت شعورين لم أشعر مثلهما قط.. شعرت بعطش شديد وجوع يمزق معدتي.. فقد جف حلقي وشعرت برغبة في شرب الماء فتوجهت إلى بحيرة من البحيرات التي رأيتها فشربت منها حتى ارتويت ولكنني وجدت طعمها رديء.. فاشتقت لأنهار الجنة.. ولكنني اضطررت أن أشرب حتى أروي ظمأي ثم أكملت مسيري تائهاً.. فتمشيت قليلاً حتى وجدت سوقاً من الأسواق فتذكرت سوق الجنة ثم اقتربت من السوق وأخذت ما أشتهي وهممت بالرحيل ولكن البائع قام بمطاردتي والإمساك بي فوجدت نفسي وقعت في خلافاً كبيراً وتجمع الناس حولي حتى قال رجلاً من العامة:

- أتركوه.. لعله جديداً على هذه الأرض..

فتركني من أمسك في خناقي قائلاً:

- لقد سئمنا منكم جميعاً.. إعملوا أولاً ثم أرونا بضاعتكم لنعطيكم ما تريدون أيها اللصوص!

ثم أخذ مني ما أخذت ورحل بينما أنا لا أفهم شيئاً.. أليس من حقي أن آخذ ما أريد؟! وأين المُلك الذي لا يبلى؟! فزفرت في ضيق واختلطت بي مشاعر لم تنتابني من قبل.. فشعرت بالحزن واليأس والإحباط والندم ثم تمشيت وأنا أشم رائحة الغبار من حولي فجعلتني أسعل كثيراً وتلاحقت أنفاسي.. ثم ازداد شعوري بالجوع.. فما هذا الشعور الذي يجعل معدتي تؤلمني بهذا الشكل؟! شعوري بالألم يجعلني عاجزاً.

حاولت أن أذهب بدون وجهة لعل الله يرشدني إلى أي شيء.. أبحث في وجوه البشر على وجه "سلسبيل".. فأنا متأكد بأنها تبحث عني هي أيضاً.. أحاول سماع صوتها.. ولكن كل ما أسمعه هو ضوضاء وهمهمات من مجموعات عديدة.. لماذا كل هذا الصخب؟! فقد اشتقت إلى الهدوء والسلام؟! ثم قلت لنفسي محدثاً:

- لا تشتاق لشيء يا زاهر كنت تملكه يوماً ما.. ولا تندم على شيء كنت تريده بشدة.. فقد عاقبت نفسك وتدفع الثمن الآن!

شعرت أن قدمي لا تحملاني.. أشعر بضعف وهذيان غير مألوف.. لماذا كل هذه الآلام في جسدي وفي قدمي وفي رأسي أيضاً؟!

وقعت على الأرض مغشياً عليّ ولم أعي إلا على أسرة بسيطة في بيت بسيط من القش وقد رأيت رجلاً كبيراً في السن وقد ملأ وجهه التجاعيد.. فتسائلت:

- أين أنا؟! ومن أنت؟!

- اطمئن يا ولدي.. لا تخف..

ثم وجدت نفسي داخل خيمة بسيطة مصنوعة من القماش و وجدت زوجته تسوي طعاماً وكانت هذه أول مرة أجد البشر يفعلون أشياءً بأنفسهم.. ثم ناولني الشيخ الكبير كوباً من الماء ورغيفاً من الخبز وبعضاً من القمح والدقيق.. فالتهمت الطعام حتى شبعت ولكنني لم أتلذذ به لمذاقه الغريب.. فضحك على وجهي الذي يشوبه التقزز والإشمئزاز.. ثم سألني:

- هل أنت جديد على هذه الأرض؟!

فأومأت برأسي موافقاً بينما يظهر عليّ الندم والحسرة..

ثم ابتسم لي قائلاً:

- نندم على أشياء فعلناها بإرادتنا كأننا لم نكن بكامل قوانا العقلية!

- أريد أن أعرف ماذا أفعل هنا؟!

- هذا السؤال نسأله لأنفسنا ولا نسأله لغيرنا.. فلا تتعجل يابني.. ستعرف كل شيء.. كلٌ في وقته!

فأطرقت برأسي وأكملت طعامي الذي لم أتلذذ به قط وجعلني أشتاق إلى طعام الجنة.. ولكنني كنت أرغب في إسكات صوت جوعي الصارخ الذي يؤلمني ولذلك يجب أن أتناول شيئاً.. ثم سألته:

- هل سأشعر بالعطش والجوع مرة ثانية؟!

فضحك قائلاً:

- نحن نعيش على هذه الأرض لنسد جوعنا ونروي عطشنا..

فنظرت له مندهشاً:

- فقط؟! نعيش لأجل الطعام والشراب؟!

- نحن نأكل ونشرب لنعيش ونبقى على قيد الحياة.. ولم أجد سبباً آخر غير ذلك منذ أن هبطت إلى الدنيا..

فعرفت أن إسم هذه الأرض هي "الدنيا" فهي مأخوذة من الدنو والدونية التي على عكس الجنة.. ثم سألته:

- ولماذا هبطت؟!

- نحن جميعاً خُلقنا من طينة واحدة.. فكلنا كان لدينا الفضول الذي جعلنا نخرج من الجنة.. باختلاف الطرق والمبررات..

- أنا تائه.. ماذا عليّ فعله هنا؟!

فدلف إليّ و وضع يده على قلبي قائلاً:

- انصت إليه جيداً وستعرف.. سييسر لك الله ما خُلقت له..

فرحلت من بيته رغم تعلقي به لأستكمل رحلتي ثم شكرته على حسن ضيافته.

وقبل أن أبحث عن سبب هبوطي على الأرض.. كنت أبحث عن "سلسبيل".. فذلك هو السبب الرئيسي الآن بالنسبة لي.. أريد أن أطمئن عليها وأعتذر لها ثم أبحث عن "خازن" وبقية أصدقائي.. وجدت الظلام قد حل ولم أعد أرى شيئاً واضحاً ثم رأيت منطقة آمنة وهادئة بها بحيرة وشجرة لأستظل بها عندما يأتي النهار وحولي جبالاً فشعرت بالإرهاق الشديد و وجدت جفوني ترغب في إسدال ستائرها عنوة.. ولكن هناك شعوراً غريباً قد انتابني حيث أن معدتي تريد إخراج شيئاً من عضوي.. فابتعدت قليلاً عن مكان نومي وكشفت عن عورتي ثم تبولت وأنزلت مياهاً صفراء وأنا مندهش من مظهر عضوي الرخو.. فقد تحولت إلى شخص غريب على هذه الأرض بينما أنا لم أتوقع ذلك.. ثم أخرجت فضلاتي من دبري ولم أحتمل رائحتها فأفرغت كل ما في معدتي ثم بكيت مما أنا فيه وعرفت أن الله يريد لنا الخير ولا يريدنا أن نعلم كل شيء حتى لا نؤذي أنفسنا ثم غطيت نفسي بأوراق الشجر وعدت إلى مكاني ممدداً وناظراً إلى السماء المتلئلة بمصابيح وهلال يناديني:

- ماذا فعلت بنفسك؟!

وهذا لم يكن الهلال.. ولكنه صوتي الداخلي الذي يصفعني في كل مرة ويؤنب ضميري ويشعرني بالذنب.. وتلك هي أكبر لعنة.. عندما تجد شيئاً غير مرئي وغير ملموس يؤنبك دوماً على خطأ اقترفته.. لا أعرف لماذا يشعر جسدي بإرهاق شديد وعيناي ترغب في إنهاء المشهد الذي أراه فنمت وذهبت في سبات عميق ولم أغمض عيني ولكن جفوني هي التي قررت بأن تنهي مدتها وتحتوي عيناي وتغلقهما وتسدل ستارها عليهما..

رأيت "سلسبيل" وهي تحتضنني وتبكي بكاءً شديداً ثم ظهرت مجموعة من كائنات غريبة يملأهم السواد يأخذونها بعيداً عني فناديت عليها وحاولت الجري ورائها ولكنني لم ألحق بها.. ثم استيقظت على صرختي فتلاحق أنفاسي و وجدت نفسي مكاني.. هل الذي رأيته حقيقة أم ماذا؟! أنا لا أفهم شيئاً.. ثم نهضت لأشرب من البحيرة فسمعت ورائي صوتاً يشبه الزئير.. فاستدرت ورأيت كائناً غريباً جعل فرائصي ترتعد فهو يشبه الكلب المسعور وقد ثبتت قدماي على الأرض ولكن هناك صوتاً في داخلي جعلني أركض بأقصى سرعة فركض ورائي ولا أعرف ماذا أفعل فتسلقت شجرة أمامي وقد ظل منتظراً أن أهبط.. ما الذي سيحدث إذا التهمني؟! ما الذي يريده مني ذلك الوحش؟! فنظراته تدق شرراً وقلبي يدق فزعاً.. ثم فكرت قليلاً فقطعت غصناً من الشجرة وقفزت فوقه بالغصن حتى اخترق جسده.. فأحزنتني نظراته التي تتهمني بالقتل.. فهل قتلي له يجعلني مذنباً؟! لقد كنت أسمع قصص عن الجان والشياطين بإفسادهم في الأرض وقتلهم الآخر بغير حق.. فهل أنا الآن مثلهم؟! وهل هذا هو القتل؟! أين ذهبت روح هذا الكائن الآن؟! فقمت بالتحسس عليه ثم وجدت ملمسه كالحرير الذي جعلني أتذكر الجنة ونعيمها..

ثم نزعت ذلك الغصن من داخله فانتفض وأصدر صوتاً يشبه الصفير وانتشر الدم في كل مكان حتى شعرت بالذنب.. ثم ناداني الجوع مرة ثانية.. فلم أجد سوى أن ألتهمه قطعةً قطعة.. فمن الوحش الآن؟! أنا أم هو؟!

أكلت بعضاً منه ولم أكن أعلم أن الطعام هنا اتضح أنه عذاباً لإسكات صوت الجوع فلم أعد أتلذذ بأي طعام أو شراب ولكنني فقط أريد البقاء على قيد الحياة.. ولا أعرف لماذا أريد ذلك؟! فماذا لو استسلمت لأنياب ذلك الوحش هل كنت سأعود إلى جنتي؟! فلعلي خسرت الكثير ولم أخسر فضولي.. ولكن خوفي الآن أشد تأثيراً.

غسلت يداي وفمي ولم أرغب في النوم ثانية فمددت على الأرض ناظراً إلى السماء ثم قمت ومعي غصني لأحتمي به وتمشيت قليلاً ومررت على خيامٍ وأُناس يلعبون مع بعضهم ومع كلاب وقطط وهم يضحكون بينما أنا أحمل جبالاً من الهموم حتى صعدت على جبل ورفعت يدي وبكيت:

- اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإن لم تغفرلي وترحمني أكن من الخاسرين.. اللهم إنني تائه يارب فدلني وارشدني وأعدني إلى جنتك ولن أطمع في شيء ليس لي به علم..

ثم رأيت السماء تمطر وظهر البرق وسمعت الرعد فشعرت بالبرد الشديد ثم حاولت أن أحتمي في خيمة من الخيام فلم أجد سوى خيمة واحدة لا يوجد بها أحد فدخلتها بسرعة ثم رأيت ناراً فعرفت أن هناك من يسكنها ولكنني طمعت في بعض من الدفىء.. جلست بجوار تلك النار.. فسبحان من خلقها.. إذا اقتربنا أكثر من اللازم حرقتنا.. وإذا ابتعدنا عنها نعاني من الصقيع الذي يشل أطرافنا.. فتذكرت الثياب التي تسترنا وتدفئنا.. وتذكرت أن الله قد علمنا أسماء كل شيء ولكن فضولنا هو الذي يجعلنا نرغب في رؤيته.. فلعن الله الفضول الزائد الذي يهلكنا.

هدأت الأجواء فأمسكت بغصني وخرجت لأستنشق بعض الهواء الطلق الذي تتلفح نسماته في وجهي وأنصت إلى الصمت الذي يدور حولي.. حتى سمعت صراخ امرأة.. فانتبهت واستعديت لمواجهة ما.. ثم بحثت عن مصدر ذلك الصوت ولا أعرف من أين جائتني هذه الشجاعة.. فقلبي مستمر في النبض وأنا مستمر في البحث حتى احتميت وراء شجرة ورأيت فتاة من بعيد تصرخ ثم تلاحقت أنفاسي وأنا أراقب المشهد ولا أعرف ماذا أفعل الآن.. فعقلي توقف عن التفكير وأطرافي ترتعد وقلبي لم يصمت حتى كادت نبضاته تصم آذاني فأحكمت قبضتي على الغصن لأمنع رعشة يدي وتذكرت شيئاً واحداً.. وهو أن كل شخص منا خُلق لسبب جلل وكل ما علينا هو البحث عن ذلك السبب الذي خُلقنا لأجله.. ولكن الشيء المشترك بيننا.. هو أننا المعجزة التي خلقها الله والدليل على وجوده.. فعلينا تحمل مسئولية حياتنا لنعرف إذا كنا نستحق الجنة حقاً أم لا.. فإذا بكينا على ما مضى أو ارتعبنا مما هو قادم.. سنكون كالشجرة التي تحركها الرياح كما شائت.. ولكن ما يوجب علينا الآن هو أن نكتب أقدارنا التي لا نعلمها.. ولن يفيدنا شيء سوى هذه اللحظة.. حتى وإن لم نفهم شيئاً.. فلن نفهم كل شيء ولكن ما علينا فعله هو أن نفعل شيئاً على قدر فهمنا.. فهيا يا "زاهر".. إثبت لإلهك أنك خليفته بحق!

-11-

"تسنيم التي جعلتني أرى الدنيا بشكل آخر!"

اقتربت في حذر وأنا أسمع صراخها الذي جعل قلبي ينتفض.. فرأيت ثلاثة رجال يقتربون من فتاة فقام رجل بتكتيف الفتاة من الخلف ثم اقترب منها الرجلان ليوقعاها على الأرض فقبّلوها في كل مكان بجسدها كأنهم حيوانات يرغبون في التهامها ثم نزعوا ما يستر فرجها.. وبينما هي تصرخ هم يضحكون حتى غلى الدم في عروقي وذهبت لأضرب كل رجل فقمت بخنق الرجل الذي تهجم عليها من الخلف حيث كان فوقها ثم ركلته بركبتي في ظهره حتى وقع أرضاً.. فأمسكني رجل وقام بتكتيفي.. فركضت إلى الوراء بسرعة حتى اصطدم بشجرة ثم دفعته مراراً وتكراراً حتى وقع ثم وجدت الرجل الأخير قد اقترب مني وأمسكني من رقبتي ولكمني في وجهي حتى نزفت فوقعت على الأرض ولكنني وجدت الفتاة قد قامت وقفزت كالأسد وركبت على ظهره فعضت رقبته حتى نزف منها الدماء ثم وقع على الأرض ميتاً فبصقت في الأرض ومسحت الدم من على فمها.. فقام الرجلان بالهروب في خوف ثم نظرت لها متعجباً:

- لم أعرف أنكِ آكلة لحوم البشر!

فضحكت قائلة:

- لقد اضطررت إلى ذلك.. أشكرك على مساعدتك.. أنا اسمي تسنيم..

- إسمكِ جميل.. يذكرني بأيام رائعة.. وانا اسمي زاهر..

كانت "تسنيم" فتاة سمراء اللون.. ملامحها جميلة ورقيقة.. شعرها أسود قصير ومجعد.. ترتدي وشاحاً يغطي فرجها ونهديها الذي يُبرز نصفه.. وجدتها قلقة عليّ فاصطحبتني إلى خيمتها.. تمشينا قليلاً وهناك صوتاً ما بداخلي يقول: أخيراً قد وجدت شيئاً جميلاً على هذه الأرض.. هل "تسنيم" قطعة من الجنة أم عوضاً من الله؟! وبالرغم من استغاثتها لكنني وجدتها جامحة ومغامرة وجريئة.. تمشي واثقة الخطى وأنا بجوارها كتلميذ صغير لا يعرف أي شيء هنا فسألتها:

- لقد هبطتي هنا منذ زمن؟!

فأومأت برأسها علامة الموافقة ثم قالت لي:

- أعتقد أنك جديداً على هذه الأرض..

- نعم.. وعندما رأيتكِ تعجبت من أنه لا يوجد أي شخص ساعدكِ!

فضحكت قائلة:

- لا يوجد من يساعد أحد هنا سوى القليل.. مثلك.. ولقد اعتدت على ذلك.. حيث يأتي من يعتدي عليّ ويغتصبني فلا أكف عن الصراخ لعل شخصاً ينقذني.. فالنساء هنا كقطعة الحلوى التي يتلذذ بها الرجال..

- ولكن النساء لهم حقوقاً آدمية وإنسانية كالرجال.. فقد كرمنا الله عز وجل!

ثم سمعتها وهي تضحك ضحكة مدوية كأنها معزوفة موسيقية قائلة:

- ألم تزور سوق الجواري بعد؟!

فأومأت برأسي علامة الرفض ثم سألتها متعجباً:

- وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟!

فضحكت في مرارة:

- يتم استخدامي لأي غرض يحتاجه الآخر!

فنظرت لها مشفقاً عليها ثم وصلنا إلى الخيمة التي رأيت بداخلها بعض الأواني والماء والخشب الذي يرقد عليه النار وقد كانت رائحته تملأ المكان.. فمددت على فرشة.. ويبدو أن "تسنيم" قد اعتادت على الحياة هنا فأحضرت كوباً كبيراً من الماء و وضعت قماشاً لتضعه على وجهي حتى تضمد جراحي واقتربت مني فتأملت ملامح وجهها الجذابة وتفاصيل جسدها التي أثارت شهوتي وحركت قلبي.. ثم قلت لها:

- ألا تريدين أن تحكي لي عنكِ أكثر؟!

فعصرت الضمادة في عنف كأنها تكتم أسراراً تؤلمها ثم ابتسمت نصف ابتسامة:

- ماذا أحكي لك؟! أحكي لك عن أرض ظالمة بها أُناس يستخدمون البشر خاصةً النساء.. وإذا خرجت امرأة مثلي عن طوعهم تصبح متمردة.. فالمرأة هنا كالسلعة التي يحق لأي أحد القيام بأي شيء معها.. فقد جئت هنا ليتلذذ بي كل شخص.. يتلذذ بصراخي وآهاتي حتى نسيت أنني إنسانة.. ونسيت معاني الحب بعد أن أصبحت أداة لتسد شهوة الرجل.. والآن أنتظر موتي بفارغ الصبر لعل الله يرحمني مما أنا فيه..

فاعتدلت في جلستي وأنا لازلت لا أفهم معنى الموت ولكنني أمسكت يدها برفق:

- أنا لا أعرفكِ.. ولكنني أعدكِ أنني لن أؤذيكِ.. وسأقف في ظهركِ أينما كنتِ..

فابتسمت في خجل ورأيت عينيها تلمع من دموعها التي تبقت من كرامتها الضائعة.. ولم أرغب في أن أضغط عليها بأسئلتي فأحببت أن أكون ضيفاً خفيفاً عليها.. فأعطتني خبزاً لآكله وكان طعمه لا بأس به.. ثم خرجنا وتمشينا قليلاً بينما الهواء يتلفح وجوهنا.. وقد قامت بتعريفي بعض الأشياء ومن الواضح أن الشيء المشترك بيننا هو أن الفضول هو الذي قادنا إلى هذه الأرض ولا نعرف لماذا وُجدنا.. فرأيت سوق الجواري حيث يوضع الكثير من النساء في أقفاص متنوعة وينظر لهم الرجال في شهوة ويطلب رجلاً من امرأة الكشف عن عورتها فيتحسسها جيداً ليطمئن على بضاعته بينما أنا أشعر بالتقزز من هذا المشهد ولا أعرف هل هؤلاء خُلقوا بلا ضمير أو إحساس وأنا فقط الذي خُلقت به؟! أم هناك من هم مثلي يعرفون معنى الحب والإحترام؟! لعلي أبحث عن معنى أعيش لأجله.. ولا أعيش لأجل شهوة مؤقتة.. ولكن في هذه الحالة.. ما الذي سيفرقني عن الحيوان الذي يعيش لإشباع غرائزه؟!

وبينما هي تحكي لي عن طبيعة الحياة على هذه الأرض.. عرفت أن الذهب والفضة والماس والياقوت لا يملكهم أي شخص كما كنا نملكهم في الجنة.. ولكن من يملك ذلك هم الحكام وذوي السلطة.. فهناك مناطق عديدة يحكمها حاكم ليصدر بعض القوانين ويطيعه أهل المنطقة فسألتها:

- ولماذا يطيعوه؟!

- لأنهم اختاروه وهو يعلم أكثر منهم..

- ومن قال ذلك؟! لماذا نختار حاكماً لنطيعه؟! فبعد أن خلقنا الله أحراراً نشتري حاكماً ليستعبدنا؟!

- الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون اللجوء لشيء أو لشخص أو لحاكم أو لإله..

- بل يستطيع.. وإلهنا يكفينا.. فنحن خُلقنا وحدنا.. ورغم أنني لا أفهم ماهية الموت لكننا سنموت وحدنا أيضاً..

ثم زفرت في ضيق حتى شعرت أنني قد ضايقتها وقالت:

- لا ترهق نفسك بالتفكير.. فليس كل شيء له تفسير.. فأنا اخترت أن أعيش حياتي.. وإذا كان الله هو الذي اختار لي هذه الحياة.. فلن أستطيع أن أغير شيئاً.. ولكن ما تعلمته من خبرتي أن الإنسان مهووساً بالسيطرة..

- ولكنني لا أريد السيطرة على شيء.. أنا فقط أريد أن أعرف حقائق الأمور وبواطنها كي أرتاح قليلاً..

فنظرت لي باستنكار:

- وهل هذه ليست سيطرة؟! فأنت تريد أن تسيطر على الأمور.. أما أنا..

ثم لم تكمل كلامها فسألتها:

- أنتِ ماذا؟!

فأطرقت بنظرها بعيداً تخبىء دمعة كانت ستهبط.. فيبدو أن هناك أسراراً تدفنها ولا تريد البوح بها فمهما كان الإنسان متكلماً أو كتوماً.. هناك بئر مظلم لا يرغب في فتحه أبداً ويظهر على ملامحه ألم الكتمان..

هل البوح يريح حقاً أم هذه أكذوبة تفتعلها عقولنا؟! وما الذي يريحنا منذ أن خُلقنا؟! وهل إذا عرفت حقائق الأمور سأرتاح حقاً أم سأظل ألهث وراء سراب كالذي ينهل من البحر على أمل أن ينتهي منه؟!

* * *

اقتربنا من منطقة مليئة بالخيول فشعرت لأول مرة بقلبي وهو يقفز فرحاً وبينما هي تنظر لي مندهشة بفرحتي وتضحك وأنا أتجه نحو الخيول وأتحسسها وأشعر بملمسها الناعم فسألتها:

- ألا يوجد خيولاً تطير؟!

ضحكت قائلة:

- نحن لسنا في الجنة يا زاهر..

ثم سألتها:

- إذن لماذا قيل لي أن هنا مُلكاً عظيماً؟!

فابتسمت نصف ابتسامة:

- المُلك هنا لصاحب الملك وللحكام الذين يحكموا الأرض..

وبينما أنا لا أنتبه لنصف كلامها كنت ألعب مع الخيل وأركض معهم وأنا أضحك.. وهي تنظر لي مبتسمة ولكنني تعجبت من أن الخيول تأكل وتشرب فقط.. فسألت "تسنيم":

- لماذا لا تركبون الخيول؟!

- نركبها؟! لماذا؟! وكيف ذلك؟!

فنظرت لها متعجباً من سؤالها ثم قفزت على ظهر خيل من الخيول ثم ركضت به أمام نظرات اندهاش منها ومن الناس.. فتذكرت أيامي وأنا في الجنة.. ثم توقفت به ونزلت وأنا أربت عليه مبتسماً.. ثم سألتها:

- هل يمكنني أن أكون تاجراً للخيول؟!

- نعم.. ولمَ لا؟! لكن ما السبب؟!

- الخيول يمكن ركوبها.. فلركوب الخيل متعة لا تضاهيها أي متع.. ويمكن أيضاً توصيلنا لأي مكان..

- ولكننا هنا نقوم بتربيتها ثم نأكلها..

فاندهشت مما قالته وشعرت أن البشر هنا يصبحوا وحوشاً.. ثم نظرت للخيل قائلاً:

- أعتقد أنني وجدت ما خُلقت لأجله..

- ولعلك خُلقت لشيء أسمى من ذلك..

تبادلت النظرات بيننا وفكرت في هذا الأمر ثم أكملنا مسيرنا وقد حل علينا الظلام.. لقد فهمت منها طبيعة الحياة هنا فلابد أن أعمل عملاً حتى أجد الطعام والشراب.. وعليّ أيضاً البحث عن قوت يومي.. فالإجتهاد هنا هو سمة الحياة على الأرض وسر البقاء.. وقد عرفت منها أشياءً عديدة كمعاملة الرجال للنساء.. إذا بُنيت علاقة حب بين رجل وامرأة.. أو إذا قام الرجل بشراء امرأة.. ولكن "تسنيم" قد اترغب في أن تكون حرة.. ولكن حريتها جعلتها أداة للإغتصاب والتعدي والإستغلال..

ثم عرفت منها أن الرجل عندما يعاشر المرأة تحمل منه وتُلقي بأولادها لأي إنسان وحيد يعيش هنا فيأنس بذلك الرضيع الذي نبت من فعل شهواني حتى يكبر ولا يجد والديه لأنهما تنصلا من مسئولية تربيته أما "تسنيم" كانت تجهض أي جنين قبل اكتماله حتى لا تشعر بذنبه.. فهي تنتظر حبيباً يكون شريكاً لحياتها و أباً لإبنها وعرفت أيضاً أن الدنيا هنا طبقات ودرجات فهناك الفقير المعدم وهناك الغني وهناك ما بين الغنى والفقر فهنا نتنافس ونتسابق ونجري جري الوحوش في البرية والبقاء دوماً للأقوى فتتساوى رؤوسنا برؤوس الحيوانات التي تلهث وراء شهواتها.. وعرفت منها أن الإنسان هنا تنتهي حياته بالموت لكن معنى الموت يظل غامضاً ومجهولاً ولا نعرف مصير روحه.. فهل تعود إلى الجنة؟! أم ستذهب إلى مكان آخر؟! وعرفت أن خوفنا من الموت أشد.. رغم رؤيتي بأن الحياة الدنيا مخيفة أكثر!

لا أعرف لماذا لا أنهي حياتي الآن.. ولكن ما يخيفني هو أنني لا أعرف إلى أين سأذهب؟! وما يخيفني أكثر هو أن لا أجد إجابة لتساؤلاتي.. فلماذا خُلقت؟! وما المعني الذي خُلقت لأجله؟! ولماذا جعلنا الله نفوز بالجنة دون تعب؟! هل سأظل أكرر أسئلتي هكذا ما حييت بدون أن أجد إجابة ترضيني؟!

عندما سألت "تسنيم" وشاركت معها ثرثرة عقلي الصاخب قالت لي أن أسئلتي الكثيرة لن تفيدني في شيء وفضولي لن يقودني إلى شيء.. ولكن تجربتي الفريدة هي التي ستجعلني أجد إجابة خاصة بي وحدي فليس هناك إجابة واحدة للجميع وقواعد ثابتة.. ولكن لكلٍ منا خبرته الإستثنائية التي يعيشها.. ولذلك لا نُخلق أو نموت ومعنا أحد.. فرحلتنا فردية تماماً.. وستظل أي إجابات نسبية.. تختلف من شخص لآخر.. فلا يوجد صواب أو خطأ مطلق.. أما الحقيقة المطلقة.. فمن الواضح أنها درب من الخيال حيث يحتفظ بها الله في لوحه المحفوظ.. والخير قد خلقه الله لنا.. ولكننا سعينا إلى الشر.. فنحن والشياطين سواء عندما نفسد في الأرض ونسفك الدماء إلا ما رحم ربي.. ولا أعرف ما المبرر في وجود الشر.. ولكن لعل لذته تكمن في حب السيطرة والتملك والتسلط فمن لا يحب أن يكون إلهاً متحكماً، طاغياً بدلاً من أن يكون عبداً مطيعاً، خاضعاً؟!

جلسنا قليلاً لنستريح من المشي وقد أسندنا رؤوسنا على جذع شجرة.. فوجدتها تميل برأسها على كتفي قائلة:

- هذه أول مرة أشعر فيها بالأمان..

فابتلعت رمقي ونظرت لها بطرف عيني وقد تذكرت "سلسبيل" التي كنت أعدها بأنني لن أنظر لفتاة غيرها.. ثم نظرت إلى القمر وهو نصف طبق فنظرت معها وهي تقول لي:

- هل من أحد أخبرك بقصة اكتمال القمر؟!

فتعجبت وقلت لها:

- لا.. هل القمر يكتمل؟!

فضحكت وأومأت برأسها موافقة:

- هناك ليلة واحدة يكتمل فيها القمر فيصبح كالطبق الكامل المستدير.. فيتحول البشر إلى وحوش غاضبة.. فاحذر واستعد لتلك الليلة.. لأن من لا يدافع عن نفسه يصبح فريسة لتلك الوحوش!

- وهل سأصبح وحشاً مثلهم؟!

- معظمنا يصبح كذلك.. ولكن هناك من يصبح وحشاً ليفترس كل ما هو حي.. وهناك من يصبح وحشاً ليدافع عن الأحياء..

فأومأت برأسي موافقاً وأنا أخبىء خوفي.. ثم شعرت "بتسنيم" وهي تلثم رقبتي وتقولي لي:

- شكراً على كل شيء.. أنت الوحيد الذي جعلني أشعر أنني إنسانة!

فاعتدلت في جلستي ونظرت لها وقد استعد عضوي للإنتصاب وشعرت برجفة في جسدي فغرقت في شفاهها بدون أن أشعر متناسياً "سلسبيل" التي افتقدتها.. ولكن "تسنيم" أحيت بداخلي شيئاً افتقدته.. فهي افتقدت الأمان وأنا افتقدت الحياة.. فعندما وطأت قدمي هنا لم أشعر بحياتي حتى التقيت بها.. فقد كنت ميتاً حتى لقاؤها الذي أحيا قلبي وجعله ينبض ثانيةً.. فنحن بنو البشر.. نفتقد أشياءً لا نعلمها.. ولكن عندما نقترب من بعضنا يكتمل افتقادنا لتلك الأشياء.. فنشعر بشيء من الكمال الذي يجعلنا نصبر على مرارة الحياة.

-12-

"أين سلسبيل؟!"

استيقظت على ضوء الشمس فوجدت "تسنيم" نائمةً على صدري فأمسكتها برفق لأسند رأسها على الشجرة ثم ذهبت إلى بحيرة مجاورة لأغسل وجهي وأشرب منها قليلاً وأغتسل فعندما التحمت معها أخرج عضوي ماءً لزجاً قد أخبرتني "تسنيم" أنه ينبعث عندما أنتشي.. ولكن متعتي لا تدوم بعد ذلك كما كانت تدوم في جنتي ثم جلست أمام البحيرة ناظراً إلى السماء وشارداً بذهني وأشعر بالذنب مما حدث البارحة.. رغم أنني لم أوطئها ولكنني تذكرت "سلسبيل".. فأين هي الآن؟! ولماذا شعرت براحة وسعادة مع "تسنيم"؟! هل خنت حبيبتي؟! لقد سئمت من تلك المشاعر المؤلمة والتساؤلات.. أين مشاعري التي كنت أشعر بها في الجنة؟! كنت أفرح كثيراً.. ولكنني الآن أشعر دوماً بالإحباط واليأس والخوف وأكثر شعوراً يقتلني هو الشعور بالذنب حتى وإن لم أفعل شيئاً..

وجدت "تسنيم" جلست بجواري وهي تتثائب وتنظر لي متعجبة ثم لثمتني في صدغي فأغمضت عيني وأبعدت رأسي ولم أبدي بأي ردة فعل فنظرت لي متعجبة ثم سألتني:

- ماذا بك؟!

فقلت لها متنهداً:

- لا أقصد أن أجرحكِ.. فأنت أفضل شيء حدث لي على هذه الأرض.. ولكنني اشتقت إلى سلسبيل.. حبيبتي وأريد أن أُكمل البحث عنها حتى أجدها.. فقد هبطت من أجلها..

فابتلعت رمقها وشعرت بالغصة التي أصابت صدرها من خلال ملامحها الرقيقة ودموعها التي تكبحها دوماً فتلاشت ابتسامتها الدائمة وهي تقول لي بصوت مرتجف:

- وماذا سيحدث بعد أن تجدها؟!

فابتسمت لها قائلاً:

- سأعيش معها.. فهي حياتي التي كانت تؤانسني في الجنة.. ورغم أن فضولي هو الذي ساقني إلى هنا ولكن هبوطها من الجنة هو الذي دفعني لأقترب من الشجرة وأهبط ورائها لأبحث عنها وأجدها..

- يالها من محظوظة.. إلى هذا الحد تحبها؟!

- بدونها أصبح كالقلب الذي لا ينبض..

- ولكنها تركتك وحدك في الجنة..

- لأنها اعتقدت أنني سأتركها.. اعتقدت أنني سأتخلى عنها.. فرحلت من الجنة لتعاقبني حتى أعرف قيمتها..

- إذن هي لا تستحقك.. فهي لا تثق بك!

فنظرت لها نظرة غاضبة واقتضب جبيني.. فأومأت برأسها غير مقتنعة ونظرت لي نظرة شفقة ويأس قائلة:

- لعل قدري أن أكون وحيدة دوماً.. فلتذهب وابحث عنها..

ثم قامت لترحل من جانبي ورأيتها تسير وهي هائمة على وجهها.. فتعجبت من تصرفها ثم قمت لأذهب ورائها متسائلاً:

- ماذا بكِ أنتِ؟!

شعرت بعشقها لي بعد أن حبست دمعة واغتصبت ابتسامة زائفة:

- لا شيء..

ثم دفعتني برفق قائلة في تهكم:

- هيا ابحث عنها.. سأنتظرك.. لا تقلق.. لن أرحل كما فعلت حبيبتك!

فتجاهلت ما قالته عن حبيبتي.. ثم وجدت نفسي ممسكاً بكتفيها قائلاً:

- لن أرحل بدونك.. لن أفعلها مرة ثانية.. ولن أكون وحدي مرة أخرى..

فرأيت عيناها تبتسمان ثم احتضنتني وقد ذُبت بين ذراعيها وشعرت أن الله عوضني بملاذ آخر مؤقت حيث أنه ملاذ آمن في أرض موحشة خالية من الملائكة.. بينما معظم البشر.. شياطين متجسدون في هيئة بشرية.

* * *

بحثنا أنا و"تسنيم" عن "سلسبيل" في كل مكان.. وكنت أشعر أنني أعذب "تسنيم" معي.. فلعلها أحبتني.. ولكن هل يمكن للحبيب أن يفعل شيئاً يكرهه فقط لإرضاء المحبوب؟! ولكن لماذا أحبت شخصاً مثلي؟! تمشينا كثيراً وسألنا أشخاصاً كثيرين عن "سلسبيل".. ولكن معظم الناس لا يعرفونها.. ولم نجد إجابة شافية ومرضية.. فهناك من قال أنه يعرفها وأخبرنا أشياءً غريبة عنها.. حيث أنها فتاة يوطئها معظم الناس في مقابل بضائع تحتاجها.. فهنا التعامل يكون بالبيع والشراء من خلال المقايضة فإذا أردت طعاماً إذن ينبغي عليّ أن أعطيهم ملابس على سبيل المثال وهناك من قال أن "سلسبيل" متزوجة من أحد الحكام.. وهناك أيضاً من قال أنها جارية من الجواري.. رأيت الكذب على هذه الأرض أكثر من أي شيء.. فقد خلق الله لنا أفواهاً لتشهد بالحق ولكننا نستغلها في الكلام الفارغ والخادع بدون أي مبرر.. أو لعل هناك مصلحة ما عند أحدهم.. لم أجد فقط الكذب على هذه الأرض ولكنني وجدت أيضاً الشر والعنف والقتل والإغتصاب الذي لا أعرف مصدره الحقيقي.. هل هو من الإنسان؟! أم من الشيطان؟! أن من الخالق؟! نتعامل كالحيوانات حتى نسينا الآدمية والإنسانية.. فهناك شروراً حولنا غير الحروب التي بداخلنا فيأكلنا التعب والسأم والإنهاك والحزن ونشعر أننا أحياء بقلب ميت وروح مستنزفة، تائهة.

جلست أنا و"تسنيم" في سوق من الأسواق لنرتاح قليلاً ثم قلت لها:

- ما رأيكِ أن نذهب إلى منطقة الخيل؟!

فأومأت برأسها مبتسمة.. تذكرت نفسي وأنا مع "سلسبيل" محاولاً إرضاؤها بأي شكل.. وهنا فكرت قليلاً.. لماذا نعطي الكثير من الحب لمن لا يعطينا نفس المقدار.. ولكن من يغمرنا بحبه لا نشعره بما يستحقه؟!
ثم ذهبنا إلى منطقة الخيل وقررت أن أجمع بعض الخيول وأضعها في سوق من الأسواق حتى أصبحت تاجراً للخيول وأيضاً لأقوم بتعليم الناس كيف يركبون الخيل وينتفعون منه..

وكنت أرى "تسنيم" وهي تنظر لي نظرات معجبة وفخورة كأنها والدتي.. هل أحبها كإبن متعلقاً بأمه ولكنه حُرِمَ من حنانها ولم يشعر بهذا النوع من الحب قط؟! فشعوري بالذنب يمسك سكيناً بداخلي ويقطع مني قطع تجعلني أنزف دماً لرؤيتها تحمل مشاعر تجاهي فأتركها تحملها وحدها ولا أحمل معها تلك المشاعر!
فبالرغم من أنها لم تبوح بحبها لكن عينيها تحمل الكثير.. أما أنا.. فأقابل ذلك بقلب غافل يخبرني بأنه مخلص "لسلسبيل" فقط.. "سلسبيل" التي لم تبذل مجهوداً لتبحث عني ولا أعرف إذا كانت موجودة هنا أم ذهبت إلى مكان آخر يستحق وجودها.. لا أعلم إذا وجدت "سلسبيل" هل سأرتمي بين أحضانها أم سأجعلها تشعر بالذنب كما جعلت ضميري يؤنبني كل يوم؟!

لعلي سأفقد الأمل في وجود "سلسبيل".. وإن فقدته حقاً.. فكيف سأعيش؟! تنظر لي "تسنيم" نظرات تذبحني.. تتلاقي أعيننا ونتبادل النظرات ونحن نسير ونأكل ونشرب.. فالأعين تتحدث أكثر من الأفواه وتفهم أكثر من العقول بينما القلب لا يشعر فقط.. ولكنه يبصر أكثر من العيون.. وقفت في مكاني بالسوق مع خيولي ومعي "تسنيم" تساعدني.. فتقوم بإطعام الخيل وتنظفه.. وتقوم بإطعامي أيضاً كأنني إبنها الصغير.. فأجدها تقوم بتسوية طعاماً كالعدس مع الخبز بينما أنا لم يعجبني أي طعام منذ أن هبطت إلى الدنيا.. حتى أحضرت لي تفاحاً وتيناً.. ففرحت لوجود طعام الجنة هنا.. ولكن طعمهم ليس كفاكهة الجنة.. فقامت "تسنيم" بإحضار ما كنت آكله وأشربه في جنتي.. حيث أكلت الزيتون والعسل والسمان وشربت اللبن.. ولكنني عندما تذوقت كل ذلك لم أشعر أن ذلك من الجنة أبداً.. وبينما كنت ألاحظ "تسنيم" وهي تتعب من أجلي أمسكت بذراعها لأوقفها وأشكرها وأجعلها تكف عن فعل أي شيء.. ربت على شعرها وتحسست وجهها فابتسمت لي ولا أنكر أنني في منتهى الوضاعة لتخيلي أنها "سلسبيل".. فكنت ألمسها وأشعر بنعومتها التي كانت أنعم من الحرير..

وجدت ظل رجل يسألني لأبيع له حصاناً مقابل إعطائي جاريته.. وجدتها ترتجف وتنظر لي طالبة الرحمة.. لكنني لا أحتاج أي نساء في حياتي الآن.. ثم وجدت "تسنيم" قد تقدمت لأخذ تلك الجارية حتى تعيش معها مقابل حصاناً يأخذه.. ثم سألته:

- ماذا ستفعل بهذا الحصان؟!

فقال لي مستهزئاً:

- سألتهمه بالطبع.. هل تراني مجنوناً لأركبه مثلك وألهو به!

ثم رمقني بنظرة استحقار وأخذ الحصان يجره بعنف وفي يده زجاجة يشرب منها وكنت أسمع صهيل الحصان كأنه يستنجد بي فنظرت نظرة شفقة.. ثم سألت "تسنيم" عن تلك الزجاجة فقالت:

- إنه يحمل خمراً؟!

فاندهشت قائلاً:

- هل تشربون الخمر هنا؟!

- نعم.. ولكن طعمها رديء وتسكر العقول وتجعل وعيك ليس فيك!

تعبت على هذه الأرض وسعيت لأستطيع أن أجد قوت يومي.. وكان وجود "تسنيم" يهون عليّ ذلك وكانت معنا جاريتنا التي بيعت لنا التي تُسمى "فيروز".. كانت جميلة ورقيقة وتساعدنا في أعمالنا كالتنظيف وإطعام الخيول وكانت تشهد أن هذه أول مرة تجد من يعاملها بلطف.. فكنت أبالغ في لطفي حتى أشبعها مما حُرمت منه ولكن "تسنيم" تتعامل معي كأنها زوجتي والغيرة تقتلها وكنت أراها من خلال نظراتها ومواجهتها لي أحياناً بينما أنا كنت أبرر أنه لا يوجد شيئاً بيني وبينها.. ولماذا أبرر؟! هل قرر قلبي أن يستبدل حبي "لسلسبيل" واضعاً "تسنيم" مكانها.. فما أصعب أن تتغير مكانة شخص بدون أن تعرف كيف حدث ذلك فلعل القلوب يقلبها الله كيف يشاء لحكمة بالغة.. ولكنني لازلت مخلصاً "السلسبيل" حتى وإن خفق قلبي وسمعت دقاته تهمس "بتسنيم".. وقد عرفت معنى الخيانة على هذه الأرض.. فالناس تخون ولا تعبأ بمشاعر أحد.. رغم شعور أن أخون شخصاً يعذب الضمير وشعور أن تتم خيانتي يحطم القلب.. فتلك الحروب التي تحدث داخل أعماق نفسي لم تكن موجودة حينما كنت في جنتي.. فهل هذا عقاب؟! أم هذا تشريف وتكريم للإنسان حتى يثبت الله مسئولية كلٍ منا وجدارته لحمل أمانة السماوات والأرض فنمتن لوجودنا في الجنة ونشعر أننا نستحقها حقاً ونرضى بما في أيدينا.. لا أعرف ولا أريد أن أندم.. فكانت "تسنيم" تجدني أنا و "فيروز" نضحك سوياً حتى جائت في يوم من الأيام وعرفت أنها اختفت من حياتنا وعندما سألتها عن السبب قالت:

- لا أعرف.. يبدو أنها قد أصابها الملل والتعب من عملنا الشاق..

لم أصدقها ولا أعرف هل "تسنيم" أحبتني أم تملكتني؟! انقبض صدري وخفق قلبي.. وعندما لاحظت أنني قد تضايقت وجدتها تقول:

- هل اشتقت إليها؟! هل أنت حزين على فراقها؟! فلتذهب ورائها وابحث عنها هي و "سلسبيل"..

أمسكت جماحي متسائلاً:

- لا.. ولكنني لا أعرف لماذا فعلتِ ذلك؟!

فوجدتها قد توقفت أمامي واقتربت مني وعينيها مغرورقة بالدموع قائلة:

- أنت تعرف جيداً.. ولكنك تنكر كل شيء.. حاولت أن أجعلك تلاحظ من يستحق أن يكون بجانبك ولكنك لا تهتم على الإطلاق..

لم أجد ما أقوله.. فما أسوء شعور أن تجد من يعشقك ولا تبادله المشاعر.. فوجدت أنفاسها تتلاحق وهي مقتربة مني حتى التهمت شفتاي فذبت بين ذراعيها وذقت رحيقها ولم أستطيع أن أقارن بين قبلتها وقبلة "سلسبيل" فلكلٍ منهما مذاقها الخاص.. فتبادلت نظرات العشق بيننا حتى قلت في سري:

- اللهم إني أعوذ بك من العشق!

فقدت الأمل في إيجاد "سلسبيل" وأصبحت تاجراً كبيراً للخيول ومعلماً شهيراً على الأرض بفضل الله وتوفيقه ورحمته.. ولم أكن أعاني فقط معاناة جسدية.. ولكن روحي كانت مستنزفة ودوماً أشعر بأشياء ناقصة..

معاناتي النفسية هي معاناة أهل الأرض الأساسية التي لم نذق ألمها في الجنة.. فمهما أصبحت مشهوراً أو ناجحاً أو لديّ العديد من الأغراض التي قد كسبتها من المقايضة.. فهناك فراغاً بداخلي.. هناك حزناً دفيناً لا أعرف سببه ولم يكن لديّ رفاهية الحزن.. فيجب أن أركض كركض الوحوش.. ورغم أنه متعب.. لكنني على الأقل أشعر بكياني وأهميتي وقيمتي الحقيقية.. ومهما وصلت إلى مكانة ما فلا أجد الراحة التي كنت أتلذذ بها في جنتي.. لعلي أجد بعض السعادة المؤقتة هنا.. ولكن عندما نجد راحتنا فذلك يجعلنا أسعد.. ولكن سعينا وراء السعادة يجعلنا نجري وراء سراباً وسنظل نتعب حتى الموت الذي يظل مجهولاً فكنت أستيقظ في الصباح لأعمل بالنهار وأتاجر وأقوم بتعليم غيري حتى اخترت حصاناً ليصبح ملكي وكنت متردداً بأن أقوم بهذه الخطوة لأنني لن أجد حصاناً يعوض "ياقوت".. فما الذي حدث لي هنا؟! هل سأستبدل "ياقوت" و"سلسبيل".. بالطبع لا.. فلا يوجد من يعوض أحد أبداً.. ولكننا نضطر أحياناً لفعل أشياء تتناقض مع طبيعتنا وفكرنا الذي نتشبث به.. فأخذت ذلك الحصان الأسود، الجامح وسميته.. "عنبر".. وفي آخر الليل عندما ذهبت الناس إلى بيوتها.. اختليت "بتسنيم" قائلاً:

- هل تحبين أن أعلمكِ ركوب الخيل؟!

فابتسمت وأومأت برأسها موافقة.. فأخذتها على حصاني وجعلتها تمسك اللجام وأنا ورائها حتى لا تقع على الأرض وكانت دوماً خائفة من أن تركب الخيل حتى جعلتها تتجرأ على ذلك فوجودي يطمئنها.. ولذلك قمت بتعليمها ركوب الخيل وكان خوفها يضحكني ويضحكها حتى سمعت صوتاً مألوفاً يناديني قائلاً بنبرة ساخرة:

- أريد أن أشتري حصاناً.. فبما تقايضني إذا أعطيتني واحداً.. وإذا قمت بتعليمي أيضاً كما تعلم حبيبتك؟!

- سلسبيل؟!

قلتها بصوت مكتوم ومشتاق بعد أن استدرت و رأيتها أمامي.. فقفزت من على حصاني تاركاً "تسنيم" واقتربت منها.. لكنني توقفت غير مصدقاً وقابلتها بابتسامة ونظرات تكاد أن تلتهمها.. بينما هي تلقتني ببرود فقد رأيت من احترق قلبي شوقاً لها وذابت قدمي بحثاً عنها.. لقد تغير شكلها وحجمها ولكن لازالت روحها التي أعشقها كما هي.. فتلاشت ابتسامتي وانقبض قلبي وارتعدت فرائصي بعد أن رأتني بعينيها خائناً.. فلعل الإنسان يعيش مخلصاً طيلة حياته.. ولكن بسبب لحظة ضعف واحدة يصبح دنيئاً.. فهل إخلاص القلب يشفع حتى وإن كان الفعل نقيضه؟! وهل ضعف الإنسان يبرر شهوته الهائجة وخيانته؟!

-13-

"كيف أخون قلبي؟!"

لم أرى شيئاً سواها وهي تجري أمامي مقهورة مما بدر مني.. فبقيت أنادي عليها حتى تعجب مني القوم من حولي ثم ركضت ورائها وأمسكت بذراعها فتوقفت وتبادلت بيننا النظرات وهي لا تعلم كم اشتقت إليها حتى بعد أن اختلفت هيئتها.. أعترف أنها كانت أجمل بكثير في الجنة.. ولكنني لازلت أحبها.. فاقتربت منها لأضمها بين ذراعيّ.. فاستسلمت قليلاً.. ولكنها دفعتني قائلة بصوت منتحب يشوبه الحدة:

- كيف تجرؤ؟!

- أعرف أنني إذا قلت أي شيء لن تصدقينني ولن تغفري لي..

- لقد رأيتك وهي بين ذراعيك تضحكان سوياً..

- أقسم لكِ أنني كنت أبحث عنكِ في كل أرجاء الأرض..

- وفقدت الأمل.. فاستبدلتني بواحدة أخرى!

قالتها مستنكرة وبسخرية فسألتها متعجباً:

- ولماذا لم تبحثي عني؟! لماذا تركتيني وحدي في الجنة؟!

- لقد بحثت عنك في الجنة ولم أجدك.. فاعتقدت أنك ذهبت إلى الشجرة و رحلت.. فأكلت منها لأبحث عنك!

فصمت وشعرت بالحرج وكتمت دموعي وأنا أرى رعشة يديها وحبس دموعها وأسمع تلاحق أنفاسها المتهدج ثم أمسكت كتفيها برفق مقترباً منها مفتقداً لرائحتها التي كجوز الهند وملمس شعرها الذي كالحرير قائلاً:

- سامحيني.. لا يوجد بيني وبين تسنيم أي شيء.. لقد كنت أقوم بتعليمها الخيل.. ولكن منذ أن هبطت من الشجرة وأنا لم أترك مكاناً إلا وقد بحثت عنكِ فيه وسألت عنكِ كل من أقابله في طريقي.. فأنا أيضاً قمت بالبحث عنكِ في الجنة حتى اعتقدت أنك ذهبت أنتِ.. وخازن.. فلماذا تركتماني؟!

فصمتت ثم أبعدت ذراعيّ واقتربت من أذني متجاهلة سؤالي:

- إذا أردت أن تعرف لماذا خلقك الله في الجنة.. فلعلك وجدت الإجابة.. لأنك لا تستحق سوى الجحيم أيها الخائن!

أخذت قلبي وقامت بتهشيمه أمامي فسمعت صوت تحطمه.. ثم تركتني لترحل.. ولكنني ذهبت ورائها قائلاً بصوت مختنق:

- سلسبيل.. كيف تتركيني بعد كل ذلك؟! فأنتِ آآ...

فتوقفت واستدارت لي حيث قاطعتني بعنف وبعينين جاحظتين:

- أنت الذي بدأت.. فلا تذهب ورائي.. لا أريد أن أكون خاطرة في ذهنك.. فقد محوت زاهر من ذاكرتي للأبد!
فخفق قلبي وانسالت دموعي وأنا أراها ترحل مبتعدة عني وهي تطالبني بنسيان جزء من روحي فكيف يستطيع الإنسان أن ينسى من سكن قلبه؟! وكيف أهون عليها وتتركني أعيش عمري معذباً وشاعراً بذنب لم أقصد أن أقترفه.. فلعل الله هو الذي يعطينا فرصاً لنعود إليه.. ولكن البشر ينتظروا خطأً ليبتعدوا عنا.

ثبت نظري على "سلسبيل" وهي ترحل من أمامي ويختفي أثرها حتى أصبحت كالسراب.. فما أبشع أن ترى أجمل الذكريات مع من تحب تتحطم أمامك وتصبح ركاماً فاختفت غير مصدقاً أنها ستكون آخر مرة ألقاها.. فاستدرت ووجدت "تسنيم" أمامي تنظر لي وهي محرجة ولا تنبس ببنت شفة.. فركعت على الأرض وبكيت في حرقة حتى ضمتني إلى صدرها وأنا أسمع نحيبها.

* * *

وبينما أنا أجلس في الخيمة مع "تسنيم".. كنت أشرد بذهني كثيراً فرأيتها قد أحضرت أرنباً.. فهي لم تكن تحب أن تصطاد شيئاً ولكن ذلك الأرنب قد أخذته مقابل خيل من خيولنا قامت ببيعه.. فذبحته وأدخلت خشبة من خلاله لتقوم بتسويته على النار فتأملت شرار النار وسمعت حسيسها.. بينما هي كانت تتحدث معي في أمور شتى ولكنني لم أكن منصتاً لها حيث أنها تحاول أن تخرجني مما أنا فيه وأنا لا أستطيع الخروج فقد ودعت روحي التي هبطت من أجلها.. وبعد أن انتهت من تسوية الأرنب قامت بتقطيعه بسكين وأخذت قطعة لتأكلها ثم مدت يدها لآكل قطعتي.. ولكنني لم أعرف أن الحزن له علاقة بإسكات صوت الجوع.. فقد شبعت بدون طعام حيث أن حياتي بدونها ليس لها أي طعم.. ثم وجدتها قد وضعت قطعتها بجوارها قائلة:

- لن آكل حتى تأكل معي..

- أرجوكِ لا تفعلي ذلك.. فليس لك ذنب أن تجوعي..

- لا أتحمل رؤيتك وأنت حزين هكذا.. أرغب في فعل أي شيء لأراك مبتسماً كما كنت..

فنظرت لها متأملاً عينيها المغرمة بي وابتسامتها المشرقة بينما كل نظرة منها تجعل قلبي ينفطر ويتقطع ويحترق كهذا الأرنب فقلت لها بصوت مختنق:

- أريد سلسبيل بأي طريقة..

فرأيت ابتسامتها قد تلاشت ونظرت لي نظرة شفقة.. فلم أعرف أن شعور الحب سيتحول إلى ألم لا يشعر به سواي.. فمن سيشعر بخنجر حاد يطعن قلبي بنصله ولا يوجد سوى "سلسبيل" هي التي تستطيع أن تخرجه؟!

لماذا نُعذَّب هنا بالحب؟! لماذا لا نعيش في ود وألفة وسلام كما كنا نعيش في الجنة؟! حتى الفراق في جنتي لم يكن يؤلمني هكذا.. لعلي كنت أشعر أنني أفتقد شيئاً ولكن بدون أن أتألم.. حيث كنت أشتاق فقط ليس أكثر.. لكنني الآن أشعر بشيء يبتر قلبي ونزيف لا يعلم بألمه أحد غيري.. وقد حاولت "تسنيم" إقناعي أن هذا ليس حباً بل تعلقاً لا يعرفه سوى أهل الأرض.. ولكنني لم أصدقها.. فهي تغار من "سلسبيل" ومن حبي لها ويظهر ذلك في عينيها.. وما يؤلمني هي أنها تضع روحها في مقارنة مع توأمة روحي!

هل يُعقل أن نقارن الجنة بالدنيا؟! "فسلسبيل" هي جنتي و"تسنيم" دنياي.

رأيتها خرجت من الخيمة غاضبة فناديت عليها ولكنها لم تستجيب.. فليس لدي الطاقة لأذهب ورائها وتركتها تفعل ما تشاء بينما أنا جالس أتذكر حياتي مع "سلسبيل" في الجنة وقد أصابني الندم لأنني خرجت منها.

وبينما أنا غارق في أفكاري وأحزاني لا أستطيع النوم لاحظت أن "تسنيم" قد غابت ولم تعد فتعجبت وخرجت من الخيمة لأبحث عنها حيث أن الشمس قد اقترب ظهورها.. فلم أجدها بعد أن ناديت عليها وبحثت عنها في كل مكان.. ولم أصدق أنني سأخسر "تسنيم" كما خسرت "سلسبيل".. لماذا الناس تتركني وحيداً؟!

لعل الوحدة أحبتني.. لعلها تعلقت بي كما تتعلق الأم بصغيرها.. الوحدة التي تؤانسني وتشعرني بوجودي.. الوحدة التي تكون معي دوماً ولو كان حولي المئات من الأصدقاء والمقربين.. وحدتي التي أدمنتها وأصبحت شعورا أساسياً وسط المشاعر.. فلولاها لن أعرف قيمة حزني وسعادتي.. ولولاها لن أعرف قيمتي.. لم أحب وحدتي يوماً ولكنها تسللت إلى قلبي ولم تبرح.. حاولت دفعها بشدة ولكن لعلها هي الشيء المخلص في حياتي

فبحثت كثيراً ولم أجدها ولا أعرف أين ذهبت؟! فقدت من أحب وفقدت روحي.. وأصبحت أعيش وحيداً لا أفعل شيئاً سوى أن أذهب لأسعى وأتاجر حتى أجد لقمة عيشي.. وكانت الأيام تتشبه بعضها.. فأنظر إلى السماء وأجد أن القمر قد أوشك على الإكتمال فأتذكر "تسنيم" وأتذكر لحظاتي معها وأتسائل:

لماذا نُقَدّر قيمة من نحب عندما يتركونا؟!

تمضي الأيام ببطء وملل.. وقد تيقنت أن الهبوط على هذه الأرض لعنة.. ليس بسبب التعب أو الشر أو الظلط فقط ولكن بسبب الألم والملل الذي يقتل كل ذرة في جسدي ويجعل رغبتي في الموت أشد.. هل لذلك تتشابه حروف "الألم" مع "الملل".. لأن بالرغم من اختلاف المعنى.. ولكن النتيجة واحدة.. وهي الرغبة في أن أموت أو أنني ميت بالفعل.. ولكن خوفي يمنعني من أن أهدر دمي بيدي دون أن أعرف مصيري.. رغم أنني فعلت ذلك من قبل.. فلماذا الخوف هنا على هذه الأرض مختلف؟! حيث أنه يشل الأطراف ويحبس الأنفاس ويجعلني أتشبث بالحياة رغم تيقني من أنني سأموت في يوم ما لأنتقل إلى مكان لا يعلمه سوى الله فربما ازداد خوفي هنا بسبب ندمي على ما اقترفت.. ولعل قرار انتحاري يجعلني أندم أكثر عندما أجد نفسي في مكان أسوء! فهل يعاقبني الله أم يعطيني فرصة ثانية لأثبت شيئاً لا أعلمه؟!

ذهبت كعادتي إلى مقر عملي في السوق حتى وجدت الإسطبل الخاص بي قد انهار واختفت جميع الخيول ماعدا حصاني الذي معي.. "عنبر".. فغلى الدم في عروقي وانتابني الفزع.. فجريت هنا وهناك لأسأل بقية التجار عما حدث فقيل لي:

- لقد أمر الحاكم أن يحطم الإسطبل ويأخذ كل خيولك على مرأى ومسمع من الجميع..

فسألت غاضباً:

- لماذا أنا؟! ولماذا لم تمنعوهم؟! ولماذا لم يبلغني أحد؟! ومن هذا الحاكم؟!

فوجدت تجاهلاً ولم أجد ردوداً.. فمن أبشع ما وجدت هنا على الأرض.. هو الظلم والشر.. فلا يوجد من يحب الخير للغير.. وإن وجدت من يحب الخير لأحدهم ستكتشف أنه يحتاج شيئاً في المقابل.. حتى أنا.. وحتى نعيش هنا يجب أن نفكر في مصلحتنا أولاً قبل أي شيء.. فنحن إذا اهتمينا بغيرنا سنضيع ونموت ولن نجد قوت يومنا ولا مكان لنومنا.. فالأنانية على هذه الأرض هي الأساس.. وليحترق الجميع!

جلست على الأرض منهاراً لا أعرف ماذا أفعل وأفكر فيمن فعل بي ذلك؟! ياليتني أجد "خازن" صديقي الأمين لأبوح له بكل ما بداخلي.. فوجدت "عنبر" وهو يربت على كتفي.. فما أعجب الحيوان الذي يشعر بي أكثر من الإنسان الذي خُلِق ليطبق مفهوم الإنسانية.. فسرت وأنا هائم على وجهي بدون وجهة.. أحمل هم معيشتي وأفكر في جنتي التي خرجت منها وأرغب في أن أعود إليها مرة ثانية.. لماذا نفعل ذلك بأنفسنا؟! نرغب بشدة في الوصول إلى شيء محدد حيث نعتقد أننا سنجد الراحة والسعادة وسنجد الحقيقة المطلقة فنكتشف أننا ننصب لأنفسنا فخ وحفرة مظلمة تذيقنا آلام الحرمان والندم والفقدان!

وبينما أنا أسير على قدمي وبجواري "عنبر" متجهاً إلى خيمة "تسنيم" التي أصبحت خيمتي الآن ومسكني آملاً في أن أجدها بداخلها لأرتمي بين أحضانها وأعتذر عن تجاهلي ومعاملتي المشينة لها.. فوجدت ثلاثة رجال كل رجل أطول من "عنبر" فارتجفت ثم سألتهم بنبرة خائفة:

- هذه خيمتي؟! ماذا تفعلون هنا؟!

فسمعت ضحكاتهم العالية ثم رأيت رجلاً فيهم جالساً بأريحية على الأرض ينظر لي نظرة ثاقبة:

- إنها ليست خيمتك.. وليس من حقك أن تعرف من نحن.. ولكننا جئنا لنقول لك أنك إذا اخترت أن تعيش على هذه الأرض.. فعليك أن تعرف أن هناك من يحكمها.. وله الحق في أن يأخذ جزءاً من نصيبك بدون اعتراض

- ومن هذا الحاكم؟!

- إنه إله هذه الأرض..

- لا يوجد سوى إلهاً واحداً.. إله الجنة والأرض..

فعدل من جلسته في برود ثم قام ليقترب مني حتى شممت أنفاسه الكريهة التي كادت تجعلني يُغشى عليّ ثم أمسكني من رقبتي فشعرت أن روحي تخرج من جسدي و وجدت بولي قد أغرق الأرض.. فكنت لا أعرف أن الخوف له علاقة بذلك.. ثم طرحني أرضاً فسقطت على رأسي ثم دس وجهي في ماء بولي.. فسعلت وشعرت أنني أريد التقيؤ.. ثم أحسست بألم شديد وتشوشت رؤيتي فركلني بقدمه عدة ركلات هو ورجاله سامعاً ضحكاتهم حتى شعرت أن أنفاسي كادت تنقطع والآلام تنهش جسدي والرمال قد دخلت في فمي فسعلت بصعوبة وشعرت بالإختناق كأن هناك شيئاً يسد حلقي وشعرت بالألم يجتاح رأسي.. ثم حملني الثلاثة رجال وألقوني في عربة يجرها حصان فارتطمت رأسي بالعربة ارتطاماً هز أوتار جسدي ثم لم أدرك ماذا يحدث حولي فشعرت أن شيئاً يسحبني سامعاً حركة العربة بينما عيناي لا ترى سوى ضباباً حتى أُسدلت جفوني وشعرت أنني ريشة تطير في الهواء ليس لها حول ولا قوة يُسَيّرها كما يشاء ومن داخلي أتمنى أن أعود إلى الله لأعتذر له فيرحمني ويعيدني إلى جنتي!

-14-

"أين أنا؟!"

فتحت عيني بصعوبة ولم أشعر بعظامي ولا أعرف أين أنا.. ثم شعرت بألم شديد في رأسي وحاولت أن أعدل نفسي لأستوعب من أنا؟!

وجدت نفسي في قفص من حديد وبجواري أقفاص أخرى بها الكثير من الرجال المسجونين داخل كل قفص في مكان رائحته عفنة.. ضيق ومظلم وبالكاد أرى وجوه وأجساد كل مسجون من خلال ضوء النهار الذي يتخلل من بعض الفجوات في ذلك المكان فتتخلل منها الشمس وأسمع صراخ المساجين ولا أعرف ماذا يحدث؟! من الذي جاء بي إلى هنا.. فكل ما أتذكره هو... لا أعرف!

وضعت يدي على رأسي فوجدت آثار دماءً لزجاً على يدي لكنني لا أنزف.. فوجدت رجلاً ضخماً يدخل من باب خشبي صغير ويضع أمامنا أطباقاً صغيرة بها قمح مطحون وكوب من المياه في كأس من نحاس فقبل أن يخرج ناديته:

- يا سيدي..

فتوقف ونظر تجاهي في ازدراء بدون أن ينبس بكلمة ثم سألته:

- ماذا أفعل هنا؟!

فهز رأسه متعجباً ثم تجاهلني وخرج.. ثم جلست على الأرض التي لا يوجد سواها وأنا أحاول أن أتذكر أي شيء ولكن الألم الذي يجتاح رأسي يشل تفكيري تماماً.. لعله من الجوع الذي بدأ يلتهم معدتي.. فأخذت الطبق لآكل طعامي لكنني لم أتحمل طعمه فشعرت أنني آكل رمالاً.. فمن المستحيل أن يكون هذا طعاماً حتى أعدت طبقي وأمسكت معدتي لأسد جوعي ونظرت من خلال الفجوة التي أمامي في تلك الغرفة حتى سمعت ضحكة رجل بجواري فتعجبت منه:

- علام تضحك؟!

- هل هذه أول مرة لك؟!

فاقتضب جبيني حيث أنني لا أفهم إلى ما يرمي إليه ثم سألني:

- كيف جئت إلى هنا؟!

فشعرت أن هناك أملاً لأعرف أي شيء فقلت:

- لا أعرف.. لا أستطيع تذكر أي شيء.. هل تعرف ما الذي جاء بنا إلى هنا؟!

- هل تتذكر اسمك أم لا؟!

فأومأت برأسي في حسرة ثم قلت:

- لا أستطيع تذكر أي شيء.. لكنني أشعر أن هناك أحداثاً كثيرة، عشوائية تدور في ذهني ليس لها علاقة ببعضها وصوراً تطرأ عليّ غير واضحة.. ولا أستطيع أن أتذكر أين كنت وكيف أتيت!

فنظر لي ذلك الرجل متأزماً ثم قال:

- هنا يطلقون علينا الأسماء التي يبغونها.. فكان لديّ العديد من الأسماء.. مصعب وسلطان وعنبر..

فقاطعته:

- أتذكر ذلك الإسم.. عنبر.. ولكن من يكون؟! لا أتذكر شيئاً على الإطلاق.. هناك أشياء وأشخاص أحاول تذكر أسمائهم و وجوههم.. لكنني لا أستطيع.. عقلي يرفض تذكيري بأي شيء.. ومهما حاولت أن أستعيد ذكرياتي فرؤيتي للماضي تكاد تكون مظلمة!

- لعلك أنت لا تريد..

- كيف ذلك؟!

- هناك أشياء لا نريد أن نتذكرها لأنها تُشعرنا بألم عظيم.. فنجدها قد مُحيت من تلقاء نفسها.. وهناك أشياء لا نريد أن ننساها فتلتصق في ذاكرتنا للأبد.. ولكن في بعض الأوقات نحاول نسيان ما يؤلمنا.. فيصر على البقاء في ذاكرتنا لأننا في الحقيقة لا نريد أن ننساه.. حيث أن في اعتقادنا.. الذي يعطي لحياتنا معنى.. هو ذلك الألم!

فقلت له غير مقتنعاً بكلامه:

- ولكنني أريد أن أتذكر كل شيء الآن..

- عقلك هو خادمك.. يفعل ما تريد.. ولكن هل تعرف حقاً ماذا تريد؟!

- أنا أعرف جيداً ماذا أريد.. فأنا آآآ..

صمت ولم أكمل.. ثم قال لي مبتسماً:

- إذا اعتقدت أنك تريد تذكر كل شيء.. فعقلك يعرف ما يدور بداخلك أكثر منك ويعرف إذا كنت تكذب أم لا!

لعلي أكذب على نفسي.. هل أنا حقاً أريد أن أتذكر كل شيء؟! أم لا أريد؟! هل عقلي يمنعني ويحميني من الألم؟! لكنني أتعذب بسبب ذلك.. كأن روحي تخفي أسراراً عن نفسي ولا تريد أن تخبرني بأشياء تخصني.. وهل إذا تذكرت سأرتاح أم سأندم؟! ولماذا لا أستطيع أن أتذكر ما حدث لي ولا أستطيع أن أتذكر أي شخص أعرفه أو أي إسم بسهولة.. حتى إسمي! لعلي لا أريد أن أكون موجوداً.. فلا يوجد الآن سوى هذه اللحظة فقط هي التي أتذكرها.. فحدثت نفسي قليلاً ولكن كان صوتي عالياً فانقطع حبل أفكاري مع ضحكة ذلك الرجل ذو الأسماء المتعددة وأنا أنظر له متعجباً فقال لي:

- يالك من محظوظ أنك لا تتذكر سوى اللحظة الحالية.. فما يعذبنا في هذه الدنيا هي التفكير في الماضي والمستقبل أيها التائه، المجهول..

ثم حكى لي عن أيامنا في الجنة وهبوطنا إلى الأرض بعد أن أكلنا من الشجرة بينما كنت أتسائل كيف نكون بهذا الغباء عندما يرزقنا الله نعيماً فنرفضه ونلهث وراء فضولنا لنأكل من شجرة واحدة ونتجاهل آلاف الأشجار حتى نرضي ذلك الفضول ونرضي ذلك الشك أيضاً الذي كان يوهمنا بأن هناك أجمل من الجنة ينتظرنا ثم سألته سؤالاً يلح عليّ:

- أين نحن الآن؟!

فقال لي هامساً:

- نحن في سوق العبيد.. فأنت عبد وأنا عبد وسنظل في هذا السجن حتى يأتي شخصاً ذو سلطة وجاه وثراء ليشتري عبداً فيصير خادماً له.. وإذا استغنى عنه أو استبدله بعبد آخر.. يعود إلى سجنه كما أعود في كل مرة

- ولكن الله قد خلقنا مكرمين وأحرار.. فكيف نصير عبيداً لأشخاص آخرين ونخدمهم؟!

فنظر لي متعجباً:

- كيف تنسى كل شيء ولا تتذكر سوى إلهك؟!

- لا أعرف.. ربما فقدت عقلي.. ولكن ذلك هو صوت قلبي وإيماني الذي يشعرني بوجود الله ويجعلني أتذكره وأراه في حركة يدي وأنفاسي.. وأراه في أفكاري وحدسي وفي روحه التي نفخها بداخلي.. فلا أتذكر سواه!

- هل تؤمن بإلهك حقاً؟!

فنظرت له متعجباً:

- كيف لا تؤمن به وقد خلقك وخلق هذه الأرض وخلق الجنة أيضاً..

- أنا كنت أؤمن به.. ولكنني لم أراه.. و وجدت نفسي أتعذب هنا على الأرض.. فشعرت أن ذلك الإيمان درب من الخيال والأحلام..

- ألا ترى أن خيالاتك وأحلامك أشياء تستحق التأمل؟!

- إذن أخبرني لماذا نسي خلقه؟! ولماذا تمتلىء الأرض بالظلم والفساد؟!

- الله لا ينسانا وهو معنا أينما كنا.. والإنسان هو المُلام!

- ألا أؤمن بإله يغضب ويعاقب خلقه.. أفضل من أن أؤمن بإله يعذبني وأعيش في فزع منه!

- عقلك يرفض الإيمان به ويصور لنفسك أن ربك بالمرصاد لك..

- أنا لم أراه.. فأعطني دليلاً على وجوده!

- وما الدليل لوجود عقلك الذي لا تراه ولا تلمسه؟! ولماذا تؤمن بقلبك ومشاعرك وإحساسك؟! وكيف تؤمن بأحلامك وخيالك وأنت لم تراهما؟ فنحن نرى الحلم ولا نستطيع لمسه أو فهمه ولا نرى الهواء ونؤمن بوجوده

نظر لي نظرة استنكارية ثم زفر في ضيق فأكملت:

- لقد فقدت الذاكرة ولا أتذكر شيئاً سوى إلهي.. فهو بداخلنا.. وأنت تؤمن به.. لكنك لا تفهم حكمته فغضبك أسكت إيمانك وجعل عقلك يصيح ويُصاب بالغرور والعنجهية.

- أعرف أنه لا يوجد لديّ دليلاً كافياً لأثبت أنه موجود أم لا.. لكنه تركني وحدي وأنا عبده.. فكيف يشتريني سيد من الأثرياء ويرحمني.. بينما الله الذي خلقني يتجاهلني هكذا؟!

رأيت الدموع تسقط من عينيه فقلت:

- الله قادر على أن ينتشلنا مما نحن فيه.. لكننا تمردنا ونحن خلفاؤه في الأرض.. نحن الإثبات لوجوده وهو يريد أن يرانا نعمر الأرض.. فلماذا ننتظر شيئاً من الحياة بينما الحياة هي التي تنتظر منا أن نفعل شيئاً؟!

- من أين أتيت بكل هذه الحكمة رغم أنك قد فقدت ذاكرتك؟!

- لا أعرف.. ربما تحررت من عقلي المنطقي قليلاً فلم يتبقى سوى روحانيتي.. ولعل روح الله التي تسكنني هي من تتحدث معك الآن.. فلماذا لم أنسى الكلام؟! لعلنا لا نستحق الجنة من البداية! وإذا كنا قد خرجنا منها بإرادتنا فربما يريدنا أن نتحمل المسئولية قليلاً فيختبرنا..

- لا يوجد شيء بإرادتنا.. هذه هي إرادة الله.. وهو يريد أن يعذبنا..

- ولكنه لن يستفيد أي شيء.. ما يفعل الله بعذابنا إن شكرنا وآمننا؟! فهو إله غني عن العالمين.. فكيف ستتعلم القوة والمسئولية إذا لم يضعك الله في اختبار الضعف والوحدة؟! فلا يوجد شيء يسمى سوق للعبيد والأولى أن تغضب من أولئك البشر الفاسدين الذي يظلمون أنفسهم ويظلموننا باستعبادنا لهم.

فقال لي بصوت خافت ومذعور:

- إياك أن تقول ذلك أمام سيدك.. فمعظهم تمردوا على الله ولا يؤمنون به.. فلا تحكم على نفسك بالهلاك.. حتى لا يقتلوك أمام العامة!

ابتلعت رمقي وتلاحقت أنفاسي وشعرت بالخوف يسري في جسدي.. ثم طرأ على ذهني سؤال:

- ولماذا يعيدوك إلى السجن في كل مرة؟!

- مراد سيدي.. فأنا عبده ويحق له أن يفعل بي ما يشاء..

- هذه إهانة لا نستحقها.. يجب أن نهرب!

فضحك ساخراً:

- أراك الآن في خيالي وهم يقتلوك..

ثم دخل رجالاً ضخام يفتحون الأقفاص ويربطوننا بسلاسل من حديد فيربطوا أقدامنا ببعض وأيدينا أيضاً ثم يجعلوننا نصطف صفاً واحداً ثم يقوموا بجرنا إلى الخارج بينما أنا أتعجب مما يحدث وبدأت أشك أنني قد خرجت من الجنة بإرادتي لأصادف ذلك العذاب المهين.

* * *

أقف في صحراء جرداء وبجواري المساجين أو العبيد كما يُقال.. ولم يعد أمامي شيء سوى الإستسلام للأمر الواقع حتى لا أودي بنفسي إلى التهلكة.. وأمامي رجلاً مهيباً مرتدياً ثوب من الحرير يمر أمامنا ويتفحص وجوهنا وأجسادنا وحتى عوراتنا.. أكبح دموعي حتى لا تسقط فيظهر ضعفي وانكساري وبداخلي أستغيث بإلهي الذي لا أستطيع تذكر أحد غيره مستسلماً لحكمته وراضياً بخطته.. فلعله يريدني أن أصبح خلقاً آخر وأفضل مما كنت عليه ولذلك جعلني أفقد هويتي وأنسى حياتي السابقة.

اقترب مني ذلك الرجل وحوله الحراس فانتابته الدهشة.. ثم شاور لحارس من الحراس وسأله سؤالاً بصوت منخفض لم أسمعه.. فهمس له في أذنه حتى ابتسم لي وأومأ برأسه.. فدنا مني أكثر.. ثم سألني:

- ما اسمك؟

فقلت متردداً في خوف:

- لا أتذكر شيئاً..

فاستدار إلى رجاله حتى تقدم الحارس قائلاً:

- كنا نحمله إلى هنا لكنه حاول أن يقاوم.. فسقط أرضاً وأغشي عليه.

نظرت إلى ذلك الحارس في غيظ فنظر لي سيده مبتسماً:

- أريد هذا الشاب.. وسأفكر له في إسم لن ينساه أبداً!

فقام الرجال بفك وثاقي فرأيت من يحقد عليّ من المساجين وهناك من لا يهتم بشيء حوله وهناك من يفرح لي كالرجل ذو الأسماء المتعددة ثم رأيت بعض الرجال يمشون ورائهم كالرعاة والأغنام حتى يعيدوهم إلى السجن وقبل عودتهم سيُعرضون على بعض التجار والأغنياء كسلع رخيصة ليشتروهم بثمن بخس.. بينما أنا يسير معي رجلين يمسكونني من ذراعي وأمامي يركب ذلك الرجل الثري الذي أخذني على حصانه فسألت حارساً من الحراس بحذر:

- إلى أين ستأخذونني؟!

- ألاحظ أنك تسأل كثيراً أيها العبد.. فكثرة السؤال تحرمك من النوال.. وستصحبك إلى الهلاك!

- أجبني كي أرتاح.. أرجوك..

فنظر لي الرجل في شفقة فرأى مفاصلي ترتعد.. ثم قال لي:

- لقد تم اختيارك لتذهب إلى بيت الحاكم فيراك.. وإذا لم تعجبه.. سنعيدك إلى السجن.. ثم نعيد الكرة.

فأكملت طريقي مجبراً وأنا أجاهد لأستعيد ذاكرتي فرأيت جواري يسيرون من على بُعد تتقدمهم سيدة فقد أكرمنا الله واخترنا الإهانة وتركنا البشر يتحكمون بنا كبضاعة ليس لها قيمة تُباع وتُشترى دون أي وجه حق!

-15-

"خادم القوم.. ليس سيدهم"

أنظر حولي وأرى بيت واسع به جدران وسقف عال وكنت أتعجب لماذا هناك تفرقة بين الخلق فهناك مساجين وبشر يسكنون في خيام بالصحراء بينما يقبع هنا بيوتاً من طوب كأنها خُلقت لمن يحكمنا فقط!
حاولت أن أجعل رأسي ترتطم بأي شيء حتى أتذكر ما مر بي لكن دون جدوى.. أشعر أنني لم أُخلق لأكون عبداً أو خادماً.. فعندما أصبحت هنا لم أجد سوى الإهانة فأقوم بتنظيف المكان وتسوية الطعام وخدمة الحاكم وتعجبت من أنه يأكل طعاماً يبدو شهياً كالسمك والدجاج واللحم بينما أنا أتناول الفول والقمح والشعير..
لماذا كل هذا الذل يا إلهي؟! ماذا فعلت لأنول ذلك؟! فإن أخطئت سامحني وإن لم أخطىء فاجعلني أستوعب حكمتك.. يمر الزمان ثقيلاً وأنا أقوم بخدمة ذلك الحاكم الغليظ الذي ينظر لي شزراً على الدوام وعينيه خضراوتان وملامحه حادة ولا يفعل شيء سوى الطعام والشراب.. وكان يسرف في شرب النبيذ حتى يفقد عقله ثم يأتي له نائبه الذي اختارني لأكون في هذا البيت ليجعله يختار الجارية التي تعجبه فيقضي معها ليلته ثم يدخل لينام معها على ريش النعام الذي يتكىء عليه طوال الوقت بينما أنا نصيبي من هذا البيت هي أرض صلبة، جرداء تجعلني أستيقظ على آلام شديدة في عظامي.. أنام على صوت تأوهه مع الجواري وأستيقظ على صوته وهو يناديني بنبرة يشوبها الحدة:

- يا أيها العبد..

أذهب مهرولاً تاركاً أحلامي فأركع له كما علمني:

- سيدي..

- أريد أن أقترح عليك اسماً لأناديك به..

كان بجواره نائبه ينظر لي نظرة جامدة فسألني الحاكم:

- لقد سأل رجالي عنك وعرفت أن اسمك زاهر.. ولكنك بعد أن فقدت ذاكرتك أصبحت بدون إسم.. فما رأيك أن أناديك بإسم خطر على ذهني.. سأسمِك.. مجهول..

فضحك هو ونائبه وضحك الحراس حوله بينما أنا أنظر له بطرف عيني في غيظ وأكبح جماحي قائلاً:

- كما تحب يا مولاي..

فتوقف الحاكم ممسكاً بصولجان من ذهب.. ثم اقترب مني وأمسك بوجهي.. فشعرت بيده الخشنة حتى جعل وجهي يقترب من أنفاسه الكريهة المعبئة برائحة النبيذ:

- أحب أن أراك تُقَبِل قدمي.. وتسجد لي..

فارتعدت خائفاً ورأيت نائبه مبتسماً فكبحت زمامي وكادت الدموع أن تهبط من جفوني لكن كرامتي قد أمسكتها فسألته:

- لماذا يا سيدي؟!

- أنا أمقت الأسئلة.. ولكنني سأجيبك..

فاقترب من أذني هامساً:

- لأنني أتلذذ بذلك..

فنظر لي نظرة حاقدة ممتلئة بالغيظ مبتسماً نصف ابتسامة.. ثم قلت بصوت مكتوم وأنا أخفي رجفتي:

- وإذا رفضت؟!

فتلاشت ابتسامته وتبادلت النظرات بينه وبين نائبه.. ثم رفع صولجانه ولكزني به فارتطم جسدي بالأرض ثم شاور بإصبعه فوجدت حولي الحراس يركلونني في كل مكان فأصرخ مستغيثاً وأنا أسمع ضحكاته حتى تمنيت أن أموت سريعاً لأرتاح من الألم.. ثم توقف كل شيء فوجدت صوت أقدام سريعة على البلاط الملكي يليه صوت نسائي.. فحاولت أن أنظر أو أسمع ولكن كل شيء كان مشوشاً فتتحرك الأقدام وتتكلم الأفواه بينما أنا كالكلب الذي يلهث على قارعة الطريق!

وجدت شيئاً يجرني ثم تم إلقائي في غرفة مظلمة لكن بها ضوء خافت لا أعرف مصدره.. لم أشعر بشيء لكنني أشعر أن ذاكرتي تحاول جاهدة لتعود إليّ لكن لازال هناك عقماً في عقلي لا يرغب في أن يلد لي ذاكرة ثم وجدت شخصاً دخل الغرفة متسللاً وحاول إفاقتي ويظهر أنه نفس الصوت النسائي الذي سمعته فهمست لي ممسكة بوجهي:

- زاهر.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

حاولت أن أدقق في وجهها فرأيتها امرأة جميلة وشعرت أنني أعرفها لكنني لا أتذكرها فقلت لها:

- هل تعرفينني؟!

- هل نسيتني؟!

- عذراً.. لكنني فقدت ذاكرتي ونسيت كل شيء.. حتى هويتي!

فحاولت تذكيري ببعض الأشياء سريعاً قبل أن يدخل علينا الحاكم أو نائبه.. ثم سألتها:

- كيف دخلتِ إلى هنا؟!

- المرأة هنا لديها وسائلها الخاصة..

ثم سمعت الحارس يقوم بتأدية التحية فنادى بصوت عالٍ:

- تحية وسلام يا سيدي..

ففتح له الحارس الباب فرأيت النائب وهو ينظر لي مبتسماً نصف ابتسامة ثم تجول بنظره ليتأكد أنه لا يوجد أي أحد ثم خرج مرة ثانية.. فظهرت تلك المرأة الجميلة بعد أن كانت مختبئة في برميل كبير قائلة لي:

- لا يوجد وقت.. عليّ الذهاب من هنا على الفور قبل أن يقتلني الحاكم أو نائبه.

- أرجوكِ لا ترحلي.. لا أعرف أحداً هنا سواكِ..

ثم بكيت فأخذتني بين ذراعيها قائلة:

- سآتي إليك مرة ثانية

- أريد أن أهرب من هنا.. لكنني لا أعرف أين أذهب!

- الوسيلة الوحيدة للهرب من هنا هي أن تقطع طرف من أطرافك ليلقوك خارج هذا البيت..

- ياله من شيء عسير.. كيف أتحمل ذلك؟!

فأومئت برأسها مشفقة:

- لقد تحملت أكثر من ذلك!

وقبل أن تهم بالرحيل أمسكت ذراعها سائلاً:

- لم أعرف من أنتِ.. وما اسمكِ؟!

- أنا تسنيم.. حبيبتك التي كنت معها في الجنة وهبطنا سوياً.. وكنت أبحث عنك طويلاً.. سأحكي لك لاحقاً..

فأومئت برأسي ممتناً ثم خرجت في حذر وأغلقت الباب كما أُغلقت الدنيا في وجهي.

لعل قدري أن أكون نسمة الهواء التي تحتوي من حولي ولكن.. هل للهواء شيء يُشعره بوجوده؟! فمن يُربت على كتف غيره.. لا يجد من يُربت على كتفه.. وكأنه خُلق ليكون العضد الذي يظنه الناس أنه لا يحتاج لأحد! فما أقسى الحياة التي لا تعطي للإنسان ما يريد.. فيظل تائهاً كطفل رضيع يشحذ حفنة مشاعر صادقة لا يجدها عند أحد.. لكنه يعطيها لكل إنسان يقابله ويسعد بذلك.. ثم يرغب في النوم للأبد.

* * *

رأيت رجلاً يقترب مني و وجهه مألوف فشعرت برجفة تحتل جسدي فقال لي:

- كما خرجت من الجنة.. اخرج من هذا البيت..

- من أنت؟!

- أنا سهيل.. لن تتذكرني الآن.. ولكن ذاكرتك ستعود عندما تكون مستعداً للمواجهة..

- أي مواجهة؟! ولماذا أنا هنا؟!

فرحل "سهيل" فناديت عليه ولم يرد حتى استيقظت من نومي.. فقمت متعجباً من أنني لم أسمع صوت سيدي فخرجت من الغرفة ولم أجد أحداً.. ثم نظرت حولي فسمعت بكاءً ينبعث من غرفة الحاكم فاقتربت قليلاً حتى وجدت الحراس يلتفون حول الحاكم و رأيت نائبه يبكي بكاءً مريراً.. فاقتربت في حذر حتى دنوت منه و وجدته مثيراً للشفقة.. ما أضعف الإنسان.. يعيش ليصيح ويبطش وفجأة يصبح لا حول له ولا قوة كغبار نزيحه بأيدينا فيطير ويندثر أثره.

وجدت الحاكم كجثة هامدة وبجواره يبكي نائبه فحاولت أن أقرب يدي على رأسه فأمسك النائب بيدي:

- ما الذي ستفعله؟! إنه لا يستيقظ.. لقد مات!

- سأحاول أن أدعو الله أن يشفيه.. أشعر أنه لم يمت..

- وما الذي يدريك؟!

- لقد تذكرت أنني كنت تاجراً للخيول.. وكنت أداويها..

فنظر لي نظرة متعجبة ثم ترك يدي.. فوضعتها على رأسه وأغمضت عيني وتمتمت بشفتاي ودعوت الله أن يشفيه ويعيد له صحته لعله يشفع لي ويخرجني من هذا المكان.. فصرخ صرخة مدوية ثم تلاحقت أنفاسه واستيقظ فبكى نائبه فرحاً في أحضانه وتذكرت بعض الأحداث التي تلتها لي "تسنيم" ثم وجدت الحراس ينظرون لي في دهشة وخوف.. ثم رحلت لأكمل عملي الممل وأقوم بتحضير الطعام للحاكم وحاشيته فدخل ورائي نائب الحاكم الذي عرفت أنه ولده فشكرني متسائلاً:

- كيف فعلت ذلك؟! هل أنت ساحر؟!

فقلت له ناظراً في الأرض:

- فعلتها بروح الله وكلمته.. وذلك السحر هو إيماني الذي يكمن في إرادة ربي الذي خلقني ويقيني بقدرته..

صمت وهز رأسه فأكملت عملي ولاحظت نظراته المتعجبة التي تفحصتني.. ثم سمعت خطواته تغادر المكان ليطمئن على والده.

كنت أعتقد أن ذاكرتي قد عادت إليّ لكنني أوشكت على الجنون وأصبحت أتخيل واقعاً ينسجه عقلي لا يمت للحقيقة بصلة. نظرت على إصبعي وتذكرت كلام "تسنيم" فرفعت السكين فوق إصبعي وتلاحقت أنفاسي وأنا أتخيل إصبعي مقطوعاً والدم ينزف منه والألم يكاد لا يطاق.

اقترب السكين من إصبعي ثم رفعته مرة أخرى وأغمضت عيني وارتطمت أسناني ببعضها.. فحاولت أن أتخيل وأنا حر طليق.. لكن هل سأجد مكاناً يؤيني؟! لا أعرف.. فهممت لأقطع إصبعي.. ولكن ماذا لو رفضوا أن يجعلوني أخرج من هذا المكان.. ثم سمعت الحاكم يصرخ في كل مكان ويحاول ولده تهدئته فحاولت أن أقترب قليلاً لأنصت ما الذي يدور بينهما:

- هذا الساحر لابد أن يخرج الآن..

سمعته يصرخ عالياً فعرفت أنه يتكلم عني.. ثم سمعت ولده:

- اهدأ يا أبي.. لقد كان سبباً في شفائك..

- إنه ملعون.. أخرجوه من هنا..

- يا أبي آآآ...

- لا أريد أن أرى ذلك العبد.. إنه ليس له أمان.. وكما كان السبب في شفائي.. لعله يكون سبب موتي!

- لا تخاف منه.. إنه لا يستطيع أذيتك..

لم أفهم شيئاً مما دار بينهما.. ارتعدت فرائصي وأنا لا أعرف مصيري.. ثم وجدت الحراس يحملوني ليلفظوني خارج البيت فركضت خوفاً بدون وجهة كالطفل التائه وابتعدت عن ذلك البيت حتى وجدت "تسنيم" على حصان أسود تقترب مني فحاولت الإقتراب منها لكنني لم أشعر بنفسي وأنا أسقط على الأرض حتى اعتاد جسدي على السقوط وارتطمت رأسي بالأرض لعل ذاكرتي تحفر ما تبقى منها لكنها ترى أنه لا شيء يستحق أن يُذكر.

استفقت على صوت "تسنيم" وأنا أتذكر قصصها وتحكي لي كل شيء.. ولم أصدق أنني كنت في بيت صديقي "خازن" و والده "مأمون".. فهل أصدق كلامها؟! فقد تذكرت بعض الأشياء.. تذكرت بعض الأسماء والوجوه بدون أن أعرف علاقتهم ببعض.. فقد عادت لي نصف ذاكرتي.. فعرفت أنني "زاهر" وعرفت "خازن" وعرفت "مأمون".. عرفت "تسنيم" و"سهيل".. وعرفت "عنبر" حصاني التي كانت "تسنيم" تركب على ظهره حيث أن هؤلاء كالصور في خيالي لا أتذكر علاقتنا ببعض.. فجلست أمام "تسنيم" وهي تحكي لي ما رويته لها قبل فقدان ذاكرتي.. فكنت مستمتعاً بما تقوله.. لكن هناك غصة في صدري عندما تحكي لي عن قصة حبنا.. هل هي صادقة أم كاذبة؟! فسألتها:

- إذا كان فضولي قد ساقني لآكل من الشجرة.. فلماذا هبطتِ معي؟!

فتعجبت قائلة:

- لأنني حبيبتك.. لا أستطيع أن أفارقك.. قد أضحي بالجنة ونعيمها ولا أتركك أبداً

فنظرت لها نظرات شك حيث أن ذاكرتي مشوشة وأشعر أنني هبطت وحدي فقلت:

- وما الذي حدث بعد هبوطي؟

فترددت قليلاً ثم قالت:

- عندما هبطنا سوياً.. اختطفوني.. فبحثت عني طويلاً حتى اختطفوك أيضاً وتقابلنا في النهاية..

- وقبل أن يختطفوني ماذا حدث؟!

- لقد قابلت امرأة قامت بمساعدتك.. ثم اختفت!

- ما اسمها؟!

فرأيت التوتر في عينيها فقالت مترددة وخائفة:

- سلسبيل..

فانقبض صدري وسمعت دقات قلبي تتسارع وشعرت أنني أعرف هذا الإسم جيداً وأجاهد لأتذكرها ولكن ذاكرتي تقاوم حتى لا تذكرني بها لا أعرف لماذا؟!

- إذن يجب أن أبحث عن سلسبيل.. هل يمكنك مساعدتي لأعثر عليها؟!

قلتها متوسلاً فنظرت لي "تسنيم" نظرة يشوبها الدهشة والغيظ ولم أفهم نظرتها لكنني أشك في صحة كلامها ولا أعرف لماذا تكذب؟! وإن كانت صادقة.. فهناك بعض الأشياء الغير منطقية في قصتها.

تعود ذاكرتي تدريجياً وكلما أحاول إسعاد "تسنيم" بهذا الخبر ينتابها الخوف لا أعرف لماذا؟! ثم وجدتها تخبرني بأن "خازن" سيصبح الحاكم بدلاً من "مأمون".

- وأين سيذهب ذلك المأمون؟!

سألتها فهزت كتفيها بلامبالاة.. لكنني فهمت أنه رأى أن ابنه "خازن" يصلح ليكون حاكماً الآن حيث أن "مأمون" قد أصابه الإنهاك والتعب ويرغب في أن ينغمس أكثر في شهواته ونزواته ونبيذه ودنياه الفانية.. ولكن هل سيبحث "خازن" عني لأصبح عبده؟! أم سيمتنّ لي لأنني أنقذت والده فيجعلني نائبه؟! أم هل هناك أمل لنعود أصدقاء؟! فنظرت "لتسنيم" قائلاً لها مبتسماً:

- سأعود قريباً لبيت الحاكم لأعمل لدى خازن.. ولكنني سأعود في صورة أخرى.. وسأعرف الحقيقة كاملة!

فشعرت بخوف "تسنيم" الذي لا أفهمه.. ونظرت لي متعجبة حيث يبدو عليها أنها لم تفهم ما الذي أرمي إليه.

-16-

"المبروك"

استعدت جزءاً من ذاكرتي وعرفت أنني كنت في نعيم الجنة فقررت أن أنساق لفضولي وأقترب من الشجرة المحرمة وكما حكت لي "تسنيم" أنها كانت حبيبتي وقرة عيني فهبطنا سوياً وتركنا "خازن" وحده ثم هبطت وقابلت "سلسبيل" التي ساعدتني لأجد ضالتي حتى تم اختطافي ولكن ذاكرتي أبت أن تكون في رفقتي فبعد أن تم طردي أردت أن أعود إلى بيت الحاكم "مأمون" لأنني لم أجد مأوى ولأعرف حقيقة ما ألم بي وبسبب أنني أشك في "تسنيم" لا أعرف لماذا؟! فأين اختفت المرأة التي تسمى "سلسبيل" ولماذا لم تحكي لي عنها؟! فلدي شعوراً غريباً أن "تسنيم" تخبىء شيئاً.. فعندما أخبرتها أنني سأبحث عن "سلسبيل" لأشكرها انتابها الذعر وتجهمت وبدا عليها الضيق.. فهناك شيئاً ما سأعرفه عاجلاً أو آجلاً.. وسأعود إلى "مأمون" و"خازن" قريباً لأستعيد كرامتي التي أهينت وتعثرت.

ذيع صيتي في المنطقة بعد أن كنت سبباً في شفاء "مأمون" وأصبح اسمي "زاهر المبروك".. فكنت أقوم بمعالجة العديد من المرضى ولم أفعل شيء سوى أن أضع يدي على رأس المريض وأتمتم بدعوات فتصل إلى إلهي وتحل بركتي على كل شخص يشعر بألم ما.. ولكن عندما يموت شخصاً تبقى حقيقة غامضة لا يستطيع الشفاء منها.. فأخبر أهل الميت أن الله أراد استعادة روحه فقد انتهت رسالته على هذه الأرض حتى أصابني بعض الكبر والغرور بعد أن رأيت من يقدسني كأنني إله يُعبَد.. ولكنني أستفيق مرة ثانية وأدرك حجمي وقدر نفسي.. وبينما أهل المدينة بأكملها أصبحت تعرفني عن ظهر قلب وأرى "تسنيم" وهي تغار عليّ من النساء التي ألقاهن وتفتقد وجودي بجانبها.. كنت أخبرها بأهمية رسالتي حيث أنني فقدت ذاكرتي لأتصل مع روحي فينام منطق عقلي قليلاً ليحيا قلبي.. فيجدني خالقي قد أصبح روحانياً فيقربني إليه فتهدأ "تسنيم" عندما تجد أنني لم أتعلق بنساء غيرها ولا يهمها سوى ذلك الأمر.

كنت أصول وأجول بحصاني "عنبر" لأداوي مرضاي.. كنت أفعل ذلك بدون مقابل ولكنني احتجت طعاماً وحاجيات لمعيشتي.. فأصبحت أتعامل بالمقايضة.. حيث أدخل بيوتاً وخياماً لبشر حتى أشفي مريضهم فيعطونني أغراضاً أو خيولاً أو ذهباً.. فأعود إلى حبيبتي "تسنيم" لنأكل سوياً ثم أعاشرها وننام حيث اشتريت بيتاً صغيراً بدلاً من خيمتنا المهرتئة لنسكن فيه حتى وجدت في يوم من الأيام حراس "خازن" يطلبونني في أمر جلل ولم يخبرونني ما الأمر فنظرت إلى "تسنيم" نظرة اطمئنان فظهر عليها التوتر وركضت ناحيتي لتعانقني وتحتويني بذراعيها الرقيقتين فأمسكت خصرها ونظرت في عينيها فتكلمت أعيننا وقبلت رأسها ممسكاً بوجهها الأملس.. ثم ذهبت معهم وتذكرت يوم أن قاموا بإهانتي.. ولكن هل اليوم سيمسوني بسوء؟!

* * *

دخلت بيت الحاكم "مأمون" االذي أصبح بيت "خازن" فشممت رائحة مسك وعنبر مألوفة ونظرت حولي فرأيت حارس من الحراس يقول:

- زوجة سيدي أصابها التعب والإنهاك فطلب أن تأتي معنا لتعالجها بيدك المبروكة..

ثم أشار لي على غرفة "خازن" وتركني ورحل.. فابتسمت بثقة وامتلأ صدري حبوراً.. ثم اقتربت من باب الغرفة فسمعت همهمات ونحيب فحاولت أن أسمع أي شيء لكن الكلام كان غير واضح..

ثم حاولت أن أقترب من الباب الذي كان مواربأً فرأيت "خازن" وهو يبكي حتى سمعت صوته وصوت زوجته فاعتدلت في جلستها قليلاً حتى شعرت أن الدم غلى في عروقي عندما رأيت "خازن" يقبلها.

"خازن" يقبل "سلسبيل".. إنها "سلسبيل".. اهتز شغاف قلبي واستشعرت نزيفه كأن حجراً أُطبق على صدري الذي انقبض قبضة جعلت أنفاسي تتلاحق فتذكرت حياتي التي مرت من أمامي سريعاً.. "فسلسبيل" هي جُل حياتي.. كيف نسيتها؟! ولماذا تذكرتها الآن؟! لقد أبت ذاكرتي أن تتذكر ألمي ولكن عندما رأيته متجسداً أمامي تذكرت كل شيء.. فهي الألم الذي كان يستحق أن أخرج من الجنة.. كيف تفعل بي هذا؟! "خازن" صديقي و"سلسبيل" حبيبتي!

لقد كذبت "تسنيم" ولا أستطيع مسامحتها.. ولكن غضبي من "خازن" و"سلسبيل" أجلّ وأعظم.. كيف عادت ذاكرتي هكذا؟! هل لأنني رأيتها؟! رأيت من سكنت الجنة لأجلها وهبطت لأجلها؟! هل ذاكرتي كانت تحتاج إلى أن تراها فقط ليس أكثر؟! ولماذا كانت تحاول طيلة هذا الوقت أن تخبئها عني؟! هل لأن رغبتي في تذكرها قد انطمست بعد أن قتلت بداخلي الأمل.. ثم تذكرتها عندما ازداد شغفي لرؤيتها ومعرفتها؟!

ياليتني لم أرها.. ماذا أفعل الآن؟! هل أدخل لأقتلهما ليشفى غليلي؟! أم لا أشعرهما بأي شيء؟! ولكن هل "خازن" يريد كيدي؟! وهل "سلسبيل" تعرف أنني "زاهر المبروك"؟!

- يا حراس؟! أين هذا المبروك؟!

نادى "خازن" بصوت جهوري.. فاستعدت رباطة جأشي وكبحت جماحي وكتمت دموعي ثم دخلت غرفة "خازن" مع حارس من حراسه فوجدت "سلسبيل" صرخت وهي راقدة على سريرها بينما "خازن" قد تسمر مكانه ثم دخل الحراس فأشار لهم "خازن" بأن يرحلوا.. فحاولت أن أتمسك بفقدان ذاكرتي وابتسمت قائلاً:

- كيف أخدمك يا سيدي؟!

فنظر لي نظرة استنكارية وهو يحاول أن يتأكد من أنني لم أستعد ذاكرتي ويظهر عليه تعجبه من أنني الرجل المبروك الذي قد ذيع صيته في أركان المدينة.. فنظرت لي "سلسبيل" متعجبة وهي لا تفهم شيئاً فاقترب منها هامساً في أذنها فظهر عليها الدهشة ثم اعتدلت في جلستها وهي على سريرها بينما كنت أقترب منها وأشعر بنيران تحرق قلبي وقدماي ترتعد وريقي قد جف من الصدمة التي حلت بي حيث أتجرع مرارة الخيانة متذوقاً طعم الخيبة والندامة.. فجلست على سريرها محاولاً التماسك بينما أرى عينيها خائفتان وأنفاسها متسارعة وأنظر على "خازن" وهو يبتلع رمقه فسألني:

- متى أصبحت رجلاً مبروكاً هكذا؟!

بابتسامة ثقة:

- بعد أن رحلت من هذا البيت..

باستفزاز:

- هل هذا يعني أن الفضل يعود لنا؟!

فأومأت برأسي رافضاً:

- الفضل يعود لإلهي.. ثم لمن حملني على أكتافه وأخرجني من هذا البيت.

- أعرف أنه قد تم طردك بقسوة.. نحن نعامل كل العبيد هكذا.

نقذف الكلمات في سخرية وتهكم واستهزاء بينما يظهر علينا الهدوء.. ولكن يعلم الله بالمحرقة التي بداخلي.. فأمسكت لساني وأحكمت غضبي ثم نظرت لي "سلسبيل":

- هل أنت لا تذكرنا حقاً يا زاهر؟!

فتبادلت بيننا النظرات حيث كانت نظراتها نادمة ونظراتي متحسرة فقلت لها في برود يقتلني متجاهلاً سؤالها:

- مما تشتكي يا سيدتي؟!

فأشارت لي على معدتها فكشفتها و وضعت يدي عليها فتضاربت مشاعري وتذكرت كل شيء حتى تحدثت في سري متحيراً: ما الشيء الأكثر لعنة؟! أن أفقد ذاكرتي أم أستعيدها؟! فلم أتمالك نفسي و هبطت دمعة متسللة من عيني ولكنني مسحتها.. فنظرت لي "سلسبيل" في شفقة بينما "خازن" كان متعجباً فسألني:

- ماذا بها؟!

فرفعت يدي حتى يصمت ثم تلوت متمتماً بعض الدعوات والنار تعتمل في صدري.. ثم قلت "الخازن":

- زوجتك سوف تتحسن..

ثم نظرت لها في غيظ:

- أرجو أن تتعافي سريعاً يا سيدتي..

فاقتربت من الباب لأخرج ثم نادتني:

- يا زاهر..

فتوقفت واستدرت لأجدها قد مدت يدها لي بقطعة من الذهب.. فتذكرت عندما كنت أجمع الذهب لأجلها.. فابتسمت ورحلت!

تجولت بحصاني "عنبر" في أرجاء المدينة وأنا أغرقها بدموعي.. وتذكرت عندما كنت أطير "بياقوت" حصاني المخلص فلعله هو الكائن الوحيد الذي كان مخلصاً لي.. فكيف تفعل "سلسبيل" ذلك بقلبي؟! فقد أخذته ومزقته أمامي عينيّ.. وكيف يخونني "خازن".. صديق عمري في الجنة؟! ماذا فعلت لأستحق كل ذلك؟!

لابد أن أعرف الحقيقة التي جعلت "خازن" و"سلسبيل" يخرجان من الجنة ويتركانني وحيداً.. لعلي أظلم "سلسبيل" ويكون قد خطفها وقام بتهديدها أو لعله وسوس لها وأقنعها بشيء لا أعلمه.. ولكن أياً كانت التبريرات "فخازن" و"سلسبيل" خائنان ولا يستحقان الحياة في الجنة.. أو الحياة على هذه الأرض ولكن لماذا يتمتع الظالم والخائن بينما يتعذب المظلوم؟! رغم أنني أتيقن أن الله عادل ورحيم.. فلماذا يترك هذا الظلم ولا يرحم الضعفاء والعبيد؟! ربما روح الله بداخلنا جعلتنا نتحمل مسئولية كل شيء على هذه الأرض وجعلتنا نحمل أمانة هذه الحياة.. فهناك من يستخدم صفات الله الرحيمة فيعمر الأرض ويداوي الجراح ويشفي الآلام فيرتقي إلى الملائكية.. وهناك من يستخدم صفات الله القوية فيغضب ويبطش حتى يسلط عليه نفسه فيصبح شيطاناً متجسداً في صورة إنسان ويفسد في الأرض ويظلم ويقتل.. وتلك هي المعاناة التي نتذوقها على هذه الأرض الظالم أهلها.. معاناة الإختيار التي تُجهد عقولنا وتُرهق قلوبنا وتُتعب أجسادنا.. فنختار التسليم لظلم البشر وأذاهم.

جلست مع "تسنيم" ولم أخبرها أنني استعدت ذاكرتي.. فكنت أشعر بمحبتها لي عندما أنظر إلى عينيها فربما لم تجد حلاً سوى الكذب عليّ حتى أقع في غرامها.. ولكن القلب هو الشيء الذي نتركه يختار من يحب دون تدخل منا فسألتني عن يومي ولم أخبرها أيضاً بما رأيته وبداخلي صوتاً يدفعني لمسامحتها فأحببت أن أسألها:

- هل تعرفين ما أهمية الإنسان؟!

فتعجبت من سؤالي ثم فكرت قليلاً وقالت:

- أعتقد أنه معجزة الرحمن.. حيث أنه خليفته في الأرض وهو المخلوق الأوحد المكرم عن سائر المخلوقات و مسخر له ما في السماوات والأرض!

- لماذا؟!

- لأنه لديه القدرة ليفكر ويعطي ويصنع ويبتكر ويبدع.. فلا يوجد كائناً آخر يستطيع فعل ما نفعله!

- أنا فقط أتعجب من اختيار الله للإنسان في جعله خليفة له والمسئول عن تعميرها..

- نحن الكائنات التي تزن كل شيء.. فقد خلقك الله حتى لا تكون حيواناً شهوانياً أو شيطاناً مؤذياً أو ملاكاً خاضعاً ولقد خُلقنا على صورته وبنفخة من روحه فأصحبنا عياله ولذلك هو قام بتفضيلنا عن بقية ما خلق..

- ولكن الجان لديهم قوى خارقة.. ولعل هناك مخلوقات أفضل منا.. فنحن ضعفاء!

- ربما جميعاً لدينا العقل والقلب الذي يحركنا.. ولكننا تفردنا بالروح التي نفخها الله فينا فأصبحت عقولنا قادرة على البناء والنمو والإزدهار.. وما أعجز الجان على تسخير بني آدم.. فكيف تشكو من ضعفنا؟!

تنهدت ولم أرد وتعبت من نفسي ومن أسئلتي.. فالشيطان يخطط أن نكون من المفسدين مثله أو لا نفعل شيئاً وننتظر معجزة من الله فننسى أننا المعجزة الإلهية التي خلقها وننسى أننا إثبات وجود الله على الأرض حيث روحه الجليلة التي نفخها بداخلنا فتميزنا بالإرادة التي تساعدنا على الإختيار الحر.. الذي نراه لعنة في بعض الأوقات! فنحن من حمل الأمانة لقوة ظهورنا.. ولا ينبغي أن نخذل خالقنا الذي وثق بنا و أحبنا وكرمنا وأعزنا فنحن أسياد قراراتنا ولكن معظمنا يختار اليسير.. فنشكو ونقرر أن نكون إمعة تسير مع القطيع الذي أقنعنا أننا ليس لنا قيمة رغم أهمية وجودنا.. فنحن لم نُخلق للجنة والأرض.. ولكن كل ذلك خُلق لنا.. فحتى إن كان هناك مخلوقات أهم منا.. سأرى أنني أهم مخلوق تنتظره الحياة ليفعل شيئاً.. وليس العكس!

نظرت إلى السماء فانتابني الُذعر عندما وجدت أن القمر قد اقترب من الإكتمال.. فماذا سيحدث بعد اكتماله؟! وماذا سيفعل الناس بي؟! هل سيلجأون لي حتى أداويهم أم سيزهقون روحي؟! وكيف أستعد لذلك اليوم؟! والاهم من كل ذلك.. في هذه الليلة.. كيف سأصبح؟!

-17-

"اختفاء"

لقد اعتدت أن أذهب إلى "خازن" لأداوي "سلسبيل".. "زوجته المصون".. وأصررت على الذهاب إليها لأعرف الحقيقة.. وهو يعلم جيداً أنني لن أؤذيها وسأداويها حتى وإن كان قلبي يعتصر ألماً.. أو لعله يريد كيدي ولكن لماذا؟! ماذا فعلت لهما حتى يكون مصيري شنيعاً هكذا؟! هل لأن الله يعاقبني أم يقذف في قلبي البصيرة حتى أرى حقيقتهما وأدرك قيمتي ووجودي ومن ثم أدرك عشق "تسنيم" التي تحاول مراراً وتكراراً الدخول إلى قلبي.. ولكنني لا أستطيع أن أمنعها أبداً.. بل القلب هو الذي يسمح ويمنع ويقرر ليس أنا فأحياناً لا نفهم حكمة خالقنا كالطفل الذي يقترب من النار لأنها تلمع فيمنعه أبيه من لمسها لأنها تشكل خطراً عليه.. ولكنه يصر على الإقتراب منها ويبكي عندما يبتعد عنها ويعتقد أن والده لا يحبه.. فهل ربي يحبني لذلك جعلني أرى حقيقتهما فأبتعد عنهما وأبحث عمن يستحق؟! أم يعاقبني بأحب الناس إلى قلبي؟! إذن لماذا جعلني أتعلق بها منذ البداية؟! لعلنا نختار مصيرنا.. فإن كان جيداً نصفق لأنفسنا.. وإن كان سيئاً نلوم إلهنا وقدرنا الذي لا نعلمه بل نكتبه بأيدينا.. فلعن الله اختياراتنا.. فلولا رحمته.. كان الهلاك مصيرنا.

وبينما أنا منهمك في عملي وأتمتم بدعوات على رأس "سلسبيل" وأحاول أن أمنع نفسي من البكاء أو الإنهيار وجدت "خازن" يسألني:

- أنا لا أثق في أحد سواك..

انتابتني القشعريرة في سائر جسدي فنظرت له باستنكار وتعجب متسائلاً:

- لماذا؟!

- أنت تعلم جيداً..

فأخرجت زجاجة صغيرة من جيبي لأصب بعض الماء الذي أحضرته معي ووضعته في كوب من الذهب وتمتمت ببعض الدعوات لتشرب منه "سلسبيل" ثم ناولتها الكوب لتشرب منه بينما هي تنظر لي منذ أن جئت جاحظة العينين كأنها غير مصدقة ما تراه ويظهر أنه يدور في عقلها الكثير الذي لا أعرفه.. بينما أنا أرغب في الإنغماس في شفاهها التي اشتقت إليها وفي نفس الوقت أرغب في خنقها بيديّ لتتطهر من خيانتها ولعل سبب مجيئي هو رؤيتها.. وبعد صمت قليل قلت:

- انت تعلم أنني فقدت ذاكرتي..

فابتسم نصف ابتسامة وأومأ برأسه رافضاً:

- لقد استعدت ذاكرتك.. فنظراتك اختلفت كثيراً.. ممتلئة بالإشتياق والخذلان والذكريات.. فالأعين لا تكذب!

فسقطت دمعة بدون إذني فمسحتها بسرعة ثم استأذنت لأرحل.. بينما "سلسبيل" أشعر أنها قد أصابها البكم.

خرجت من الغرفة وأنا أمد في خطوتي فأوقفني "خازن" يناديني ثم استدرت لأسمع منه ما يريد فوجدته يتحدث معي بصوت منتحب ومتأثراً بابتسامة:

- أشكرك.. لقد اشتقت إليك كثيراً..

- لماذا قمت بذلك؟!

- لقد اختارتني.. ولم أقصد أن أجرحك..

قالها وهو يظهر عليه قلة الحيلة ولكنني لم أصدقه.. فكبحت جماحي ولم أخرج ما في جعبتي.. فأومأت برأسي موافقاً وأردت الهروب من هنا ومن كل مكان إلى حيث لا أدري.. فتبادلنا النظرات ثم لاحظت من باب غرفته المواراب أن "سلسبيل" قد غطت في النوم ثم قلت له راحلاً:

- الليل قد حل وعليّ الذهاب..

فأوقفني ثانيةً وهي ينادي:

- يا حراس.. أوصلوا المبروك..

فجاء الحراس وشاور إليهم بيده ثم اقترب مني فشممت رائحة عرقه النتنة فأخرج من جيبه قطعة من الذهب ليعطيها لي قائلاً:

- أعرف أنك لن تسامحني.. ولكنه قدر الله!

فنظرت له نظرة باردة ثم أخذت منه قطعة الذهب قائلاً:

- لا أحد يعرف قدره.. فلا تظلم القدر وتلومه حتى تعطي تبريرات لأفعالك فتنام بضمير غافل!

فنظر لي نظرة حادة ورأيت حمرة وجهيه التي أظهرت غيظه وأنا أبتسم في وجهه ابتسامة تُخفي قهرة قلبي الذي صُدم في من كان أعز الأصدقاء وفي من كانت حبيبتي.. فكيف يمسي الصديق صديقاً والحبيب حبيباً ثم يصبحان ألد الأعداء؟! كم أتمنى أن يكونا لهما نصيباً مما أشعر ولكن هل هذا سيشفي غليلي أم سيظل قلبي يحترق ولن ينطفىء أبداً؟!

* * *

لم أنام في هذه الليلة.. تذكرت كل شيء وعرفت أن النسيان نعمة خلقها الله لنا.. ولعله قد أعاد لي ذاكرتي لأفعل شيء ما.. فمن المؤكد أن هناك حكمة لا يعلمها سواه.. لماذا فعلتِ ذلك يا تسنيم أنتِ وخازن؟! هل وسوس لكِ وجعلكِ تشعرين أنه سيسعدكِ أكثر مني؟! أم ذهبتِ باختياركِ؟! وهل إذا عرفت الحقيقة سأرتاح أم سأظل منهاراً وأعاني وأشكو كالطفل الصغير الذي لا يجد ملاذه الآمن.. وبينما أنا أفكر وجدت "تسنيم" تقترب مني لتخبرني أن "سلسبيل" زوجة "خازن" قد اختفت والحراس يبحثون عنها في كل مكان وهو يريدني الآن.. وعندما أرسل "التسنيم" حارساً ليسألها فأخبرته أنها لا تعلم شيئاً.. فلم أذهب وانتظرته يأتي إليّ.

جلست في بيتي مع "تسنيم" وأمامي حراس "خازن" بينما هو في وسطهم وعينيه حمراوتان فسألته في استفزاز:

- هل بكيت كثيراً؟!

فسألني بنبرة يشوبها الغيظ وقد أصبح صوته خشناً:

- أين سلسبيل؟!

- لا أعرف.. لم يعد يهمني شيئاً يخصكما..

فاغتصبت "تسنيم" ابتسامة وعدلت خصلة من شعرها فقال لي مهدداً:

- إذا عرفت أنك وراء كل ذلك.. لن أقتلك.. ولكنني سأتلذذ بتعذيبك.. وسأجعلك تندم أنك أكلت من الشجرة..

فأومأت برأسي موافقاً ورأيته وهو يخرج مع حراسه.. فوجدت "تسنيم" تقبلني بحب فتذوقت شفاهها التي تجعلني أنسى شقائي.. فهناك لذة لا توصف عندما تكون مع شخص يحبك بدون سبب فيتقبلك كما أنت ولكن ما أغرب ذلك القلب الذي يتعلق بشخص ما ثم ينفطر وينكسر.. فيزهر من جديد لينبض بالحياة بعد أن فقد الأمل في أن يحب مرة أخرى.. فقد أحببت "تسنيم" بعد أن أدركت قيمتي وعرفت أنني لم أحب "سلسبيل" بل كنت أعشقها.. وشتان ما بين الحب والعشق.. فالحب هو أن تحب مزايا وعيوب غيرك.. تحب ما يحبه غيرك.. الحب هو التقبل حتى وإن لم تتقبل كل شيء تجاهه.. لكنك لا تشعر بالأذى من ناحيته.. بل تشعر بالأمان والاطمئنان والراحة والسعادة.. فالحب هو أن تتقبله رغم العيوب!

أما العشق.. كالقصر الملعون.. فهو أن تحب غيرك كما يظهر في ذهنك.. فتعشق الصورة التي تخيلتها عنه وترفض تقبل واقعه.. لا تحب مزاياه أو عيوبه.. ولا تتقبل أي شيء له علاقة به.. ولكنك تحاول أن تثبت أنك تستطيع تغييره وتحويله إلى ما ترغب في أن يكون.. لأن العشق هو التعلق الذي يجعلك ترغب في أن تتملكه!

فقد ألهمني الله هذا الدعاء واسُتجيب لي:

اللهم ارزقني الحب.. وأعوذ بك من العشق.

تركت "تسنيم" نائمة.. وقد سامحتها على كذبها الذي كان نابعاً من حب خالص.. وأعتقد أنني الوحيد المستيقظ في المدينة الآن.. فأسير في ظلمة تاركاً "عنبر" في مضجعه.. وذهبت إلى منطقة ممتلئة بالجبال والكهوف حيث أتعثر في الأحجار وأسير ببطء حتى لا يلاحظني أحد ولم يشغل بالي سوى تعجبي من حال قلبي فكيف يستبدل "سلسبيل" "بتسنيم"؟! هل يخدعني هو الآخر؟! فذلك القلب يقلبه الله كما يشاء.. يحب من يشاء ويكره من يشاء لحكمة وسبب لا يعلمه إلا الله.. بينما نحن نعتقد أننا نستطيع أن نتحكم في ذلك.. ولكننا في الوهم غارقين حيث نكذب على أنفسنا.

وصلت إلى كهف من الكهوف ورأيتها ملجمة بحبل تصرخ في وجهي فابتسمت بقلب دامي أتذكر أنني كنت أتخيل حياتي بدونها مستحيلة.. وإذا تركتني سأموت.. لكنني أقف أمامها الآن وأقترب منها وأراها تبكي وتتوسل إليّ.. بينما قلبي المشفق عليها لم يعد ينبض.. فأصبح حجراً لا يشعر بها ولا يحبها.. ولا أعرف إذا أصبح يمقتها.. ولكنه مقهور ومغلوب على أمره.. فلم أجد حلاً سوى أن أختطف "سلسبيل".. حتى أعرف منها حقيقة سخيمة قلبها وخطيئتها.. فلعلها اختارت طريق الجان والشياطين.. مثل حبيبها.. "خازن"!

-18-

"كيف فعلت ذلك؟!"

دخلت بيتي فوجدت "تسنيم" تحتضنني وأنا أشعر بأنفاسها المتلاحقة متسائلة:

- أين كنت؟!

- كنت أداوي بعض الناس..

- في الليل المظلم؟!

- التعب يأتي للناس فجأة دون ميعاد..

نظرت لي نظرة غير مصدقة ورأيت في عينيها أسئلة عديدة لكنها لا ترغب في مضايقتي ثم ذهبت إلى غرفتي لأنام قليلاً فأوقفتني قائلة:

- جاء حارس من حراس خازن ليسأل عنك!

فاستدرت لها متعجباً:

- جاء ثانيةً؟! لماذا؟!

- لأن خازن أصابه التعب والمرض ويريدك أن تداويه..

فابتسمت ابتسامة انتصار متسائلاً:

- كيف هذا؟!

فاقتربت مني وشممت رائحة عبقها ثم قالت:

- الجان والشياطين تأثرهم شديد للغاية يفوق التوقعات.. فمن المؤكد أنه اضطر إلى ذلك!

- ألا تعتقدي أنه فخ؟!

فأومأت برأسها رافضة ثم سألتني:

- ولماذا تمتلىء رأسك بتلك الظنون؟!

- لأن كرامته ستأبى..

- نحن بنو البشر نستطيع الحفاظ على كرامتنا مهما كلف الأمر.. ولكن الأمر ليس هيناً عليه فرغباته وانفعالاته تسبق عزة نفسه!

فأومأت برأسي موافقاً وتوجهت إلى الباب وأغلقته ورائي.

ثم وصلت إلى بيته فوجدت الحراس يفتحوا لي الطريق إلى غرفته فوجدته راقداً على سريره، شاحب الوجه وأصبح رفيعاً لا أسمع سوى آهاته مردداً:

- سلسبيل.. سلسبيل!

اقتربت منه وجلست بجواره وأشفقت عليه وشعرت بذنب عظيم رغم أنهما يستحقان الويل والعذاب ثم استدار برأسه في بطء شديد فمد لي يده وأمسك ذراعي بقوة حتى آلمتني ثم بكى وأرخى يده قائلاً بتوسل:

- أرجوك.. أريد سلسبيل.. أنت الوحيد الذي سيستطيع إيجادها..

قربت على رأسه بعد أن توقعت أنني سأظهر بعد الشماتة.. ولكن مظهره الهزيل وضعفه جعلني أشفق عليه فقلت له:

- جئت لأداويك..

فأومأ برأسه رافضاً ثم أمسك رأسي لأقترب منه وقال بصوت منتحب مختنق:

- سلسبيل هي دوائي.. ولن يداويني سواها.. أرجوك..

ثم تركني وترك بداخلي غصة في صدري حيث لم أتحمل كلامه عنها.. فقد أصابني بسهم من نار في قلبي.. وبينما أنا أنظر إليه متأوهاً شعرت أن سلسبيل هي الجانية التي قتلتني بسهام الغدر وقتلته بسهام العشق والحب فما أغرب الحب الذي يجعلك تشعر بأن لديك قوة خارقة تدك الجبال دكاً ثم تؤخذ منك فجأة فتشعر أنك أضعف من خنفساء ميتة ملقاة وحدها على قارعة الطريق! فلماذا نحب ونحن نعلم أن الحب ثمنه الضعف؟! ولماذا الحياة قاسية هكذا؟! نحب فنضعف أو نكون وحدنا حيث نفتقد الحب والأنس فتقوى ظهورنا فلماذا علينا أن نختار بين الضعف أو الوحدة؟!

اقتربت منه لأطمئنه بأنني سأبحث عنها وسأحضرها له.. فوجدته يبتسم لي ويهم ليقبل يدي فسحبتها ورحلت بينما في قرارة نفسي تمنيت أن أسمع منه كلمة اعتذار أو تبرير لما فعله معي ومع سلسبيل.. حتى وإن كان تبريراً كاذباً يريح قلبي ولو قليلاً.

* * *

اقتربت من وجهها بينما أنا متعجب من شعوري الذي تغير تغييراً جذرياً.. فكيف كنت أعبدها ثم أصبحت أكرهها فما أغرب خلقة الإنسان الذي خلق من طين لين كالصلصال فيتشكل ويكون مرناً فيتغير شعوره وتتغير نظرته تجاه أي شيء.. لعل معجزته هي مرونته حتى وإن كان يبكي دماً لكنه يستطيع أن يتخطى جراحه ويتخطى أي شيء ويُكمل رحلة حياته بقلب متألم.. فكنت أظنها دوائي والآن أصبحت دائي وألمي.. رأيتها وهي مكبلة اليدين ونائمة وآثار دموعها على الأرض فاقتربت منها وتعجبت أنها كانت سبب سعادتي وأصبحت سبب تعاستي.. ياله من شيء عجيب ومقزز.. فأيقظتها بإلقاء كوب من الماء على وجهها فأصابها الذعر وصرخت حتى نظرت لي بعينين جاحظتين فأزحت لجامها الذي كنت أربط به ثغرها وقلت لها:

- ياليتها كانت مياه من نار لتحرق وجهكِ الجميل!

فبكت "سلسبيل" وسمعت منها سيل من الإعتذارات جعل حريق قلبي يهدأ قليلاً فقالت:

- لقد أصابني الوهن والضعف.. أنا آسفة!

فأمسكت لجام غضبي ثم أمسكت وجهها ناظراً إليها في غيظ ثم تأملت جمالها الذي اشتقت إليه ونظرت إلى شفتيها فالتهمتها لكنها حاولت دفعي فأحكمت قبضتي وقمت بتقبيلها في كل مكان وهي تبكي مستسلمة ثم توقفت ونظرت لها باشمئزاز وأنا ابصق في الأرض قائلاً:

- حتى طعمكِ أصبح كالعفن.. ولم أعد أرى جمالكِ.. فما يظهر لي الآن أمام عينيّ هو قبحكِ!

- لقد تغيرت كثيراً..

فاستفزتني تلك الكلمة ثم وجدت نفسي أصفعها على وجهها بكامل قوتي حتى سقطت أرضاً وأكملت بكائها ثم صرخت غاضباً:

- من الذي تغير؟! أخبريني؟! لماذا فعلتِ بي ذلك؟! ماذا فعلت أنا لأستحق هذا؟!

- لقد تخليت عني وقررت أن تخرج من الجنة وتتركني.. ثم وجدتك على هذه الأرض تخونني.. أنت لست ملاكاً أيها المبروك، القريب من الله!

- كنت مستعداً أن أعيش معكِ في الجنة بدون بشر.. لكنكِ ذهبتِ مع خازن الذي أصبح حبيبكِ!

- سأحكي لك كل شيء.. ولكن هل تعدني أن تطلق سراحي؟!

أومأت برأسي موافقاً وجلست لأسمع منها.. فحكت لي أنها عندما كانت حورية من الحوريات قبل أن تكون ملكتهم كانت تعرف خازن كملاك من الملائكة وكانت معجبة به وهو يبادلها الإعجاب.. ولكن في الجنة الحوريات لا يتزوجن من ملائكة أو جان أو شياطين أو خُدّام.. لأن الله قد سخرهم للبشر فقط.. وعندما أصبح "خازن" خادم الجنة.. صار الأمر أصعب.. فكما كانت الشجرة محرمة.. كانت علاقتهما محرمة أكثر وعندما ظهرت أنا كإنسان غريب عنهما وقعت في حبي ولم أختار سواها.. فأصبحنا عشيقين.. ومن هنا لم يصدق "خازن" ما يراه أو يسمعه.. فشعر بخيانة "سلسبيل" له.. ولكنها كانت تخبره أن علاقتهما أصبحت مستحيلة.. وأنها حورية قد سُخرت لي كما سُخر "خازن" لنا كخادم.. وإذا خرجا عن طوعي سيعذبهما الله عذاباً لا يعذبه أحد ثم فكرا في الشجرة المحرمة التي إذا أكلا منها سيهبطان على الأرض ويعيشان سوياً إلى الأبد في مُلك عظيم وخطتهما كانت ناجحة بحق عندما أصبحت كبش فداء لهما وطُعماً في أيديهما حيث استطاعا أن يستخدما فضولي بذكاء شديد حتى هربا وأكلا من الشجرة وتركاني في الجنة وحدي أشعر بذنب لم أفعله!

نظرت لها في صدمة:

- هل هذا يعني أنني كنت وسيلة لتحقيق هدفكما؟!

فقالت لي:

- أقسم أنني أحببتك.. ولكن خازن كان حباً قديماً.. وأنت لم تثبت حبك لي.. فكنت تصر على أن تذهب لتأكل من الشجرة وتتركني في الجنة.. فرأيت أن خازن هو من يستحق حبي لأنه أراد أن يبقى معي مهما كان الثمن وعندما هبطت بدأ ضميري يؤنبني قليلاً.. فأردت أن أبحث عنك حتى رأيتك استبدلتني وقمت بخيانتي!

فاقتربت منها غاضباً وهي تنظر لي بعينين خائفتين فسمعت نحيبها ولكن صدمتي ألجمت لساني فتلاحقت أنفاسي ثم انهالت يدي عليها بالصفعات والضربات بينما هي تواصل البكاء والصراخ حتى تركتها فقالت:

- لقد وعدتني أنك ستطلق سراحي..

- ولكنك لم تطلقي سراح قلبي!

ثم سمعت خطوات أقدام بالخارج فقمت بالبحث عن مصدر ذلك الصوت فرأيتها تجري حتى أمسكت عباءتها وكشفت عن وجهها فقلت متعجباً:

- تسنيم؟!!

- كيف تفعل ذلك؟!

رأيت دموعها فسألتها:

- هل تتعاطفين مع مجرمة؟!

- أنت الذي أصبحت مجرماً..

فصفعتني بكلامها وكان صوتها عالياً وهي تبكي بينما أنا أحاول تهدئتها ولكن دون جدوى فكانت تقول:

- كيف تكون مبروكاً وتخطف زوجة الحاكم.. كيف فكرت في ذلك الفعل؟! أنت ليس قذراً مثلهما.. ونحن لن نحاسب الخلق!

- هذا ما يستحقانه ليس أكثر..

فهدأت قليلاً ثم سألتني في خوف بصوت منتحب:

- أنت لازلت تحبها؟!

فصمت ثم ضممتها بين ذراعيّ حتى سكنت.. ولكنني رأيت فجأة حراس "خازن" في كل مكان حولي ثم حاولت الهروب ولكنهم قاموا بالإمساك بي بينما كانت "تسنيم" تصرخ وهم يحملونها وقاموا بإلقائنا على عربة خيول فأحكم الحراس قبضتهم حتى شعرت أنني مصاب بالشلل التام.

نظرت حولي فوجدت نفسي مكبلاً وسجيناً في غرفة ضيقة رائحتها نتنة وبجواري "تسنيم" على الأرض مغشية عليها فحاولت إيقاظها ففشلت في ذلك.. ثم دخل "خازن" وقد ظهر عليه العنفوان وحوله حراسه ونظراته لي تدق شرراً ولم ينبس بكلمة لكنه أشار بيده فاقترب مني حارساً من الحراس لينهال عليّ بعدة لكمات وركلات حيث شعرت أنها النهاية.. ولم أفكر في شيء سوى "تسنيم" الملقاة على الأرض ولا أعرف ماذا بها ثم دخلت "سلسبيل" وهي تنظر لي بنظرات حادة فاقتربت مني ثم بصقت على وجهي فابتسمت نصف ابتسامة وأنا أقاوم لأستوعب ما الذي يحدث حولي.. ثم سمعت ضوضاء بالخارج فتبادلت النظرات بين "خازن" و"سلسبيل" حتى خرجا ومعهما الحراس.. فحاولت تحريك "تسنيم" بقدمي ومناداتها فتحركت حيث يظهر عليها التعب ففتحت عينيها لتجدني.. فأخذتني في أحضانها وانهمرت دموعها ثم نظرت لها متسائلاً:

- أأنتِ بخير يا حبيبتي؟!

فأومأت برأسها مبتسمة ثم تعجبت من أنها أصبحت حبيبتي بعد أن كنت أعتقد أن الحب مقدساً لكنني اكتشفت أنه يمكن تحريفه واستبداله ليكون مع شخصاً يستحق التقديس!

ثم علت الأصوات بالخارج فقام "خازن" بالدخول هو وحراسه مقترباً مني وهو يدفع "تسنيم" من أمامي فيسقطها أرضاً ويقول في غضب:

- لماذا تحظى بشعبية كبيرة في كل مكان هكذا؟!

ثم نادى على الحراس:

- أطلقوا سراح هذا الساحر.. لا أريد أن أرى وجهه ثانيةً..

ثم نظر إلى "تسنيم" نظرة حادة فظهر عليها الخوف ثم قال:

- وأنتِ.. لن تبرحي من مكانك.

ثم ابتسم لي ليكيدني بينما أنا لا أصدق الذي يحدث فعلا صوتي:

- لاااااا.. لن تأخذ تسنيم.. سأقتلك يا خازن..

أكرر كلامي كالمجنون حتى اختفى صوت نحيب "تسنيم" وضحكات "خازن" واختفى صوتي أيضاً عندما وجدت نفسي في صحراء وحدي لا أصدق أنني خرجت بدون "تسنيم".. فلعنة الله على مشاعر تمسك بسوط يجلدني بدون أن أرتكب ذنباً.. فما الحكمة في حياة ممتلئة بالمعاناة والصدمات؟!

ثم اقترب مني رجلاً يبدو أنه يعرفني فتعجب من هيئتي ثم قال:

- المبروك على الأرض يبكي! كيف ذلك؟!

فسعلت قليلاً من الغبار الذي ملأ صدري ثم ساعدني الرجل لأقف محاولاً الثبات فقلت:

- أنا لست مبروكاً.. أنا إنسان ضعيف ومريض بالحب.. قُتلت عدة مرة.. حيث قتلني فضولي في مرة.. وقتلني الخذلان في مرة.. وقتلني العشق في مرة.. ولم أقتل نفسي بعد كل ذلك.. حتى أصابني الشك وبحثت عن الله ولم أجده حولي!

فربت الرجل على كتفي قائلاً:

- الله ليس حولك.. لكنه معك وبداخلك.. فهو لا يريدنا أن نتعلق بأحد سواه حتى نستحق رحمته.. وضعفك يدل على بشريتك وإيمانك أيضاً.. فبدون الضعف لن تدرك قوتك.. وبدون الخذلان لن تفهم معنى الحب.. وبدون الشك لن نصل إلى اليقين والإيمان.. وبدون العشق لن نستمتع بالحياة.. فلا تقتل نفسك أيها المبروك، المختار!

فنظرت له متعجباً ومبتسماً.. ثم نظرت إلى السماء وتذكرت "خازن" وهو يحقد عليّ أنني ذو شعبية كبيرة فحمدت الله على أنه رزقني بدون طلب أو تعب وجعل من حولي يحبني بلا سبب ثم قررت أن أسترد حقي المسلوب ولا أقف هكذا قليل الحيلة وعاجز، شكاء، بكاء.. لكنني يجب أن أعرف مهمتي ورسالتي في الحياة.

-19-

"ما الذي فعلته لأستحق كل ذلك؟!"

تقمصت جميع الأدوار.. قمت بدور الضحية وبرعت في أداءه وكان أسهل الأدوار.. وحاولت أن أقوم بدور الجاني لكنني شعرت أنه ليس ملائماً لي.. ثم انهمكت في دور المنقذ وكان من أكثر الأدوار إرهاقاً.. وبعد أن استنزفت روحي.. قررت أن أعتزل.. وعرفت أننا جميعاً في مسرحية هزلية نؤدي أدواراً ليست مناسبة لنا.. ولكن أفضل دور يمكنني القيام به.. هو أن أقوم بدوري.. ودوري هو أن أكون نفسي.. وعلى طبيعتي كما أنا. تذكرت "سهيل" عندما وجدت نفسي أجلس أمام مجموعة من البشر فأعظهم وأرشدهم وأذكرهم بعظمة الخالق وبديع صنعه وحكمته.. رغم تناقضي حيث التيه الذي أنا غارق فيه.. فأشعر أنني أنافقهم وأنافق نفسي فسألتني سيدة قد اشتعل رأسها شيباً:

- أيها المبروك.. لماذا خلقنا الله؟!

ارتجفت أوصالي وسمعت نبضات قلبي التي كدت أن أكتمها حتى تصمت وقد جف ريقي وانعقد لساني وشعرت بمرارة في حلقي بعد هذا السؤال الذي أعيش لأجد له إجابة ولم أعتاد أن أتلقى أسئلة بل دوماً أنتظر إجابات لتساؤلاتي.. فصمت قليلاً لأظهر لها بعض الحكمة بينما أنا أخبىء بعض الخيبة فقلت لها:

- لنثبت وجوده على الأرض وقد خلقنا ليرى إن كنا نستحق أن نحيا ونرتقي فيصطفينا ويكافئنا أم لا..

- وهل الله لا يعلم بذلك؟!

نظرت لهذه السيدة نظرة حادة محاولاً إخفاء رجفتي.. ففي كل سؤال تسأله لا أريد أن أعجز عن إجابته حيث أن أسئلتها كالسهام في صدري وكأن ذلك عقاباً لي فاعتدلت في جلستي وقلت:

- الله يعلم بكل شيء.. ولكننا لا نعلم أي شيء.. فحتى نواجه أنفسنا جعلنا مخلوقات تختار ما تريد ويختبرها فيما تختار..

- لكن هناك أشياء لا نختارها.. فكيف يختبرنا فيما لا نستطيع أن نختاره؟!

- نحن نختار كل شيء بكامل قوانا العقلية ونستطيع السيطرة على أجسادنا وأفكارنا.. ومشاعرنا أيضاً.

أعلم أنني كاذب ولكنني لا أعلم ماذا أقول ثم صفعتني بسؤال:

- ولكننا نمرض ونشيخ ونموت.. فهل هذا عقاب لنا من إلهنا؟!

فاستعدت رباطة جأشي متظاهراً بالحكمة قائلاً:

- كل إنسان ينال ما يستحق حسب نواياه وأفعاله وأفكاره.. والذي يمرض.. فمن رحمة الله يسخر له من يداويه وكلٌ يرى حسب ظنه في إلهه..

- لكننا نعيش في معاناة على هذه الأرض.. فهل السبب أننا أكلنا الشجرة المحرمة فأصابتنا اللعنة؟!

- لعل الله يعاقب من لا يشكره على نعمه.. فهو سخر لنا السماوات والأرض واستخلفنا فيها فحملنا أمانتها وجعلنا خلفاؤه ليرى من يعمر أرضه ومن يفسد فيها..

- ولكننا نرى الحاكم الفاسد يكرمه الله والفقير ينتكس ولا يجد الله!

- العبرة بالخواتيم..

- خاتمتنا جميعاً هي الموت.. فلماذا نعيش في قهر وعناء ثم نموت؟!

- حتى ندرك أنها حياة قصيرة ومؤقتة فنعلق قلوبنا بالله..

- وهل لديك دليلاً قاطعاً عما سوف نجده بعد موتنا؟!

- كما ننام ونحلم فنجد أرواحنا تهيم في عوالم عديدة.. فالله قادر على أن يرى من يستحق حياة أخرى أفضل وحياة يتعذب فيها..

- ولكن لماذا نؤمن بالله ونحن لا نراه؟!

- كما نؤمن بكلامنا ونحن لا نراه..

ثم وجدت نملة هائمة على الرمال فأخذتها بين إصبعي وأردفت:

- هذه النملة لا تدرك حجمي أو حجم الصحراء.. وإذا وجدت نملة أخرى وأقنعتها أنها على إصبع إنسان لن يصدق عقلها فهي لا تستطيع رؤيتي.. فعليها أن تؤمن بقلبها.. ولله المثل الأعلى.. فنحن نطفة في ملكوت الله..

صمتت السيدة وشعرت بإعجاب في نفسي وحمدت الله على أنه قد أطلق لساني وشرح صدري وجعلني أنطق بما لا أعلم كأن الله بداخلي وساعدني بمدد منه.. ثم وجدت رجلاً من المجموعة ينادي بصوت عال:

- نريدك أن تكون حاكمنا..

فارتجفت رجفة وتعجبت ولم أصدق ما أسمع ثم قام الجميع وهم يهتفون بإسمي ويتجهون إلى بيت الحاكم..

ما الذي يحدث؟! هل أستحق أن أكون حاكماً؟! فأنا لا أرى نفسي أستحق أن أكون رجلاً مبروكاً..

فكيف يراني الله؟!

ثم وقفت وأمرتهم بأن يتوقفوا حتى صمتوا جميعاً ثم شعرت بشيء من السلطة والسيطرة فألقيت عليهم خطبة بصوت يسمعه الآذان حتى يخفي توتري:

- أنا حقاً ممتن لكم.. ولكنني لا أريد أن أكون حاكم هذه الأرض.. فالحكم لله فقط والبقاء له.. وأريد القول أنني قد خدعتكم جميعاً.. فأنا إنسان قد خلقه الله وأثاره الفضول ليعرف لماذا حرم علينا الشجرة التي أكلنا منها.. ولعل الله عاقبني وعاقب كل من أكل من ثمارها.. فوجدنا أنفسنا على هذه الأرض نكد ونتعب ونعمل في سبيل أن نأكل ونشرب ونعيش بعد أن كنا في نعيم مقيم.. وللحق أقول.. أنا لا أعلم كيف جاوبت على أسئلة تلك السيدة.. وأعتقد أن أي شيء نريد أن نعرفه أو حاولنا معرفته.. فلن نصل لشيء بتفكيرنا المحدود..

حيث أن الحقيقة في حفرة عميقة ليس لها قاع ولا يعلمها سوى الله الذي أشعر بوجوده وأؤمن به رغم جهلي.. فأنا أرى أنني لا أستحق الجنة ولا أعلم مصيري على هذه الأرض.. ولكن كل ما أعلمه.. مهما علمت.. لا أعلم شيئاً وسيظل علمي قليلاً بجانب علم الله.. فأنا أداة من أدوات الله حيث يقذف في قلبي مشاعر وفي عقلي أفكار بينما أنا لدي الإختيار لأقوم بذلك أو لا.. ولعل معركتنا ليست مع الله.. وليست مع الجان أو الشياطين.. ولكن معركتنا مع أنفسنا وغرائزنا وشهواتنا.. ومع إرادتنا ورغباتنا.. فنحن المكيال الذي يزن صراعنا بين الخير والشر.. الملائكية والشيطنة.. الشهوانية والإنسانية.. فإذا زادت الشهوة أصبحنا كالوحوش.. وإذا زادت الإنسانية أصبحنا أُناساً.. وإذا زاد خيرنا ارتقينا إلى رتبة الملائكة.. وإذا زاد شرنا أصبحنا كالشياطين فنحن مصدر الخير والشر الذي خلقه الله بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه حتى يُشهد الأكوان والكائنات ويُشهدنا أننا نستطيع أن نجعل من هذه الأرض جنة أو جحيم.

بهت الجميع وهناك من بكى وهناك من ظهر عليه عدم الفهم ولكنني شعرت بتأثيري عليهم فتفاجأت من إصرارهم على أنهم يريدونني حاكماً بدلاً من "خازن" رغم رفضي الشديد.. فهو قد اختار أن يتعلق بمتاع زائل فيلهيه ويبعده عن إلهه.. وأنا اخترت أن أتعلق بالله وأقترب منه ومن روحي.. فيجعل متعتي في زهدي.. ولكنني أعترف أنني لم أصل لتلك المرحلة.. فلازال قلبي متعلقاً وعقلي منشغلاً وأبحث عن حياتي التي لم أحافظ عليها فضاعت ولم أجد ما يعوضها.. فلعلي إنسان غبي وضعيف لا يستحق الحياة حيث حمّلني الله الأمانة ولكنني أضعتها وأضعت نفسي أيضاً.. والآن عليّ إنقاذ ما يمكن إنقاذه مهما كلف الأمر.

* * *

نظرت إلى السماء فوجدت القمر أوشك على الإكتمال ولا أعرف ما الذي سيحدث بالتحديد ولكن ينبغي عليّ أن أكون مستعداً لأي شيء يحدث.. فرأيت "خازن" يخرج من بيته و وراءه "سلسبيل" وحوله حراسه ويظهر عليهم الدهشة وهم ينظرون إليّ وأنا على حصاني "عنبر" وحولي مجموعات من الناس يطالبون برحيل "خازن" لأصبح حاكماً للبلاد بدلاً منه.. فتبادلت بيننا النظرات حيث نظرت له نظرة تحدي وهو نظر لي نظرة غيظ.. ورأيت "سلسبيل" وكل نظرة منها تذبحني بسكين حاد ثم قال "خازن":

- أرى أنك تحب إثارة الجدل منذ أن كنت في الجنة.. هل تخاف من مواجهتي وحدك؟!

فابتسمت واقتربت منه قليلاً بحصاني بينما اقترب الحراس مني يرفعون سيوفهم وظهر أنهم يحمونه فنزلت من على "عنبر" قائلاً:

- من الواضح أنني لست الشخص الذي أخاف.. ولكن لماذا لا تعترف أنك مكروهاً في السماء وفي الأرض؟!

فاحمر وجهه غيظاً و زفر زفرة وهو ينظر لي فاقترب مني فأمسكت "سلسبيل" ذراعه فتوقف حيث ظهر خوفها عليه فشعرت أنها قد أمسكت قلبي واعتصرته حتى نزف دماً فقال لي:

- ماذا تريد؟!

- تسنيم..

- وإذا لم أوافق.. ماذا ستفعل؟!

فنظرت حولي وأنا أزم شفتيّ.. ثم انقضت على "سلسبيل" وأحكمت قبضتي وأخرجت خنجراً من جيبي و وضعت نصله على رقبتها فانتابها الفزع والتف الحراس حولنا وكان "خازن" فزعه أكبر من فزعها بينما أنا صدمتي أكبر من فزعهما.

-20-

"الصدمة"

سمعت أصوات الحراس وهم يقتربون مني وأنا منفرد "بسلسبيل" وأمامي "خازن" وحراسه ولكن ورائي مجموعتي التي كان عددها أقل من حراس "خازن" فوجدته يعلو صوته ويأمر الحراس بإحضار "تسنيم" فوراً فتظهر "تسنيم" وهي منهكة وبها كدمات فيصرخ "خازن" في وجهي:

- خذها واترك سلسبيل..

- لا أثق بك..

أتلذذ وأنا أشاهد "خازن" وهو مذعور هكذا كطفل صغير، تائه، متعلق.. ثم ضغطت بخنجري على رقبة "سلسبيل" بقوة أكبر فقال بصوت منتحب وبنبرة بها شيء من التوسل:

- زاهر.. أنت لن تصيبها بمكروه.. فهي كانت حبيبتك..

- نعم.. أنت محق.. كانت حبيبتي!

ثم قمت بتحريك السكين على وجهها وشممت شعرها قائلاً:

- لم تعد سلسبيل.. أصبحت رائحتها عفنة مثلك.. وعندما أرى وجهها.. أستعيذ بالله منه!

فصاح كالمجنون:

- خذ تسنيم واغرب عن وجهي.. وأقسم أنك إن مسستها بسوء سأقتلك!

ثم أمرت رجلاً من مجموعتي:

- خذها واجعلها تقف بجانبي..

فاقترب منها ثم أومأ "خازن" برأسه ليسمح للحارس بإطلاقها فأصبحت بجواري ولم أترك "سلسبيل" فقال:

- اتركها أرجوك..

سمعت أنفاسه المتلاحقة ونحيبه ورأيت بحار دموعه في مقلتيه فسألته:

- لماذا فعلت ذلك؟!

- لأنني أحبها منذ زمن بعيد.. ثم خلقك الله وخلق بنو البشر ليثبت أنكم أفضل منا جميعاً.. أفضل من الملائكة والحوريات والجان والشياطين.. فلماذا يكرم الله بني آدم ولا يعبأ بنا هكذا؟!

لم أعرف أن للحقد صوتاً فكانت نبرته حاقدة ومتكبرة فقلت له:

- لقد أعطاكم أكثر من فرصة وأضعتموها..

- ولهذا نحن نثبت له أنكم أسوء منا جميعاً وسنغويكم وسنعوث في الأرض فساداً حتى نودي بكم إلى الهلاك والجحيم..

- ولكنني كنت صديقك.. ولم أنتوي لك الشر قط!

- ولكنك كنت دوماً أفضل مني والله يحبك أكثر مني وأنا أعاتبه على ذلك.. حتى أهل الجنة كانوا يحبونك.. وكنت أُغار وأستشيط غضباً عندما أراك مع سلسبيل.. والآن أراك محبوباً على هذه الأرض ولا أعرف لماذا!

- كيف تعاتب الله وتعاتب خلقه ولا تعاتب جحودك وحقدك وغرورك؟!

- معك حق.. فهو الإله يفعل ما يشاء.. يعاقب أو يسامح.. وله الحكم والحكمة.. ولكنك تستحق العتاب..

- وماذا فعلت أنا لتعاتبني؟!

فخطا خطوة تجاهي قائلاً:

- لم تدافع عني أمام خالقك.. ولم تطالب بأن أكون مُكرّماً مثلك..

- أنت الذي لم تشكره وطمعت في جاه وسلطة أكبر!

فضحك ضحكة مدوية قائلاً في تعجب:

- أنا؟! حقاً؟! تكذب على من؟! أتعرف.. لعل الله أحب أن يكون له خليفة في الأرض ينفخ فيها من روحه.. ولكن هذا من حقي أنا.. وسأسترده منك وسأجعل الله يشهد أن بني آدم لا يستحقون شيئاً..

- الله لا يخطىء في اختياره.. أنت تعتقد أن الأمر بمن هو أفضل.. ولكنك لا تفكر في أن كل كائن يختلف عن الآخر ولا يوجد أفضلية.. فأنت ومن مثلك تستحقون العقاب لأنكم لم ترضوا..

- وهل أنت رضيت؟!

- أعرف أنني أخطأت بشأن تمردي.. ولكنك قمت باستغلال فضولي و أطلقت وساوسك في صدور أهل الجنة

- كيف نصمت وهناك من سلب حقنا في هذه الأرض وفي الجنة أيضاً بدون أن يفعل أي شيء!

- وأنت ماذا فعلت عندما أعطاك الله الحق في أن تعيش في الأرض وفي الجنة؟!

فصمت وهو ينظر على الخنجر الذي على رقبة "سلسبيل" حيث أنها تبكي وبجواري "تسنيم" متعبة وجالسة على الأرض تحاول الوقوف فأردفت:

- لقد أفسدت في الأرض وأخرجت أهل الجنة منها وأغويتنا جميعاً..

فنظر لي نظرة لامبالاة:

- لم أفعل شيئاً.. لقد تمردت على خالقك.. ولعلي شجعتك على ذلك.. ولكن فضولك هو الذي أخرجك منها.. وإذا أفسدنا في الأرض.. فأنتم المفسدون ولكن لا تشعرون!

- الإفساد الوحيد هو أنني وثقت بك فخدعتني وخدعتنا جميعاً.. ثم وثق بك الناس لتصبح حاكماً فخدعتهم..

- نعم بالتأكيد.. كل بني آدم ملائكة ومنزهين عن الخطأ.. ولكننا نحن الأشرار والمجرمين.. أهذا ما تقصد؟!

- كل شخص بداخله ملاك وشيطان.. وهذا هو صراعنا الحقيقي..

- اترك سلسبيل وسأتركك وشأنك..

- لا أصدقك..

- هل ستقتلها؟!

- لا أعرف.. ولكنها تستحق حقير مثلك!

ثم ألقيتها على الأرض بجواره فاقداً الأمل فيهما.. فاحتضنها وهم الحراس بالهجوم ولكن "خازن" أشار لهم بيده فتوقفوا.. ثم ساعدت "تسنيم" على السير بجواري ورحلت أنا ومجموعتي ومعي حصاني.. فأوقفني "خازن" منادياً:

- تسنيم..

فتعجبت عندما نادى عليها واستدرت له.. فاقترب بأنفاسه الكريهة وهو ينظر لي بابتسامة مستفزة بينما تحاول "تسنيم" أن تلملم شتات نفسها فقال لها:

- ألم تخبري حبيبكِ أنني كنت قد كلفتكِ بمهمة قتله؟!

فتسمرت مكاني واقشعر بدني فنظرت لها وبصوت مختنق سألتها:

- ماذا الذي يعنيه؟!

فنظرت لي وهي خائفة وامتلأت عينيها بدموعها وفتحت ثغرها مشدوهة فعلا صوتي في وجهها:

- ما الذي يعنيه؟!

فسمعت ضحكته اللئيمة فضحك الحراس معه ورأيت "سلسبيل" وهي تبتسم في لؤم.. بينما أنا شعرت أن روحي تنسحب من جسدي وأنفاسي تتباطأ تدريجياً والأرض تدور من حولي وقد انقبض صدري عندما سمعت "خازن" وهو يخبرني أن "تسنيم" منذ البداية كانت جارية في بيت الحاكم وقد أمرها بأن تقتلني وكانت تنقل له كل شيء.. وحتى تصبح الخطة محكمة قد اتفق مع بعض الرجال بأن يعتدوا عليها أمامي وتصبح مستغيثة بي ولأنني أضعف أمام النساء ودوماً أحب إنقاذ غيري فلن أتركها وحدها..

ولكنها كانت دوماً تتحجج "لخازن" بأنها لم تستطع أن تقتلني اليوم حتى اتفقت معه بأنها ستنفذ عملية قتلي يوم اكتمال القمر ولم تكن "سلسبيل" تعلم بذلك فعندما سمعت "خازن" وهو يتحدث مع "تسنيم" ويتفق معها فغضبت وشعرت بالغيرة فذهبت لمواجهتي.. وبعد أن فاض الكيل "بخازن" هدد "تسنيم" بأنه سيقوم بخطفي وقتلي فتوسلت له بأن لا يقوم بذلك ولكنه فعلها.. وبعد أن فقدت الذاكرة.. كان الأمر سهلاً عليه.. وأحب أن يراني مذلولاً وليس مقتولاً وكانت لاتزال "تسنيم" تعمل معه ومع "مأمون".. ولكنه عندما وجد أنها قد أخذت صفي وأحبتني وأصبحنا عشيقين ثار الدم في عروقه خاصةً بعد أن قمت بخطف "سلسبيل".. فقام بتعذيبي وتعذيب "تسنيم".. وبعد أن أنهى قصته شعرت بخفقة في قلبي وشلل في تفكيري ولم أعد أشعر بأطرافي كأن روحي تسللت وذهبت إلى خالقها وبقيت واقفاً بجسد خاوٍ.. ثم صرخت "تسنيم" في وجه "خازن":

- لماذا قلت له ذلك؟! لقد وعدتني أنك لن تقول شيئاً..

فوقعت على الأرض وهي تسند جسدها بيديها وتملأ أرضها دموعاً وهي تبكي مقهورة بينما أنا في صدمتي صامت لا أصدق ما يحدث ولماذا يحدث؟!

"سلسبيل" خائنة بضمير غافل.. "خازن" بغدره يتباهى.. و"تسنيم" أبهرت الشياطين.. أما أنا.. كبش أعمى!

تركتهم ورائي ورحلت مع "عنبر" وتمشيت وأنا شارد الذهن لا أعرف إذا كنت ضحيتهم وقد افتدوا بي أم ضحية إلهي أم ضحية نفسي.. فأنا لست ملاكاً بلا أخطاء ولعلي أستحق ما أنا فيه.. فمن لا يخاف من مواجهة نفسه حتى لا يموت من جلد ذاته؟! ولكن كي أكون صريحاً مع نفسي.. فضولي وتطفلي هو الذي جعلني أنجرف وراء شهوتي وأستسلم لوساوسي وأذهب إلى الشجرة التي قد حرمها الله.. فقد كنت أشك أن هناك مكاناً أفضل من الجنة وكنت أتضور جوعاً للمعرفة.. فأردت أن أعرف لماذا خلقنا الله في جنة بدون أن نتعب لأجلها فأنا لست مبروكاً أو مؤمناً بحق.. أنا لا أستحق شيئاً سوى المعاناة التي اخترتها.. فذلك الفضول جعلني أرى أن الله ليس عادلاً وأردت أن أتمرد عليه وعلى حكمته.. لم أشكره على النعيم الذي أقامني فيه ولكنني كنت قانطاً وجاحداً لأنعمه.. فأنا لست بملاك.. ولكنني أظهرت شيطنتي وتكبرت بفضولي وبمحبتي للمعرفة فأصبحت نداً لإلهي ولم أدرك ذلك.. لم أرى عدله أو حكمته أو رحمته.. لم أتعلق به.. ولكنني تعلقت "بسلسبيل" ثم قمت بخاينتها مع "تسنيم" التي عشقتها.. فلم أحب سوى نفسي.. أردت أن أتحكم في كل شيء وأسيطر على كل من حولي.. كنت أستغل "خازن" وكل من في طريقي كأن من حقي أن أعرف كل شيء يحدث حولي ومن حقي أن يحبني الجميع ويطيعني ولا يشكو.. فكنت دوماً كالطفل المدلل الذي وضع في رأسه صخرة وفي أذنيه الطين والعجين حتى لا يفهم ولا يسمع سوى نفسه فيشعر أنه يملك كل شيء بينما كل البشر لم أعطي لأحد منهم فرصة لأسمعه أو أفهمه.. فاجتاحني الكبر والغرور واعتقدت أنني سأحرر نفسي وسأحررهم من الجهل.. ولم أدرك أنني أجهل الجهلاء ولم يكن لديّ ما يجعلني ذكياً فوجدت نفسي في سجن باختياري الحر حتى أرضي كبريائي.. وعندما فقدت ذاكرتي.. كانت فرصتي لأستشعر نعمتي وروحانيتي.. فقد أعطاني الله الفرص لأعود إلى رشدي وإنسانيتي ولكنني أضعتها بأكملها كما أضعت كل من أحب.. وأضعت نفسي التي بحثت عنها في قلوب الآخرين.. فأنا لم أعبد الله ولكنني عبدت نظرات العباد وحاولت أن أرضي فضولي وغروري وكبريائي.. ولم أفكر في أن أرضي إلهي أو أرضي نفسي.. ولكن إرضاء شهوتي وقلبي وعقلي كان أكبر.. فكان كُفري بأنعم الله هو الغالب على أمري واعتقدت أنني بصير وعليم وحكيم..

اعتقدت أنني ملاك بريء.. لكنني اكتشفت أنني غارق في جشعي وأطمع في كل شيء ليس من حقي فأنا لست ضحية ولكنني الجاني الذي جنيت على نفسي وعلى كل من حولي وجعلتهم يأكلون من الشجرة ومهدت الطريق "الخازن" و"سلسبيل".. فذهب الجميع إلى المعاناة بأرجلهم وكنت أعتقد أنني منقذ لهم لكنني أغرقتهم جميعاً وغرقت معهم.. فهل أنا إنسان تائه أم ملاك أخرق أم شيطان متجسد؟!

-21-

"أعلن استسلامي!"

لعله عقاباً.. لعله درساً.. لعل الله يريد لقلبي ألا يتعلق بأحد مرة ثانية وألا يتعلق بدنيا فانية وألا يتعلق بأحد سواه ولكن كيف أتحمل رؤية قلبي وهو مشتاق لكنه يعجز عن إيصالي لمن أشتاق إليه؟! فأنا لا أعرف إذا كان تعلقي مرضاً أم شيئاً طبيعياً.. لكنني أشعر أن قلبي قد انخلع من بين أضلاعه وأصبح وحيداً، منعزلاً مثلي لا يتحمل أي شيء وصار خائفاً من كل شيء.. فلا يرغب في أن يتعلق بأحد لكنه يبكي دماً لا يتوقف!

فكرت في الإنتحار.. فكان فضولي يلح عليّ ليجعلني أعرف ماذا سيحدث إذا انتحرت؟! ولكن خوفي كان يمنعني بشدة كأنه إنذار إلهي.. وهل من العقل أن ينتحر الإنسان وهو ميت ومقتول عدة مرات؟!

ثم فكرت في الإلحاد وعدم الإيمان بإلهي.. حيث وجدت حولي المئات بل الآلاف من البشر يعبدون حجراً وشمساً وبشراً مثلي.. فقد كنت أعبد "سلسبيل" ثم عبدت "تسنيم"..

تسائلت لماذا عندما نتعلق بشيء أو بشخص يأخذه الله منا.. فنفتقد ما تعلقنا به.. أو لا يحفظه لنا فنشعر بالوحدة والتيه ثم عرفت أن الله يحبنا ويُغار علينا ولا يريدنا أن نضيع وقتنا فيما سخره لنا.. ولا يريدنا أن نتصرف في حياتنا مع ما لا يليق بنا فنتعلق بما هو دون مكانتنا ونعبد ما دون الله ونُسَخّر أنفسنا لكل شيء أو شخص يدهس كرامتنا.. فالله يعرف قيمتي ويحافظ على كرامتي وتعلقي بغيره يقلل من مكانتي!

ولكن بالرغم من تيقني وشعوري الدفين بوجود الله.. ولكن لا يوجد من يجزم أنه غير موجود لأن روحه بداخلنا وتوجد العديد من الأدلة التي تجعلنا نطمئن لوجوده كالموت والمشاعر والعقل والقلب والحلم الذي يجعلنا نشعر أن روحنا تسبح في السماء وفي الأكوان.. فسبحان من جعل عقولنا لا تدركه ولا تراه لكنها تؤمن أنه حولنا بالفعل.. فمن يكفر به ليس كافراً.. ولكنه شخص غاضب مثلي.. فمن استغنى عن الله وابتعد رغم أنه غني عن العالمين.. يصبح في حال من الحالين.. حال يجعله مصدوماً ومتضايقاً وهذا هو حال الحب كما يحب المحب محبوبه فيتدلل عليه ويقاطعه حتى يصالحه.. وحال آخر ينكر وجود الله ويرغب في أن يعبد شيئاً ملموساً يتحكم به وهذا لأنه ساخط على خالقه وقد امتلأ قلبه كبراً وتمرداً وجحوداً فأصبح شيطاناً أو إله نفسه فيرى أنه قد خلق روحه أو الطبيعة قد خلقته أو جاء صدفة.. وأعتقد أن هذا درب من الجنون.. أما الحقيقة هي أننا نغضب من حكمة الله التي لا نعيها.. ولكننا لا نستطيع إنكاره.. فالكفر غطاء يخبىء الحق.. ولكننا نرى ونشعر بأشياء خارج نطاق عقولنا.. فكيف لا يوجد خالق وراء حواسنا وأنفاسنا ودقات قلوبنا و وراء سمائنا وأرضنا وكل ما حولنا وبداخلنا.. فنحن لا نحب أن يسيطر علينا أي شيء.. ولكن نحب أن نسيطر على كل شيء فقد خُلقنا ولدينا رغبة دفينة لعبادة أي شيء نستعين به فيطمئننا وينتشلنا من واقعنا.. حتى ولو هذا الشيء داخل أدمغتنا.. ولذلك من يغضب من إلهه الغني عنه.. يغرق في بحار من البؤس!

في الحقيقة أنا لا أعرف ما الذي يحدث لي ولماذا يحدث؟! ولكنني لم أعد مبروكاً أو إنساناً كما كنت قبل ذلك.. فقد أدمنت شرب النبيذ والخمر وأصبحت أتسامر مع أصدقاء لي وأحاول أن أتغاضى عن نظرات الناس وأنا أسمعهم يهمهمون بأنني قد جننت.. ولعلهم محقون.. وفي كل صوت أسمعه أشعر بغصة في صدري.

أصبحت أستقبل أصدقائي في بيتي كل يوم ونصطحب النساء فنسكر ونغيب عن الوعي ونضحك ونرقص ونعاشر الجواري وكل ذلك هرباً من مواجهة روحي حيث أشفق على نفسي وأنظر على كل شخص معي وهو يحاول الهروب من معاناته إلى عالم من النشوة والوهم الذي يجعلنا ننسى واقعنا المرير..

ثم وجدت من دخل علينا فعدت إلى وعيي ثم رأيتها وهي تضع يدها على أنفها فقد كانت رائحة النبيذ معبأة في المكان فشاورت لأصدقائي حتى يرحلوا ثم عاد إليّ وعيي بعد أن رأيتها.. وما أعجب ذلك القلب الذي يتعلق بشخص في البداية ويراه قمراً منيراً على الأرض وبعد أن يصيبه بانقباضة فيتحول إلى كلباً خبيثاً..

لا أعرف إذا كنت أنتظرها وقد فرحت لمجيئها أم كنت لا أرغب في رؤية وجهها ثانية.. فدنت مني وأنا أجلس أمامها على كرسي خشبي مهترىء فم أنبس ببنت شفة ولكنني كنت أتفحصها متعجباً غدرها الذي ترك نقطة سوداء في قلبي.. تبادلت بيننا النظرات وكل منا منتظر ليبدأ الآخر ثم أخذت كأساً فارتشفت رشفة وأنا أتذوق نبيذي المُر الذي لم يكن كمرارة حياتي.. فوجدتها تقف أمامي لا تريد الجلوس وآثار دموعها في عينيها قائلة:

- لقد تغيرت كثيراً..

فابتسمت وأنا أتعجب من كلامها وتذكرت أنها نفس الجملة التي قالتها لي "سلسبيل".. لماذا نرى من أمامنا بكل وضوح أنه قد تغير بينما لا نعبأ بالتغير الذي يطرأ علينا؟!

كنت أدمن فضولي للمعرفة وأدمن "سلسبيل" ثم أدمنتها.. والآن أدمن الخمر.. فلعلي خُلقت لأكون مُدمناً. توقفت أمامها مترنحاً وأمسكت بذراعها في عنف حتى شعرت أنني أعتصر عظامها كما اعتصرت قلبي فتأوهت قليلاً وهي تقول:

- أنت تؤلمني..

فزرفت دمعة متسللة من عيني:

- ليس كما آلمتني.. فقد كذبتِ عليّ عندما استغليت فقدان ذاكرتي وقلتِ أنكِ كنتِ حبيبتي.. ولكنني لم أهتم وسامحتكِ وقلت لنفسي.. "إن تسنيم تحبك"..

- أعترف أنني كذبت عليك.. ولكنني لم أغدر بك..

فضحكت مستهزئاً بكلامها ثم سألتها:

- لماذا لم تقتليني؟!

- لأنني أحببتك!

فتركت ذراعها و وليت لها ظهري ضاحكاً في مرارة فرأيتها تركع أمامي متوسلة لي:

- سامحني أرجوك.. أنا لم أحب سواك..

- أنتِ مدمنة على الكذب..

- لا كذب في الحب..

- الحب ما هو إلا كذبة!

- سأثبت لك أنني أحبك أكثر من سلسبيل..

- كما أثبتِ من قبل؟!

قلت ذلك ساخراً وعرفت أن قلوبنا قد خلقها الله عزيزة ولكننا نعطيها لمن لا يستحق فتصبح ذليلة فتوقفت وحاولت أن تحتضنني ولكنني دفعتها بعيداً وأشحت بوجهي عنها فسمعت خطواتها وهي ترحل فنظرت لها بطرف عيني وكبحت دموعي وأردت أن أضمها بين ذراعيّ ولكن كرامتي لم تسمح لي.. فناديت عليها فالتفتت مبتسمة كأنني الأمل الذي سمعت صوته فسألتها:

- لماذا تراجع خازن عن قتلي؟!

فنظرت في الأرض قائلة:

- لقد أحب أن يراك مذلولاً أمامه..

فدنوت منها كأنني أقرأ أفكارها:

- وعندما سألكِ لماذا لم تقتليني.. فاقترحتِ عليه أن أكون عبداً يتلذذ بتعذيبه بدلاً من أن يقتله..

ثم نظرت لي غير مصدقة وأومأت برأسها علامة الرفض فأمسكت بوجهها صارخاً في غضب:

- كفاكِ كذباً.. أنت لم تحبيني قط.. وسلسبيل لم تحبني.. وخازن أيضاً.. حتى ربي لم يحبني يوماً.. من يحبني؟ لا أحد.. تريدونني ذليلاً أو مقتولاً.. لماذا؟! ماذا فعلت أنا لأدفع ثمن ذلك وأعيش في ذل وهوان!

فدفعتها حتى وقعت أرضاً.. ثم تكلمت بصوت مختنق:

- لقد خلقك الله في نعيم مقيم وأنت الذي رفضته.. أنت الذي اخترت سلسبيل لتكون حبيبتك واخترت خازن ليكون صديقك.. ثم تلوم الله على اختياراتك.. لماذا لا تلوم نفسك يوماً على أنك اخترت ذلك؟! ولماذا تلومني؟!

فنظرت لها نظرات تدق شرراً فأردفت:

- أنا أعترف أنني كنت أريد قتلك بأمر من خازن لأنه يحقد عليك.. ولكنني أحببتك بالفعل.. فهو قد أخبرني أنك شيطاناً على الأرض وانت الذي أخرجتنا جميعاً من الجنة فصدقته.. وقد خفت من أن يعذبني وفي الحقيقة كنت أريد أي شيء منه لأجد قوت يومي وكنت أريد أماناً حتى لا يتم التعدي عليّ فلماذا لم تفكر في معاناتي؟!

فصمت وقد مس كلامها شغاف قلبي وشعرت أنني أصبحت إنساناً بقلب توقف عن الشعور وعقل توقف عن التفكير ولكنني أمسكت رباطة جأشي وقلت:

- من الوقاحة أن نبرر الغدر والكذب والخيانة!

ثم وقفت لتصرخ في وجهي:

- وأنت لم تغدر بي عندما رأيتني أذوب فيك عشقاً بينما كنت تجعلني أبحث معك عن سلسبيل تلك الخائنة؟!

فابتسمت لها نصف ابتسامة:

- أنا أعترف أنني لست ملاكاً.. ولكنني لم أتوقع أن جنتي على هذه الأرض تصيبني بسهام من الخذلان فتخترق قلبي وتجعلني أرى أنني لا أستحق جنة أو حياة..

أومأت برأسها موافقة ونظرت لي نظرات حادة ثم رحلت وهي تُظهر لي أنني قد كسرت قلبها ولكنها هي التي أخذت قلبي المتهشم ودهسته بقدمها وهي تحاول أن تُثبت برائتها.. لكنني اكتفيت من كل شيء ولا أريد أي شيء فعرفت أن عزة نفسي في تعلقي بربي الذي خلقني فقط لا سواه.

-22-

"هل خسرت كل شيء؟!"

ركبت حصاني "عنبر" وتجولت قليلاً بدون وجهة أترنح بين شعور بالذنب حيث أجلد ذاتي وبين شعور بالقهر والظلم والاضطهاد فألوم إلهي وأقداري ومن حولي حتى يأست من كل شيء.. وبينما أنا أنظر إلى السماء فارتعدت فرائصي عندما وجدت القمر أوشك على الكمال.. هل "تسنيم" كاذبة في ذلك الشأن أيضاً؟!

- أيها العبد..

سمعت صوتاً مألوفاً فوقفت بالحصان ثم استدرت بوجهي ثم شعرت بالحبور فنزلت من على حصاني وركضت ناحيته لأحتضنه كأنني أحاول التشبث بأي شخص أعرفه ثم قلت:

- لقد افتقدتك يا ذا الأسماء المتعددة..

فضحك ضحكة مدوية ثم قال:

- لقد ذاع صيتك هذه الفترة فبحثت عنك كثيراً وسألت عنك..

فصمت قليلاً وشعرت برجفة تسري في جسدي من الفرحة التي أصابتني فقد هبطت على هذه الأرض أبحث عن آخرين ولم أجد من يبحث عني.. فسبحان من يؤلف القلوب ويلقي الحب والقبول في بشر بتوقيتات محددة فسبحان من خلق هذا الحب الذي يقذفه في قلوبنا ويجعل بيننا ذلك التآلف والألفة!

تعجبت عندما رأيت الشيب ملأ رأسه والتجاعيد قد احتلت وجهه فلا أعرف لماذا نشيخ ونشيب؟! ثم قلت له:

- لقد كنت لقبت بالمبروك حيث كنت أداوي المرضى ولكنني اكتشفت أنني لا أصلح لهذا الشيء!

فتلاشت ابتسامته من على وجهه ثم تمشينا قليلاً وبجواري حصاني "عنبر".. وبالرغم من أنني كنت أتلقى السلام والتحيات وأنا معه لكنني كنت أشعر بصخرة على صدري فلا أريد أن يعرفني أحد ثم قال لي:

- لقد كنت عبداً في بيت من بيوت الأغنياء ولكنه حررني لأنه رآني أستحق الحرية.. ولكنني حزنت كثيراً لأنني أصبحت بلا أهمية على الإطلاق.. وعندما سمعت عنك كثيراً أحببت أن ألقاك لتساعدني!

فضحك وابتسمت نصف ابتسامة ولم أرد.. ثم أوقفني حتى أصبح أمامي ليتحدث معي بجدية:

- اسمعني جيداً.. لعل الله أراد أن يجعلنا نتقابل ثانيةً.. ولكن لا يوجد شيئاً يحدث عبثاً أو صدفة ولا يوجد على هذه الأرض مخلوقاً ليس لديه قيمة أو أهمية!

فتعجبت من تغير الأحوال بيننا ثم سألته في برود:

- وما هي أهميتك؟!

فصمت قليلاً و زفر ضيقاً ثم قال:

- أنت تعرف جيداً أنني كنت غاضباً من الله.. ولكن عندما رأيت ابنتي قد ماتت أمام عيني..

فتوقف عن الكلام ثم نظرت له مشفقاً وهو ينتحب وتمتلىء عينيه بالدموع فأكمل:

- عرفت جيداً أننا نعيش هنا مؤقتاً.. لا أعرف أين ذهبت ابنتي.. ولكن هناك شيئاً سحرياً بداخلنا يجعلنا تتنفس ونرى ونتحرك.. وعندما يذهب ذلك الشيء.. يصبح الإنسان جسداً بالياً يتلاشى شيئاً فشيئاً ويصبح بارداً بلا قيمة أو أهمية.. كحجرة ملقاة في الصحراء.. ولعل ذلك الشيء هو الروح التي نفخها الله بداخلنا وأعطاها لنا ليرانا كيف سنستغلها.. وعندما ينتهي دورنا نعود إلى من خلقنا..

- وماذا كان دور ابنتك؟!

فبكى واحمر وجهه وقد شعرت بسخونة جسده عندما اقترب مني قائلاً:

- جعلتني أؤمن به.. وجعلتني أبحث عن دوري..

- لعلنا لا نختار أدوارنا.. ولعلنا لعبة في أصابع إلهنا يحركها كما يشاء..

فصرخ في وجهي قائلاً:

- لا.. لا تقول ذلك! ربما لست مسئولاً عن خلقتك أو ظروفك أو بيئتك أو أقدارك التي لا تعلم عنها شيئاً.. ولكن الله كتب لك دوراً يناسبك.. وأنت فقط المسئول الأول في أن تعرف مهمتك وتكمل طريقك أو تستسلم..

- ولكن ما ذنبي أنا في ما اختاره لي؟!

- نحن ندفع ثمن أخطائنا ولكننا نكابر.. فاعترف أنك أخطأت عندما كنت طماعاً وجاحداً ولم تشكر خالقك وتمردت عليه بفضولك.. ولأنه يحبنا جعلنا نعيش على هذه الأرض ليرى من منا يستحق الحياة أو الموت.. ولعلنا نعود إليه وإلى جنته..

- وهل تعتقد أن الله سيساوي بين من قام بتعمير الأرض وبين من قام بالإفساد فيها بما أن كلاهما سيموت في نهاية الأمر؟!

فأومأ برأسه رافضاً:

- لا أظن ذلك.. ولكن الله بداخلك وبداخلي وبداخل كل منا.. روحه المقدسة التي نفخها فينا تثبت ذلك.. فربما لا تختار مرضك أو موتك أو طباعك.. ولكنك تختار أفعالك.. وتختار التحكم في ردود فعلك.. فأنا أرى أن الله وضع فيك القبول بين الخلق.. ولكنك تختار الآن الإستسلام وترفض هديته لك!

- لا أريد أن أختار شيئاً.. ياليتني خُلقت شجرة..

فأمسك رأسي بشدة حتى آلمني قائلاً:

- لا تكن غبياً.. نحن نحتاجك.. والقمر قد أوشك على الإكتمال.. وخازن يريد أن يحرق البلدة بأكملها حتى نخاف منه فنعبده ويبقى هو الواحد الأحد ليسيطر علينا جميعاً ويصير المُلك له وحده..

- ولكنني أشعر أنني عاجز وضعيف وأحتال على الناس..

- أنت لا تعرف قدراتك.. وقد وثق الله في خلقه.. فلماذا لا تثق أنت في خالقك؟!

- ولماذا لا يتدخل هو وينهي كل ذلك ويرحمنا فنعود إلى جنتنا؟!

- لأنك لست شجرة.. لقد كرمك الله وفضلك.. ويريد أن يراك مسئولاً ومعمراً حتى تصبح خليفته التي تتباهى بها الملائكة عند عرشه!

- كيف كنت أقنعك بوجود الله والآن أنت الذي تقنعني به؟! هل لديك أي دليل يطمئن قلبي؟!

ثم وضع يده على قلبي وأومأ برأسه علامة نعم قائلاً:

- قلبك.. لعلنا لم نرى الله.. ولكن إذا رأيناه فكيف يختبر يقيننا وإيماننا؟! فدليل وجوده ليس في العقل والمنطق ولكنه في قلبك وروحك وإيمانك.. فانظر بداخلك وانظر حولك من معجزات.. كالأم التي تميز طفلها عن سائر الأطفال أو الطفل الذي يعرف والدته بين الآلاف من الأمهات.. وتجده يشبهها كثيراً كأنه دليلاً إلهياً.. وها أنت الآن لديك مشاعر لا تراها ولا تلمسها لكنك متيقن بوجودها.. وترى أحلامك التي ليس لها تفسير وتجد أفكاراً وشعوراً لا تعرف مصدرهم.. فكيف لنا أن نجحد عظمته بعد كل ذلك؟!

ثم دنا مني ونظر في استغراب قائلاً:

- أليس هذا كلامك؟! ما الذي حدث لك؟!

- أعترف أنني السبب في كل ذلك.. ولكنني لا أستطيع المواجهة والإعتراف بأنني مخطىء ومذنب وجاحد وأستحق أشد العذاب.. ياليتني لم أقترب من الشجرة.. ياليتني لم أركض وراء سلسبيل!

فربت على ظهري وتركني أذرف دموعي فتنفس نفساً طويلاً ثم زفر زفرة قائلاً:

- لقد ابتلاني الله في موت ابنتي.. لتتضح الصورة أمامي فأختار مصيري وأعيش حياتي وأعرف ربي.. ولعلك خسرت من تحب.. حتى تستعيد قلبك وتتذكر أن لك حياة ذو قيمة وأهمية وعليك أن تصل إليها فالحب يعمي الأبصار ولكنه ينير القلوب.. وكل ما حدث لك لم يحدث عشوائياً.. لكنه ترتيباً إلهياً منظماً سحرياً فنحن نبني بيوتاً بدقة شديدة وإذا جاء بعدنا بشراً لن يعرفوا من بناها.. فكيف بمن خلق كل هذا بهذه الدقة؟!

- ما الذي تريد أن تقوله؟!

- هون على نفسك يا صديقي.. ولا تخسرها هي أيضاً.. فقد أتقن الله بنائك.. ولا يريدك أن تهدم كل شيء!

ثم ابتسمت له وأومأت برأسي موافقاً فاحتضنني بقوة حتى شعرت أن قلبي قد عاد إليّ كأنه رد إليّ روحي التائهة ثم نظرت له وهو يرحل بعيداً حتى اختفى أثره وفكرت في كلامه كأن الله أرسله لي لأستفيق من غفلتي فكيف لم أفكر أن الله يجعلنا نرى الموت لنقوم بتقدير ما تبقى من الحياة ويبعدنا عن من نحب حتى نقترب إلى أنفسنا.. فيشعرنا بالوحدة حتى نجد الطريق.. فإذا حقق لنا الله كل شيء نتمناه.. فكيف نشعر بأمانة السماوات والأرض والمسئولية التي على عاتقنا؟! فقد نسيت أنني كنت أتسائل.. لماذا أنعم الله علينا بالجنة دون تعب؟!

فما أجحدنا.. فقد أعطانا أمانة ثقيلة وغالية كالروح.. ولا نزال نشكو ونسخط ونكفر بدلاً من أن نشكر ونسعى لمعرفة مهامنا ونعمل على إصلاح ما أفسده غيرنا حتى نعرف ما الذي نستحقه! فهبوطي على هذه الأرض لم يكن عقاباً.. فقد تحققت أمنيتي ليس أكثر.. ولكل أمنية ثمن غالٍ أو بخس ندفعه!

* * *

لديّ رفاهية الإستسلام.. ولكن ليس هذا ما خُلقت لأجله.. ولا أعرف ما الذي خُلقت لأجله بالضبط.. ولكنني لن أبرح حتى أبلغ.. حتى وإن لم أعرف الحكمة أو الأقدار.. سأظل أثابر لأصل إلى سبب وجودي الحقيقي وأبلغ ليلة اكتمال القمر وأواجه "خازن" الذي يخاف منه البشر في هذه الليلة.. ولكن الله اختارني.. حتى لا أخاف!

مررت على خيمة "تسنيم" ومعي حصاني "عنبر" الذي تبقى لي على هذه الأرض.. فسمعت بكائها وشممت رائحة النار التي تتدفأ بها.. فدخلت بهدوء حتى انتابها الذعر وصمتت.. فشعرت بالذنب قائلاً:

- لن أمسكِ بسوء..

ثم اقتربت فابتعدت قليلاً وهي خائفة فأمسكتها برفق وضممتها بين ذراعيّ فغرقت في أحضاني وأنا الذي أغرق وقد افتقدت رائحتها العطرة فصمتنا قليلاً حيث أن العناق حديثه أفضل من اللسان فنظرت لها قائلاً:

- أنا الذي أخطأت في حقك.. سامحيني.. أنا الذي خرجت من الجنة وأخرجت بعضكم.. وأنا الذي تعلقت بكِ.. ولم أُقَدّر حبكِ.. ولم أتقبل أعذارك رغم أهميتها.. لن أترككِ.. ولن أترك البلدة وحدها بينما خازن يعوث في الأرض الفساد.. فهذا هو دوري.. وتلك هي مهمتي.. فقد اختار الله لي حياة.. وأنا اخترت أن أكملها معكِ.

تبادلت بيننا الإبتسامات والقبلات وبدأنا نفكر في وضع خطة استعداد لتلك الليلة التي سنغير فيها الأقدار والأحوال بمدد الله وليس للإنسان إلا ما سعى لإثبات قدرة ورحمة خالقه.. فليس لدينا وقتاً للإستسلام واليأس!

-23-

"لقد حان الوقت!"

أدفع ثمن فضولي الزائد الذي أوقعني في مصائب.. ولعله قدر الله.. ولكن هل يخيرنا ليرانا ما الذي سنختاره؟! فربما قد خلق لنا أكثر من طريق ونحن الآن نتحمل نتيجة اختياراتنا.. فمن يستسلم في وسط الطريق لن يحظى بمتعة الرحلة أو متعة الوصول.. ولكن من يُكمل طريقه هو الذي سيحظى بمتاع الدنيا وبدروس تجعل ظهره أقوى لحمل أمانته.. ولكن في كل الأحوال.. نحن هنا لنثبت لله أننا نستحق أن نكون خليفاؤه في الأرض فنحن هنا لأنه يحبنا بدليل أنه غني عنا ويريدنا أن نثبت له ذلك الحب ولنتحمل مسئولية ما حملنا على ظهورنا ونصلح ما تم إفساده فينام ضميرنا ليطمئننا أننا نستحق النعيم.. حيث أن نعيمنا الحقيقي هو الوصول إلى ذواتنا وعندما نصل.. سنجد الله.. وسنعرف مرادنا وأهميتنا على هذه الأرض.. ولعلي فقدت رغبتي في كل شيء.. لكنني كنت في غفلة لأنني لم أرى قيمتي وروح الله التي أؤمن بوجودها وأشعر بها وأراها في كل نبضة قلب وفكرة وشعور.. فلا أستطيع أن أدركه بعقلي أو ببصري ولكن أصل له بإيماني الذي يجعلني أستشعر نور الله فأراه ببصيرتي.

عرفت من "تسنيم" ما الذي يحدث في ليلة اكتمال القمر ولكنني لا أستطيع تخيله.. وسبحان من خلق الخيال والأحلام فنسبح في عوالم وأكوان لا نعرف عنها شيئاً.. فالناس سيتحولون إلى مسوخ ووحوش ولا أعرف هل سأتحول معهم أم لا.. لكنني لا أهتم بتحولي.. ولكن ما يهمني.. هو ما وراء ذلك.. فلماذا نتحول في تلك الليلة إلى وحوش غاضبة؟! فهناك سر أجهله.. ولكن ما عليّ فعله أن أحاول إنقاذ هذه الأرض وإصلاحها ويجب أن أعلن الحرب على "خازن".. فمن سواه وراء ذلك الشر؟! فهو يريد أن يسيطر علينا جميعاً ويريد أن يكون إلهنا ونحن عبيده.. فما أعجب خلق الله.. لا يرغبون في إله.. ولكنهم يطمعون في أن يكونوا آلهة!

لقد اقتربت الليلة والقمر أوشك على الإكتمال محاولاً إسكات نبضات قلبي الخائفة وأخذت قراراً بأن أتولى أمر ما استخلفني الله فيه فقد جعلني خليفته التي لديها الإختيار لتعمير الأرض أو الإفساد فيها فقررت أن أتفق مع مجموعات للإستعداد لهذه الليلة ثم نفاجىء "خازن" بالإنقلاب عليه.. وهناك بعض الناس الذين خافوا.. فقمت بتعليمهم ركوب الخيل وأعددت جيشي ليعد العدة وصنعنا بضعة أفخاخ بالقرب من بيت "خازن" ثم أضرمنا النيران في بعض الأماكن وقمت بتنظيم الفرق.. فهناك فريق الرماة فوق الأشجار ممسكاً بالأسهم وفريق المشاة ممسكاً بأخشاب مضرمة بالنار وفريق الفرسان حيث أنا سأكون في مقدمته ومعنا أسياخ حارقة وخناجر وسيوف قام بصنعها بعض الحدادين واستعددنا لتلك الليلة التي لا أعرف كيف ستبدأ وكيف ستنتهي.

* * *

غطت في النوم وبجواري "تسنيم" حيث رائحتها التي تشعرني أنني لازلت في الجنة ثم فتحت عينيّ ونظرت إلى الفوهة التي نستشعر منها النسيم العليل وأسمع صوت الليل المهيب وأنظر إلى القمر الذي يظهر كأنه ثمرة تفاح أُكل منها قضمة.. وبعد قليل ستكتمل لتصبح ليلة مشئومة وغامضة لا أعرف ما ورائها وماذا سأفعل حيث أنا أجيد التظاهر بالقوة ولكن بداخلي هش كورقة شجر تائهة في الهواء لا تعرف أين غصنها.

استيقظت "تسنيم" والتفتت إليّ فانتابني الذعر ثم ضحكت:

- لا تقلق.. إذا تحولت إلى وحشاً.. لن ألتهمك!

ثم أعطتني من رحيقها فسألتها:

- ما الذي كان يحدث في هذه الليلة قبل أن أهبط إلى هنا؟!

- ما حكيته لك من قبل..

- وأنتِ.. هل تتحولين معهم؟!

فاعتدلت في جلستها وقالت:

- سترى كل شيء.. فهناك أشياء من الصعب شرحها..

فاقشعر جسدي وتمتمت بدعوات بأن ينجيني الله مما أنا فيه.. ولا أعرف كيف جننت لفترة وشككت في وجود ربي أو قدرته أو رحمته.. فكيف يجن الإنسان ويقرر فجأة بأن يعيش وحده بلا إله يعود إليه فيستند ويعتمد عليه ويستمد منه القوة.. فنحن بدون الله.. كالحصى المتشقق.. نصبح تائهون في أرض قاحلة ليس لنا أهمية وكون لا شيء فسبحان من جعل لنا كيان وقيمة فنرفض ذلك ونختار الضياع بدلاً من الرشد والسداد والنور!

ما أضعف الإنسان الذي سُلطت عليه نفسه فتوكل عليها ونسي الأمانة التي بداخله حيث روحه فعندما نفخ الله فيه من تلك الروح المقدسة.. يأخذها في سماؤه.. ليعطيها ما تستحق.. فيظهر ذلك الإنسان في الأرض قد سُلب منه عنفوانه وأصبح جسداً بالياً بعد أن اعتقد أنه قادر.. فيرى قدرة الله فيه بعد أن جحد أنعمه وخلقته المكرمة.

سمعت حارساً من حراسي يناديني فارتديت ثوبي وخرجت من بيتي حتى رأيت "سلسبيل" تقف أمامي بينما جائت "تسنيم" ورائي وقد تبادلت الأنظار بينهما.. نظرات من الغيرة كادت تصيب أحدهما.. فلم أنبس ببنت شفة ونظرت "لسلسبيل" بحدة وقد قاومت دموعي التي كانت تذرف لأجلها وتعجبت من نفسي عندما تذكرت أنني سأموت بدونها ولكنني الآن أقف أمامها مستعداً لمواجهتها.. فما أغرب المشاعر التي تجعل من الحبيبة عدوة وتجعل العين ترى ملامح المحبوب في بداية الأمر كقطعة من الجنة تستحق أن أتغزل في جمالها ولكن موقف واحد كفيل ليجعل العين ترى نفس الملامح.. كقطعة ثوب متسخة، بالية!

أدخلتها بيتي وجلسنا سوياً بينما كانت "تسنيم" واقفة.. فنظرت لها نظرة فهمتها ودخلت إلى غرفتي بينما كان يقف حارسان بجواري.. وقد تبادلت بيننا النظرات كأننا متعجبان من تغير الحال كعادة الدنيا فبادرت وسألتني:

- ماذا تريد؟!

فتعجبت من سؤالها واقتضب جبيني ثم قلت:

- هذا ليس من شأنك!

فضحكت قائلة:

- أنا زوجة الحاكم..

ثم ابتسمت نصف ابتسامة:

- تقصدين جاريته!

فزمت شفتيها قائلة:

- لقد جئت لأحذرك بأنك إن فعلت أي شيء في هذه الليلة ستندم أشد الندم..

لا أعرف كيف ألهمني الله ذلك البرود ورباطة الجأش فضحكت في وجهها قائلاً:

- هل أنتما خائفان؟!

فنظرت لي في تعجب:

- أنت لا تفهم شيئاً.. أنت لا تعرف ماذا تريد.. تائه في الجنة.. وتائه على الأرض.. أنت حقاً مثير للشفقة!

لعن الله حساسيتي التي لا تمنع الكلام يمر مرور الكرام فيتحول إلى سيخ من نار حارق يخترق قلبي وينهش روحي فكبحت جماحي واستعدت رباطة جأشي ثم وقفت أمامها متظاهراً بالقوة والثقة قائلاً:

- سنرى من سيشفق على الآخر..

ثم شاورت على الحراس بإماءة رأس فاقتربا إلى "سلسبيل" ثم التفت فتوقفا.. واتجهت إلى الباب لتخرج وتغلقه ورائها كأنها أغلقت على قلبي وطويت صفحة من قصة لم أتخيل أنها ستنتهي وستتحول إلى مأساة ولعنة وتصبح علامة سوداء في حياتي!

عدت إلى غرفتي ثم سألتني عما حدث فقد طرقت أذنها ولم تسمع جيداً ولم تفهم شيئاً فبعد أن حكيت لها قالت:

- يكفي ما حدث لك في الجنة.. أنا أرى أن لا تتحداهما..

- لماذا؟!

- أخاف عليك بأن يصيبك مكروه..

- ولماذا خُلقت إذن؟!

- وهل نحن خلقنا كي نحارب؟!

- لا أعرف.. ولكن كي يعم السلام والعدل في الأرض..

- هذه وظيفة الرب وليست وظيفتنا..

- ألا تخذلين من نفسك ومن هذا الكلام؟! لا أريد أن أظهر ضئيلاً أمام الله بعد أن جعلني مكرماً وباهي بي الملائكة فعندما يأخذ روحي وأقف أمامه لا أريد أن أشعر بذنب ويكفي أن يكون ضميري مستريحاً..

- وهل طلب منك الله بأن تصلح الكون وتنقذ الناس؟!

- شيء ما في داخلي كأنه صوت ربي يخبرني أنه خلقني لهذا الشأن.. فلعلها رسالتي.. فقد طلبت منه أن يرشدني وييسر لي ما خلقني له..

زفرت "تسنيم" في ضيق ثم نامت وقد نام ضميري معها وهو يطمئنني أن ربي أنار لي ظلمة قلبي وطريقي.

-24-

"ليلة اكتمال القمر"

سمعت صراخاً بالخارج وسمعت غوغاء وضوضاء وأصوات سيوف ثم شممت رائحة حريق ورأيت دخاناً يملأ المكان وتذوقت رائحة الرماد فسعلت بشدة ثم رأيت شخصاً يقترب مني فوجدت "سهيل" يرتدي رداء أبيض ويبتسم لي قائلاً:

- تعلّم من خطيئتك وإياك والندم.. فهو مهلكة للنفس!

ثم رحل وسمعت بجواري صوت شخير يصم الآذان فاستيقظت ونظرت بجواري فلم أجد "تسنيم" ثم تلاحقت أنفاسي ونظرت حولي فرأيت كائناً يملأه السواد وعينيه جاحظتان ويصدر أصواتاً مزعجة.. فاقترب مني ليخنقني وكادت أنفاسي تنقطع ثم رأيته قد ارتطم بالأرض وأُضرمت فيه النيران فرأيت "تسنيم" هي التي فعلت ذلك فحمدت الله أنها بخير ثم رأيناه وهو يحترق صارخاً فخرجنا سريعاً ولكنني أوقفتها:

- ابقي هنا أرجوكِ..

- لن أتركك!

فأومأت برأسي موافقاً وبداخلي الخوف ينهش جسدي.. ثم خرجنا حتى رأيت جيشي يتعارك مع مسوخ ضخمة لديهم أربعة أقدام بينما يحاول جيشي المقاومة فرأيت الرماة وهم على الأشجار يقذفون السهام والفرسان يقوموا بالهجوم وهم على خيولهم ومعهم سيوفهم وأدرعتهم ثم ركبت "عنبر" وحملت "تسنيم" لتركب خلفي ثم أمسكت سيفي وحاولت أن أمسك زمامي وهجمنا على هؤلاء الوحوش وكنت أعتقد أنني سأتحول مثلهم ولكن أعتقد أن ذلك التحول يكون من نصيب صاحب القلب الذي ينبض بالبغض والشحناء!

جسدي يرتعد وأنا أنظر إلى هؤلاء المسوخ حولي ونحن نحاربهم بكل ما أوتينا من قوة حتى احترقوا جميعاً وخسرت بعضاً من رجالي ولكنني أمعنت النظر في رجل ينزف على الأرض فنزلت من على حصاني وركضت إليه فوجدته صديقي ذو الأسماء المتعددة فحملته وبصوت منتحب:

- لا تمت.. أرجوك.. لا تتركني!

فسعل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- لا تنساني في دعائك.. سأذهب وحدي إلى الله.. ولا أعرف ماذا سيفعل بي!

فذرفت دمعة من عيني ثم أكمل:

- لا تبكي.. ولكن احتفي بي لأنني سأعود إلى خالقي..

ثم ابتسم وهو يقول لي:

- لا تكن أنانياً.. فلن أبقى معك إلى الأبد.. روحنا أمانة يجب أن تعود لله.. أشكرك أنك جعلتني أؤدي رسالتي..

ثم أصبح خفيفاً على يدي فتأملت رحيل روحه تاركةً جسده الذي سيصبح تراباً كما كان وشعرت ببرودة جسده ورأيت شحوب وجهه البشوش فودعته ومسحت دموعي ثم علا صوتي بنبرة غيظ قائلاً لجيشي:

- إلى بيت خازن الآن.. هياااااا

ركبت حصاني "عنبر" بينما أمسكتني "تسنيم" جيداً وحولي جيشي متجهاً إلى بيته ثم وجدته بجسد حصان وقرون ثور وحوله حراسه مسوخاً و وحوشاً ضخام يشوبهم السواد فقال لي بصوت أجش:

- أتعجب من أمرك يا زاهر.. تتحدى الله في الجنة.. وتتحدى الحاكم على الأرض!

- قل لي ما الميتة التي تناسبك؟!

فضحك ضحكة مدوية ثم قال للحراس بعد أن اقتربوا مني:

- دعوه وشأنه.. إن روحه أصبحت ملكي الآن.. سأتلذذ بها..

فضغطت "تسنيم" على ذراعي فربت على يدها وأنا أنظر له في تحدي ثم اقترب حراسه فاقترب جيشي ولكن قائد الحراس أوقفهم فجأة ثم وقف أمامي و ركع على الأرض ويليه بعض الحراس بينما البقية تعجب فصرخ "خازن" قائلاً:

- ماذا تفعل؟!

فاستدار القائد ثم رجع إليه وهو يقول:

- نحن لم نرى من زاهر سوى الخير.. فقد باركنا وشفانا وكان دوماً يساعدنا ويعلمنا ويرشدنا..

فأمسك "خازن" وجه قائد الحراس في عنف وهو يعض على نواجده:

- هل جننت؟! إنه عدونا..

- عذراً.. ولكنه عدوك أنت فقط أيها الحاكم..

فابتسمت في ثقة ونظرت إلى "تسنيم" فبادلتني الإبتسامة ثم رأيت "سلسبيل" قد ظهرت من وراءه ممسكة بصولجان ذهبي ومرتدية فستان أحمر من حرير يظهر مفاتنها و شعرها يلمع كالذهب و وجهها أصبح نحيفاً وعينيها متشحة بالسواد فهمست في أذنه.. ثم قام "خازن" بإخراج سيفه وقطع رقبته أمامنا.. وبعد صمت قال "خازن":

- سأسحق زاهر بنفسي.. اسحقوا جيشه المسكين!

ثم رأيت "سلسبيل" قد فردت جناحيها وأخذت "تسنيم" من ورائي كأنها نسر أخذها بين أظفاره ثم ألقتها و وقعت أرضاً.. فقلت لها:

- سأقتلك يا سلسبيل..

فابتسمت وهي تنظر لي بعينيها السوداء القاتمة فاقشعر جسدي ثم وجدت "تسنيم" تهجم عليها وتطرحها أرضاً وتبرحها ضرباً بصولجانها فشعرت بلذة وأنا أسمع صراخ "سلسبيل" فنظرت حولي باحثاً عن "خازن" و وجدت الحرب دائرة بين جيشي وبين جيش المسوخ.. ثم ناديت على جيش الرماة فوق الأشجار:

- اضربوا بسهام من نار.. احرقوهم جميعاً..

فأُضرمت النيران حولي وسمعت صهيل الخيول وضرب السيوف وصراخ الجنود وعويل المسوخ بينما أنا أبحث عن هدفي حتى وجدت من شخص مختبيء في كهف ينظر لي شزراً فناديت عليه:

- يا خازن.. ألم تفتقدني؟!

فخرج من مخبأه وهو يجري ناحيتي كثور هائج فسقطت من على حصاني.. وبينما هو ينظر لي ويقترب مني لاحظت "تسنيم" وهي تقوم بخنق "سلسبيل" بصولجانها ثم تهاوت السهام على "خازن" فصرخ صرخة مدوية ثم هرب فقمت لأركب حصاني لأجري وراءه بينما هو يركض كالحصان حتى اختفى!

بحثت عنه وناديت عليه في حذر ثم وجدت نفسي واقعاً من على حصاني ورأيته قد ظهر فوقي يخنقني ثم تجسد في هيئة بشر كما تعودت عليه وقد أمسك سيفه وضربني به عدة مرات حتى امتلأ جسدي بالجروح فصرت أتجرجر على الأرض وأحاول أن أقاوم ولكن دون جدوي.. ثم وجدته يضرب حصاني ضربة بسيفه فهرب ورحل بعيداً.. فحاولت أن أصل إلى سيفي الذي وقع على الأرض فدهسه "خازن" بقدمه وأشار لي بسيفه حتى لمس رقبتي فعلمت أنها النهاية ثم قال:

- لا أريد أن أقتلك فترتاح.. لكنني أريد أن أراك تتعذب..

فأومأت برأسي رافضاً متحدياً:

- اقتلني أو لا تقتلني.. فأنا خير منك شئت أم أبيت!

فاحمر وجهه وجحظت عيناه التي تدق شرراً ثم أشهر بسيفه على رقبتي حتى وجدته مرتطماً بالأرض فكانت "تسنيم" وهي على حصاني "عنبر" تشبه الأميرات وهي تحارب وتضربه بسيفها ثم قفزت من على الحصان وأشهرت سيخاً من حديد ساخن لتغرزه في قدمه فصرخ صرخة مدوية ثم حاولت أن أقف على قدمي ولكنني وجدت "سلسبيل" تطير حوله وتأخذني بين أظافرها وتلقيني بعيداً ثم وقفت أمامي وهي تقترب مني وتقول:

- لقد حذرتك.. ولكنك غبي!

فأمسكت وجهي بقوة ثم أخرجت لسانها الذي يشبه الثعبان فتلاحقت أنفاسي وسقط قلبي في بئر مظلم وارتعد جسدي حتى وجدت "تسنيم" وهي على الحصان تمسك "سلسبيل" من شعرها الطويل وتركض بالحصان فتتجرجر "سلسبيل" على الأرض حتى ألقتها على شجرة ممتلئة بأغصان حادة وعُلقت على شجرة.. ثم رأيت "خازن" متوجس خيفة فنظرت له وأمعنت النظر في عينيه فتراجع خائفاً حتى وجدته يقول:

- لا تنظر لي في عيني هكذا..

لم أفهم ما يعنيه ولكنني لم أطاوعه واستمررت على ذلك فوجدته يبتعد مذعوراً حتى وقع أرض ثم وقفت أمامه واقتربت منه وأنا أنظر إليه بإمعان ولم أشيح بنظري بعيداً فتسمر في مكانه وقد تعجبت من هذا الأمر.. ولكن لعل النظر طويلاً في عينيّ الشيطان يشل أطرافه ويصيبه بالذعر.. ثم سمعت صراخاً ناحية "تسنيم" و"سلسبيل" فتحركت ناحيتهما بقدم عرجة حتى وجدت "تسنيم" ممسكة بجناحي "سلسبيل" وهي تظهر أمامي مغرورقة بالدماء حتى وقعت على الأرض فحملتها متبسماً:

- أنا فخور بكِ.. لقد قتلتِ سلسبيل.. وتحاربين معي الآن.. وتحاولين القضاء على الفساد الذي يعم الأرض.

ولكنني ارتعدت تلاشت ابتسامتي بعد ما رأيته.. حيث وجدت "سلسبيل" تسير بسرعة مخيفة وتكشف عن أنيابها فتغرزها في رقبة "تسنيم" فتسمرت في مكاني مذعوراً ثم تقدمت لأنقذها ولكنني وجدت "خازن" يضمني إلى صدره ويخنقني مولياً وجهي ناحيتهما قائلاً:

- أن ترى حبيبتك هكذا أفضل من أن أقتلك بيديّ.. فلتمُت عدة مرات!

ثم ضحك وأنا أصرخ كالطفل المذعور وهي أمامي تنتفض حتى وقعت أرضاً ثم بكيت ولم أصدق ما أراه.. فنظرت حولي ولم أجد سوى "تسنيم".. فقد اختفيا "سلسبيل" و"خازن".. لماذا يفعلا بي ذلك؟!

أخذتها بين ذراعيّ مبتسمة وضممتها في أحضاني ثم بادلتها قبلة على ثغرها.. فتذوقت دمائها السائل ولم أتمالك عندما رأيتها منتصرة ومبتسمة على ذارعيّ تحاول أن تتحدث معي فسمعتها:

- زاهر.. سأنتظرك في الجنة.. ولكن لا تجعل الفضول يقتلك وتهبط مرة أخرى..

دار بيننا حواراً قصيراً.. وتمنيت أن لا أظل حياً بعد الآن.. فقد رحلت من كانت تنبض بالحياة.. من جعلتني أعرف معنى الحب.. وعلمتني إدراك قيمة وجودي.. ودفعتني لأكون إنساناً آخر.. فقد نفذت جميع حلول الأرض ولم يتبقى سوى حل واحد.. يشفي غليلي ويرد لي حقي!

-25-

"المواجهة الأخيرة"

لا يحب الجان أن نطيل النظر في عينيه فيتسمر مكانه ولا يستطيع أن يشيح بوجهه بعيداً.. وإن كان "خازن" لديه قوى خارقة.. فنحن نستطيع أن نسخرها لتكون لنا ولا أعرف كيف ضحت "سلسبيل" بروحها لتكون معه فأنا أشعر بغصة في صدري لا تبرح من مكانها منذ أن رأيت "سلسبيل" وهي تعاديني!

امتطيت حصاني "عنبر" الذي تبقى لي على هذه الأرض واقتربت من بيت "خازن" وأنا أنظر حولي وأرى جيشي وجيشه متلاحمان كالتحام السحب ببعضها والنيران تنشب من حولي والسهام تتطاير وأسمع الصراخ بينما أنا مستمر في الإقتراب محاولاً التغاضي عن ألمي الذي يستعمر جسدي.. ولم أعد أخاف من أي شيء بعد أن خسرت كل شيء.. اقتربت حتى رآني "خازن" متربصاً له فظهر عليه الفزع وهو في شرفته يشاهد الجنود وهي تتطاير واحداً تلو الآخر وبجواره "سلسبيل" وعليهما ابتسامة انتصار.. ثم هبطت من على الحصان منادياً بصوت عالٍ تشوبه الحرقة:

- اقتلني إن أردت!

فتحت ذراعيّ على مصراعيه مستسلماً تماماً.. ثم دفعني رجلاً من جيشه وهو يحارب جيشي فأوقعني أرضاً فآلمتني رأسي ثم وقفت مرة ثانية وأنا أنظر إليه:

- لا تكن جباناً..

فقال بصوت عال وهو ينظر لي:

- لا أريدك أن تموت الآن.. فأنا أحب أن أراك تتعذب وتتألم أمامي كما تعذبت أنا وتألمت..

- وما ذنبي في عذابك وألمك؟!

- لأنه قام بتفضيلك عليّ..

- لقد أعطاك فرصاً لم تغتنمها وأعطاك نعيماً لم تستشعره.. فقد كنت جاحداً ولذلك استبدلك بما هو خير منك!

فضحك "خازن" ثم هبط من شرفته هو و "سلسبيل" كأنهما على بساط من حرير بينما كان ارتطام السيوف مستمراً وصراخ الجيوش لازال في أذني حتى اقترب مني وأمسك رأسي بعنف حتى ظهر حقده في قبضته وفي أنفاسه الكريهة فشعرت بخشونة يده ولأول مرة أعرف أن للخبث رائحة.. كرائحته النتنة.. ثم قال لي:

- أعطني دليلاً واحداً يجعلني أصدق أنك خير مني..

ثم نظرت إلى "سلسبيل" وهي تبتسم لي باستخفاف فنظرت لها بازدراء ثم قلت له:

- أوقف هذا القتال.. واجعله بيني وبينك فقط!

فنظر لي نظرة إعجاب ثم تبادلت النظرات بينه وبين "سلسبيل" فأخذا يضحكان بصوت عال ونادى نداء يصم الآذان حيث ارتعدت فرائصي من صوته الأجش ليوقف القتال:

- إلى كل من في هذه المعركة.. توقفوا لتشاهدوا القتال الذي سيغير المصائر والأقدار..

أحاول أن أتذكر ما قالته لي "تسنيم".. فتذكرت أن الجان يستطيع أن يتجسد في أي صورة وتكون حقيقته حسب صورته التي يظهر فيها.. وقد قالت لي الكثير لكنني لا أستطيع أن أتذكر كل شيء.. فكان ندائه يعقبه صمت وقد التفت الجيوش في شكل دائرة و واجهت "خازن" في منتصفها و وراءه "سلسبيل" تشاهدنا.. وفجأة تحول إلى كلب ضخم مسعور جعل قلبي ينتفض وينخلع من مكانه فتسمرت واستعدت رباطة جأشي وأمسكت بسيفي حتى وجدته يركض ناحيتي فركضت يميناً ثم تحول إلى غراب كبير صوته يزعجني فوضعت يديّ على أذني فوجدت الغراب يأخذني بمنقاره ويدفعني بعيداً فشعرت أن روحي تنسل مني ثم تلاحقت أنفاسي وحاولت أن أتوقف فرأيته وهو يقوم بعرض ما حيث فهمت ما يرمي إليه فوجدته يتحول إلى نار يهرب منها الجميع ثم يتحول إلى إعصار يقترب مني فأجد نفسي أعلو في السماء ثم أهبط هبوطاً يجعلني أشعر أنها آخر لقطة في عمري فيقوم "عنبر" بمساعدتي على الوقوف حيث يمسكني بأسنانه لأقوم ثم أجد "خازن" يعود إلى هيئته ويصدر صيحة قوية تجعلني أقع أرضاً ثم يقترب مني فيضع قدمه على صدري بينما أنا أراه مشوشاً ثم يقول لي:

- كيف تحب أن تموت؟! بين أنياب كلب أم تحب أن تسقط من أعلى نقطة في السماء فترتطم بالأرض أم تنشب النار في جسدك أم ماذا؟!

فابتسمت له رغم عدم وضوح رؤيتي له وقلت:

- هذا لن يغير من الحقيقة شيء.. افعل ما تشاء.. فالعبرة بالخواتيم.. وسأكون دوماً عند الله أفضل منك..

فزفر زفرة حيث شعرت بالأرض وهي تهتز من تحتي فحملني بين يديه ورفعني في الهواء غاضباً:

- أنت لا تمثل أي أهمية.. لا تستطيع أن تفعل ما أفعله.. لا تستطيع التجسد في أي شيء.. أنت بلا قيمة.. إلهك يخدعك وسأثبت لك أنني أنا الباقي.. والبقاء دوماً للأقوى أيها العبد الضعيف!

كانت عينيه تدق شرراً فألقاني بعيداً وشعرت بزلزال يهز أوتار جسدي ثم رأيت الأرض وهي تنشق انشقاقاً فوجدت قواي تضعف ولا أستطيع السيطرة على أي شيء.. فكدت أستسلم وأخضع له وأعترف أنه هو الأقوى لا محالة فقد عجزت أن أفعل أي شيء.. واستمر ذلك الإنشقاق بينما أنا أرى الجيوش تتهاوى في حفر عميقة مظلمة ولازلت أهتز بشدة وأنا أرى "خازن" يتقدم ناحيتي وقد تملكني الخوف وفقدت السيطرة فركضت ناحية شجرة وتمسكت بها ثم تسلقتها وأنا لا أكاد أصدق ما الذي يحدث حولي فرأيت الأرض تتحطم والأشجار تسقط والجبال تُدك دكاً.. ثم وجدت "خازن" يتحول إلى وحش ضخم بوجه ذئب أسود عينيه حمراوتان وجسده جسد ثور له خوار.. بينما كانت يديّ ترتعدان على غصن الشجرة وتمنيت الموت في هذه اللحظة ولكنني لا أريد أن أموت على يد "خازن".. فنظرت إلى "سلسبيل" من بعيد وهي تضحك فكيف كنت أراها ملاكاً والآن أراها شيطانة ملعونة.. وحيثما كان يقترب "خازن" مني بتلك الهيئة تمسكت بالغصن أكثر وعجزت عن التفكير في أي شيء حتى تعجبت.. كيف أكون أنا خير منه بينما هو أقوى مني؟! فلعله على حق وليس بيدي شيء سوى الدعاء.. فألهمني الله الدعاء وتمتمت ببعض الكلمات حتى عرفت نقطة قوتي التي أستطيع أن أهزمه بها وعرفت نقطة ضعفه..

فظللت أتمتم وهو يقترب مني حتى توقف فجأة وعاد إلى هيئته الطبيعية ثم نظر لي متعجباً وخائفاً فهبطت من الشجرة واقتربت منه مستمراً في دعائي.. بينما هو يبتعد عني حتى اقترب إلى "سلسبيل" ثم قال:

- بماذا تتمتم؟!

رأيته وأنفاسه تتلاحق ويشعر باختناق حتى انقض عليّ وأمسك بفمي ليخرسني فسألته "سلسبيل" في فزع:

- ماذا يحدث؟!

فنظر إليها متجاهلاً ثم نظر لي وهو يقول:

- لن تفعلها أيها العبد! أنت عبدي أنا.. أفعل بك ما أشاء..

ثم شاور بإصبعه فالتف حولي جيشه ليمسكوا بي ويحكموا قبضتهم فأخرج سيفه المسلول واقترب مني قائلاً:

- لقد انتهيت.. وأنا الذي سأبقى.. وسأثبت لإلهك أنني أحق منك بكل شيء..

قام "خازن" بوضع سيفه على كتفي فتخيلت وهو يطيح برأسي بعيداً حيث أن جزء مني يريد أن يرتاح وجزء آخر يريد أن ينتقم.. ولكن هل رسالتي التي أعيش لأجلها هي انتقامي منه؟! فأنا لا أعيش لأثبت لأحد أي شيء ولكن لأثبت أن خليفة الله لا تستسلم ولن تترك "خازن" يعوث في الأرض الفساد.. فإذا خان الأمانة لن أخونها أنا وبينما هو يرفع سيفه ليطيح برأسي أغمضت عيني وتمتمت بكلمات فشُلّت يده فجأة و وقع السيف أرضاً ثم توقفت وأصدرت صيحة جعلت من حولي يهربون فعلا صوتي قائلاً وأنا أنظر إلى "خازن" وهو على الأرض أمامي وعينيه تتوسلان لي بأن أتوقف:

- سخرتك لي كما سخر الله لي كل ما في السماوات والأرض.. فاللهم سخر لي خازن.. اللهم سخر لي ملائكة السماء وجنود الأرض.. اللهم سخر لي الجان والشياطين.. سخر لي خازن يارب.. سخر لي خازن يارب..

ظللت أكررها وأنا أستعيد كلمات "تسنيم" في ذهني وهي تخبرني بأننا نستطيع أن نسخرهم ولكن لا أحد يستطيع أن يقوم بتسخيرنا.. ثم أخذت سيفه من على الأرض وكدت أن أُشهر به ليخترق صدره فتوسل لي باكياً:

- أرجوك.. لا تقتلني.. لقد كنت صديقك.. أتوسل إليك..

فألقيت السيف ثم أمسكت رأسه في عنف:

- كيف أثق بك؟!

- أعدك أنني سأطيعك.. وسنعيش في سلام تام..

فهمست في أذنه وأنا أعض على نواجذي قائلاً:

- سألت الله أن يسخرك لي.. فماذا تختار؟! أن تصبح عبدي؟! أم أقتلك الآن؟! أم أجعلك تعيش معذباً للأبد؟!

فأومأ برأسه يائساً وقد انقلب الأمر رأساً على عقب منتظراً رده.. ثم رأيت "سلسبيل" وهي خائفة تبكي فتسللت دمعة من عيني وخفق قلبي وأنا لازلت لا أصدق كيف تغيرت الأحوال هكذا ومن كنت أظن أنها حبيبتي وحياتي أصبحت شخصاً آخر لا أعرفه حيث أصبحت من ألد أعدائي.. فكيف تتغير نظرة إنسان في شخص كان يتلذذ برؤياه ثم أصبح يتألم ويصيبه الإشمئزاز عندما يلمحه في الحقيقة.. أو في الخيال!

-26-

"الخيار الأصعب!"

ساد الصمت وخرجت الشمس من وراء السحب فأنارت السماء والأرض وعاد كل شيء كما كان ولكنني لازلت في مواجهة "خازن" حتى تدخلت "سلسبيل" وهي تقبل يدي وتتوسل لي بأن أترك "خازن" و وعدتني بأنهما لن يمساني بسوء.. وفي هذه اللحظة تمنيت بأن يأخذني الله عند عرشه وتيقنت بأنني خرجت من الجنة لأجل امرأة لا تستحق أن أفرط في نعيمي الذي كنت غارقاً فيه فنظرت لها مشفقاً ومتحسراً ولازال السيف في يدي و"خازن" أمامي مذلولاً وخائفاً ثم قلت له:

- سأظل هنا حتى تجيبني..

فبكت "سلسبيل" بينما هو ينظر لي في غيظ:

- ماذا تريد الآن؟! لن أجيب على شيء.. وإذا أردت أن تنتصر في هذه المعركة.. فانتصر كما شئت ولكنني سأظل حاكم هذه البلاد..

- الحقيقة هي أنني لا أريد شيئاً.. فأنت تأمر وتنهي فقط وتريدنا أن نطيعك.. وكل ما أريده.. هو أن يكون لنا حق الإرادة والإختيار كما خلقنا الله!

- أنت تريد أن يعم الفساد وأنا أريد أن يعم النظام..

فابتسمت مستخفاً بما يقوله ثم رفعت السيف إلى الأعلى فوجدته مستسلماً كأنه أصبح مُسخراً لي بالفعل حتى ركعت "سلسبيل" قائلة:

- أرجوك.. لا تقتله..

فوضعت السيف جانباً ثم أمسكت شعرها في عنف قائلاً:

- أنا حقاً لا أفهمكِ.. فحياتي كانت لأجلك.. كنت أتنفس حبكِ وكانت سعادتي مقرونة بوجودك.. كيف تفعلي بي ذلك ولماذا؟!

ثم دفعتها أرضاً فقالت وهي تبكي:

- أنا لا أنكر أنني أحببتك.. ولكنني لم أخدعك

- ماذا؟!!

قلتها في قهرة وعدم فهم فأكملت:

- لقد تعلقت بي بشدة وحبي لك لم يكن تعلقاً أو عشقاً.. وفي الجنة يحق لنا أن نحب من نشاء.. ولكنك أصررت بأن أكون ملكك أنت فقط.. وهذه ليست من نواميس الجنة.. فلماذا لم تنعم بحوريات آخريات؟!

- لأنني اخترت بأن يكون قلبي ملككِ أنتِ فقط..

- إذن ليس ذنبي أن اختياراتك قد أوقعتك في مصائب..

- أنا أشعر أنني أتحدث مع شخص غريب أعرفه لأول مرة..

ثم تبادلت النظرات بينها وبين "خازن" ثم قالت:

- سأشرح لك كل شيء.. فالله خلق سبع سماوات وسبع أرضيين.. وفي كل أرض هناك نسخة مني ونسخة منك ونسخة من "خازن"..

فنظرت لها محاولاً الفهم فأكملت:

- أعني أن هناك أرضاً قد أكل "آدم" فيها من الشجرة وهبط من جنته فجئنا جميعاً.. وهناك أرضاً تعيش فيها معي كزوجة لك.. وفي كل أرض يعيش كل منا بشكل مختلف..

فترددت ولم أفهم ما تعنيه قائلاً:

- ولكنني لا أعرف شيئاً عن تلك الأرضيين.. كفى كذباً وافتراء!

- عندما تحلم أنك حاكم في يوم ما.. هذا معناه أن نسختك في أرض أخرى تحكم البلاد..

- لقد أصابك الجنون.. ما الذي تريدين أن تقوليه؟!

- أريد أن أقول أن الله قد خلق لنا أكواناً عديدة حتى تتنوع أقداره ونستطيع اختيار ما نشاء.. وحسب ما نختار في أرض ما.. تتشكل أقدارنا في أراضي أخرى!

- وما الفائدة في ذلك.. فأنا هنا الآن على هذه الأرض ولا أعرف ما الذي يحدث في أي مكان آخر..

- كلنا نعرف ماذا يحدث ولكننا ننكر.. فالحلم والخيال والأفكار يتسلح بهم الإنسان ليتحكم في حياته واختياراته وأقداره.. وبقلبه يشعر بكل شيء.. فيصيب إحساسه أو يخطيء.. ولكن في الأغلب يصيب.. فلا تفكر في أن جسدك هو الذي يوجد في العوالم الأخرى.. ولكن مشاعرك هي التي تسكنك.. وتسكن عوالمك الأخرى!

- وهل أنتِ تعرفين ماذا يحدث هناك؟!

فأومأت برأسها موافقة:

- نحن سلسلة متصلة منفصلة من الأفكار والمشاعر.. ولكن أجسادنا مجرد أدوات.. فعندما تغمض عينيك وتتخيل أو تحلم أنك تموت.. فنسختك في عالم آخر ترسل لك رسالة.. ولعلها تستغيث بك.. فتلك الإشارات والعلامات من روحك التي تسبح في ملكوت الله.. حتى يكون لديك الخيار الحر في القيام بأي شيء تريده..

- ولكنني أعتقد أن الخيال أو الحلم هو نسخة مصغرة مما سوف يحدث في المستقبل!

- المستقبل في أرض.. يكون ماضي في أرض أخرى..

- أنا لا أفهم شيئاً.. لماذا تقولين لي ذلك؟!

- لأقول لك أن "زاهر" الذي خرج من الجنة لأجل "سلسبيل".. ليس أنت!

فاقشعر جسدي مما قالته واعتقدت أنها تخدعني.. ولكنني شردت بذهني بعيداً وجعلت فضولي يعود إليّ ثانيةً وفكرت قليلاً فيما حدث لي ثم سقطت على الأرض محاولاً فهم ما يجري حولي.. ولكنني عجزت عن الفهم.. وعرفت أنني لن أجد إجابات لأسئلة عديدة.. فاكتفيت من فضولي وأسئلتي التي لا تسمن ولا تغني من جوع.. لم أصدق ما قالته.. لعلها محقة.. وقد أكون نسخة أخرى تشبهني من كون آخر وقد تداخلت الذكريات فاعتقدت أنني "زاهر" الذي تمرد وخرج من الجنة.. ولعلها تخدعني حتى أترك "خازن" ولا أقتله.. فهي في نظري خائنة وكاذبة وخادعة.. ثم رأيتها وهي تحاول مساعدة "خازن" على الوقوف وهي تحتضنه وتبكي ثم حاولا الرحيل لكنني وجدت "خازن" يستدير ويقترب مني قائلاً:

- أنت على هذه الأرض عبد.. افعل ما تشاء.. فأنا لست شيطاناً كما تظن.. والحقيقة التي لن تتحملها.. هي أنك الشيطان الحقيقي الذي نحاربه منذ أن وطأت قدمك على هذه الأرض..

ثم ربت على كتفي وقد تداخلت الأحداث في بعضها.. وشعرت أنني أخطأت من البداية في السير وراء فضولي ومحاولة إيجاد إجابات شافية لكل أسئلتي.. ولكن لماذا أنتظر الإجابة من الآخرين.. فكل إجابة أريد معرفتها هي بداخلي.. أشعر بها.. إجابة خاصة بي أنا وحدي فقط فقط.. فلعلهما يتحدثان عن عالمهما أو لعلي أصابني الجنون.

* * *

وبينما أنا جالس على جبل.. وجدت "سهيل" يقترب مني ويجلس بجواري قائلاً:

- لا توجد إجابات حقيقية ولا توجد حقيقة مطلقة فالحقيقة عند الله وفي قلبك أنت فقط فاستفته وإن أفتاك غيرك

ثم رحل واستيقظت ناظراً حولي فوجدت "تسنيم" بجواري تقول:

- أفتقدك في حياتي الأخرى.. لا تتأخر!

ثم استيقظت وأنا ألهث والعرق يتصبب مني ثم تأكدت من أنني في كامل وعيي.. فتلاحقت أنفاسي وشممت رائحة حريق لا أعرف مصدرها فخرجت من بيتي و وجدت آثار النيران حولي مما حدث.. فبحثت عن "عنبر" حتى وجدته.. ثم تحسست ملمسه الحريري واقتربت منه قائلاً:

- من لي سواك الآن يا عنبر؟! لم يعد لدي الرغبة في معرفة حقيقة أي شيء.. فاختياري هو ما سأفعله الآن.. وسأتحمل نتيجته.. ولن ألقيه على قدري الذي لا أعرفه أو على نسختي في أرضي أو في حياتي الأخرى.. ولن ألقيه على الآخرين.. لن أبرر أي شيء.. فنحن جميعاً نحب أن نسيطر على الأحداث حولنا ونضع تبريرات لأفعالنا المشينة ولأي شر بما كسبت أيدينا ولكننا نتفاخر بالخير الذي وفقنا الله له وأعاننا على فعله!

لقد سئمت من كل شيء.. فركبت حصاني وتوجهت إليه لأفعل ما يمليه عليّ قلبي محاولاً الإبتعاد عن الشتات والوساوس التي تصدرها أفكاري.. فمهما كانت الحقيقة.. لن أدركها بعقلي المحدود..

ولكن سأدركها بإيماني الذي جعلني أؤمن وأطمئن أنني خليفة الله في الأرض والمسئول عن تعميرها والجهاد بأضعف الإيمان بدون أن ألهث وراء كلام غيري أو وراء فضول قد انتابني أو شعور قد طرأ عليّ أو فكرة سيطرت على وجداني ليس لها مصدر سوى الله الذي يحثني على الخير أو الشيطان الذي يحببني في الشر.. لعلها ليست أكواناً أو عوالم أو حيوات أخرى.. لكنها أقداراً لكل روح خلقها الله ليس لها شبيه أو مثيل في أي بقعة من بقاع الأرض.. فنختار قدرنا الذي لا نعلمه.. ثم يقضيه الله لنا.. فنحن مخيرون فيما نفعل ونزرع.. ومسيرون فيما سنحصد.. وليس لنا من الأمر شيء سوى أن نغرس فسيلتنا أو نقلعها من جذورها.. تلك هي مسئوليتنا تجاه هذه الأرض التي استخلفنا الله فيها.. ومهما تعددت الخيارات.. فليس لديّ سوى خيار واحد.

-27-

"النهاية..."

سمعت ضحكات "خازن" و"سلسبيل" كالطعنات التي تخترق قلبي فاقتربت منهما قليلاً وأنا أشم رائحتهما الخبيثة التي تملأ غرفتهما.. فتذكرت عندما كنت أجلس في جنتي وأتكىء على الحرير وأتلذذ بالمن والسلوى.. و"بسلسبيل".. ولكن "خازن" اتخذ من مضجعه جنة خاصة به وجعل خلفاء الله في الأرض عبيد له يخدمونه ويترك لهم فتات الخبز.. رغم أنه خليفة البلاد الذي أوهم أهلها بأنه سيجعل من الأرض جنة وسيحكم بالعدل حتى ظنوا أن الحياة ليست عادلة.. وأن ما يعيشونه هو العدل الحقيقي.. عدل مشوه كالحب المشوه الذي أنفقته "لسلسبيل" ولعل حياتنا لا نراها عادلة حقاً.. لكنها رحيمة بنا للغاية.. فربما نحن لا نستحق حواسنا وطعامنا وشرابنا ومسكننا.. لكن لدينا تلك العطايا رأفة بنا.. فلماذا نبحث عن العدل ونحن من نظلم أنفسنا؟! حيث أن خالق الحياة عادل ورحيم ويغمرنا بكرمه ويعذر ضعفنا.. ولكننا نجحد ونطمع ونرى أننا نستحق كل ذلك.. "كخازن" الذي ملأ الحقد قلبه وخلق لنفسه جنة وحده واشترى "سلسبيل" بأبخس الأثمان فباعت له روحها.

وبينما أنا أنظر عليهما وهما يتبادلان القبلات وحولهما كئوس من ذهب وفضة وصحون من الماس ممتلئة بكل ما لذ وطاب فيأكلان لحماً طرياً ثم أشم رائحة عفنة وأنا أسمع تأوهاتهما وهو يعاشرها.. حتى لمحني هو و "سلسبيل" فسترا أنفسهما بغطائهما الحريري وظهر عليهما الذعر فنادى "خازن":

- يا حراس!!

ثم وجه كلامه لي:

- كيف اقتحمت بيتي؟!

فابتسمت له واقتربت منه فحاول الرجوع إلى الخلف وعينيه يظهر عليهما الخوف حيث تمتزجان أنفاسهما فنظرت لهما في ازدراء:

- هل تحب أن تقتلني.. أم أقتلك أنا؟!

فاتسعت حدقتا "سلسبيل" ثم نظر لي "خازن" نظرة غيظ قائلاً:

- إن قتلتك سترتاح إلى الأبد.. وإن قتلتني.. سأظل حياً في رأسك وخيالك وأحلامك.. وأنا وجيشي سنجري في عروقك مجرى الدم.. فاخرج من هنا.. لماذا تريد الحرب وقد أقمنا معاهدة سلام؟!

- السلام معك خدعة..

- هل أنت خائف؟!

فضحكت ثم نظرت إلى يديه التي ترتعد ثم قلت:

- ربما.. ولكن لماذا أصبحت خائفاً إلى هذا الحد؟! هل تخاف من أن أسخرك وتصبح عبدي إلى أبد الآبدين؟!

فصاح غاضباً:

- لا أخاف.. لماذا تريد كل شيء؟! سأعاهدك ألا أمسك بسوء بعد اليوم.. فاتركني وشأني.. وسأتركك وشأنك!

ثم نادى على الحراس بنبرة يشوبها الهلع حتى دخل الحراس إلى الغرفة فقال بثقة:

- أخرجوا هذا العبد من هنا.. وإذا حاول الإقتراب.. ألقوه في سجن العبيد..

فابتسمت له ثم نظرت إلى حارس من الحراس وأومأت برأسي موافقاً.. فأومأ برأسه هو الآخر ثم أمسكوا "خازن" و "سلسبيل" حيث ظهرت عوراتهما وهما لا يصدقان ما يحدث ولم يلحقا أن يسترا أنفسهما فرأيتهما وهما يستغيثان بينما أنا أضحك وأسير خلفهما وهما يصرخان حتى ألقيا خارج البيت وظهرا أمام حشد من الناس وانقلب عليهما الحراس وهم يخرجون سيوفهم في وجههما وهما راكعان على الأرض حيث يكبلهما حارس ضخم بينما أنا أشاهدهما وهما يستغيثان بي وقد تداخل صوتهما بصوت منتحب:

- أرجوك يا زاهر لا تفعل بي ذلك..

- لا يا زاهر أرجوك.. أنا أحبك!

فأشرت بيدي إشارة تدل على أن يخرسان.. ثم أشرت للحارس الضخم ليصدر بياناً "لخازن":

- لقد ظهر الفساد منذ أن حكمتنا.. ولذلك قد قررنا نحن بالإجماع أن نُحدث انقلاباً ليعم العدل في الأرض ولا يوجد حاكماً سوى الله.. وكل إنسان حاكم نفسه.. فقد كنا نطيعك خوفاً وأملاً في أن نعيش حياة كريمة ولكننا لم نرى منك سوى الظلم والجوع والعطش والعذاب والعبودية رغم حريتنا.. ولذلك قد تركنا "زاهر" المبروك يحكم عليك الحكم الذي يرتضيه.. حيث أنه الرجل الذي له الفضل بعد الله.. فقد أعاد كرامتنا التي أهينت وأحيا نفوساً مرضت كادت أن تموت.. بينما أنت قد قتلت أرواحاً ليس لها ذنب...

فصرخ "خازن" في وجهي:

- هل سخرتهم لك؟! هل سخرتهم لك؟!

ثم قالت "سلسبيل":

- لقد قلت لك أن أنك لست "زاهر" الذي خرج من الجنة!

فتجاهلت كلامهما ثم اقتربت من "خازن" وأخرجت خنجراً ودسسته في رقبته ناظراً له في غيظ فتأوه متسائلاً:

- ماذا أنت فاعل بي؟!

ثم أمسكت وجه "سلسبيل" منزعجاً من صوت بكائها ثم نظرت لها في عينيها وأنا ألاحظ عينيّ "خازن" الخائفتين وهو يشاهدني وينتظر مصيره.. فتبادلت النظرات بيني وبين "سلسبيل" وتذكرت أيامي معها ولا أكاد أصدق كيف تغيرت هكذا؟! وكيف تغيرت نظرتي تجاهها؟! فلم أكن أستطيع تخيل الحياة بدونها..

ثم دسست خنجري في رقبتها وأخرجته.. فانتثر الدماء على وجهي و وجه "خازن" الذي تجمد وجهه بينما هي كانت تنتفض أمامي على الأرض.. فطعنتها في قلبها عدة مرات لعلي أستعيد قلبي الذي حطمته ثم أمعنت النظر فيها وأنا أتخيل روحها وهي ترحل التي كانت من أنقى الأرواح فدنستها وجعلتها روح خبيثة حتى أصبحت جثة هامدة وسمعت صراخه ونحيبه وهو يدفن رأسه في صدرها ويبكي بصوت مكتوم:

- ياليتك قتلتني أنا.. لماذا فعلت ذلك؟! لقد كانت حبيبتك أيها الخائن!

ثم أكمل كلماته لها:

- لا تموتي يا سلسبيل أرجوكِ.. لا أستطيع تحمل فراقكِ.. يا سلسبيييييييل!

- هذا حق تسنيم.. أما حقي.. سأترك الله ليتولاه.. وما تعيشه من عذاب.. هو حق والدك الذي قتلته لتحكمنا.

فنظر لي بانكسار ثم طلب من الله أن يستره عن أعين الناس ولا يظهر لأحد من خلقه.. ثم أكمل بكائه المتهدج.

أعرف أنني قمت بقهره.. ولكن هل شُفي غليلي؟! هل مُحي ألمي؟!

أعرف أن حزنه سيطول.. فنحن البشر نعرف الإتزان والتأقلم كالطين والأرض الصلبة.. ولكن الجان والشياطين يعرفون المبالغة كالنار.. فغضبهم مدمر وسعادتهم فاجرة وحزنهم أبدي.. بينما نحن نتأرجح بين المعاناة والتعايش!

* * *

مر الزمان كلمح البصر وتطورت البلاد ورفضت أن أكون حاكماً حتى لا تصيبني الفتنة والغفلة.. فقد اختفى "خازن" ولكنني دوماً أشعر به وأسمع صوته في رأسي.. وتركني "عنبر" وذهب إلى "ياقوت".

وفي كل فترة يختار البشر حاكماً لهم يثورون ضده فلا أعرف حقاً.. هل الإنسان صعب الإرضاء أم من يحكمنا يصبح شيطاناً؟!

لقد انتهى عصر الإستعباد وانتشر مفهوم الزواج الذي يعتمد على الإشهار وبسبب ممارسة الزنا انتشر الكثير من الأطفال المجهولي النسب وقد اختلطت الأنساب حيث يتبرأ كل رجل أو سيدة من طفلهما فقام الحكام بمعاقبة الزاني والقاتل والسارق فبدلاً من سوق العبيد والجواري الذي اندثر أصبح هناك سوقاً للمساجين.. وظهرت الدنانير بدلاً من المقايضات ولكنني لازلت لا أعبأ بأي شيء فقد زهدت فيما أملك وفقدت رغبتي في معرفة أي شيء وكأن فضولي قد أصابه اليأس وهرب مني فالفضول قد قتلني عدة مرات حتى سئم من قتلي!

زهدت على أرضي أصطاد السمك وأعيش في مركب وسط البحار منقوش عليه إسم "تسنيم" وأستنشق رائحة البحار التي تملأ صدري فأشعر أنني في ريعان شبابي.. وأتذكر كل ما فات فتنتابني مشاعر مختلطة ينتصر فيها الألم الذي لايزال يخدش قلبي بسيف الفقد والغدر ثم أستشعر كل ما أنعم الله به عليّ وأنظر في صفحات البحر وفي أمواجه فأرى تجاعيد وجهي بدون أن أعرف لماذا نشيخ هكذا؟! ومتى سأودع حياتي؟! وإلى أين سأذهب بعد ذلك؟! وكيف سأموت؟! وأين إلهي الآن؟!

لعل كل ما نراه ليس حقيقياً.. ولكن كل ما نشعر به ونؤمن بوجوده.. هو الشيء الحقيقي.. ولا يوجد ما يشبع فضولي سوى الرضا الآن.. فلعل المبالغة في التفكير تثير الجنون.. لأن العقل محدود مهما كان علمه أما المبالغة في الإيمان تبعث على الإطمئنان الذي سعيت لأجله طويلاً.. وهذا لأن القلب غير محدود مهما كان حبه وتعلقه.. ولكنني اخترت الزهد والغنى عن الناس وألا أتعلق بما ليس لي.. فأكتفي برزقي!

لم يعد يؤرقني أي شيء ولم أعد أتسائل عن شيء ودوماً أستغفر ربي وأستعيذه من أن أسأله ما ليس لي به علم حتى لا أكن من الخاسرين.. أكثر من ذلك!

أصبحت أستيقظ في الصباح واشتهرت بالشيخ "زاهر" الذي رفض حكم البلاد وأصبح صياداً.. فهناك الكثير ممن رآوني مجنوناً حتى هذه اللحظة.. ولكنني أضحك ولا أعير أي اهتمام.. فأصبحت مرتاح البال ومعي شاب صغير يساعدني في الصيد.. وعندما أتمشي مع الشاب قليلاً في الأسواق وأشتري بضعة أشياء ممسكاً بيدي وهو يسير بجواري متحملاً بطء مشيتي بقدمي التي تعرج حتى نصل إلى مركبي متأملاً إسم "تسنيم" وأتخيلها وهي تصطاد السمك بجواري.. فأرمي شباكي وأدعو الله أن يرزقني فأجد السمك يقفز كثيراً ويلعب لكنني أنظر له في شفقة متعاطفاً معه ولا أعرف حقاً هل تلك الأسماك وجدت من الأهوال تحت البحار ما يجعلها تسعد لخروجها من البحر.. أم تريد العودة إلى مسكنها لتأنس بأهلها؟! وقد تذكرت خروجي من الجنة.. فياليتني قتلت فضولي قبل أن يقتلني!

ولكن لعل ذلك الفضول بريء من كل ذلك.. وما جعلني أهبط منها.. هل هو قدري.. أم حبي وتعلقي لتلك الملعونة "سلسبيل".. فاكتشفت أنني كنت مخدوعاً.. فقد عرفت أن السكينة إذا أصابتني.. إذن أنا مُحب ومطمئن لأن الحب فقط هو الذي يورث الراحة ويبعث الطمأنينة.. فلا يثير الخوف والقلق في قلبي.

ماذا لو وجدنا الناس تتسول في الطرقات بحثاً عن الحب بدلاً من الدنانير؟!

هل سيجدوا إنساناً ليعطيهم قطعة من قلبه.. أم سيتحجج ويقول أنه بلا قلب؟!

وهل القسوة والجفاء ستجعل من يستغنى عن أمواله في سبيل الفُتات من العشق والولع والإعجاب عاقل أم مجنون؟!

أشعر أن احتياجنا للقليل من الحنان والإهتمام.. أصبح أهم من بضعة دنانير أو حفنة من الذهب!

فلماذا وصلنا إلى هذا الحد من الشح والجفاف العاطفي الذي يراه بعض الناس ضعفاً؟!

عندما أتخيل أن المشاعر تُباع وتُشترى.. أتسائل.. هل الثري الذي يملك القلوب.. سيكون بخيلاً.. أم سيعطي من مشاعره لبقية البشر حتى تعم المحبة؟! وهل الفقير الذي يحتاج إلى قطرة من حب.. سيتحول إلى حيوان يلهث وراء غرائزه وشهواته.. أم سيكسر قلباً كبيراً ليسرق ما به من مودة وعاطفة؟!

لعلنا لا نتسول الحب لأننا لن نموت بدونه.. ولكننا نموت بوجوده.. وطوبى لمن يستغنى ويعطي قلبه لإلهه فيرضى ولا يتعذب مثلي!

بعد أن أصطاد ما رزقني الله به.. أعود إلى بيتي لأطهي السمك وأتناوله وأمامي الشاب الصغير يأكل معي وفي آخر الليل يرحل ويتركني كما يتركني كل شيء.. فأنام وحدي وأحلم "بتسنيم" وأدعو الله أن يعجل بذهابي إليها.. وتتكرر الأيام ويتعجب الشاب وتزداد دهشته عندما يجدني أحمد الله على كل شيء وأعيش الحياة بشكل بسيط رغم أنها تصبح أكثر تعقيداً.. فيسألني ونحن وسط البحار نسمع ارتطام أمواجه وعلى المركب نصطاد:

- ألا تمل من هذه الحياة يا شيخي؟!

فأضحك قائلاً:

- وهل لديك شيئاً يداوي الملل؟!

فيضحك هو الآخر ويسألني:

- أتعجب من بساطتك ورضاك عن الحياة.. وقد سمعت الناس يقولون أنك رجل سلبي و...

فتردد ثم أردفت كلمته التي يحبسها:

- ومجنون؟!

ثم نظرت له فوضع رأسه في الأرض خجلاً فسندت على كتفه ليجلس ثم جلست بجواره وتركت شباكي قائلاً:

- هل تعرف ما المغزى من حياتنا؟!

فأومأ برأسه علامة الرفض.. ثم كدت أن أشرح له لكنني تذكرت آلامي فأخذت نفساً طويلاً أخذني معه في ماضٍ بعيد ثم زفرت زفرة تخرج معها آلامي فقلت له مبتسماً:

- إذا نظرت إلى هذا البحر.. لن تعرف آخره.. ولن تدرك عمقه.. وكذلك حياتنا.. فعش كما تحب.. وابحث عن وجهتك التي خُلقت لأجلها حتى تعرف نفسك.. ولكن إياك أن تجعل رحلة حياتك تحدد قيمتك.. واعلم يا بني أنك إذا عرفت نفسك عرفت الله.. وإن لم تعرفها.. لن تعرف الله.. فاقترب منها.. ولا تتشتت!

نظر لي نظرة فهمت منها أنه لم يفهم شيئاً.. ثم سألني سؤالاً كأنه أمسك خنجراً ودسه في صدري:

- لماذا لم نبقى في الجنة وهبطنا منها؟!

فابتسمت نصف ابتسامة وشعرت بمرارة في حلقي وظهرت الدموع في عينيّ.. ثم شعر الشاب بمبالغته حتى صمت ولم ينبس ببنت شفة.. فتركته بعد أن ترك غصة في حلقي.

ذهبت إلى بيتي لأُكمل نحتي "التسنيم" حتى أصبحت تمثالاً شديد الجمال يستحق أن يُعبد.. فأضع لها الطعام لنأكل سوياً ثم نتحدث قليلاً حتى ألتقي بها في حلمي مستغنياً عن كل شيء يعيق سعادتي وراحتي فقد تصالحت مع جنوني وشتات عقلي.. ومع أي فضول يزورني.. حيث أنني لا أقتله.. فهو يرحل عندما يجد الرضا قد أحييته في قلبي بعد أن كان يسكن مكانه.. فرضاي جعلني أعيش حياتي في سلام مع ربي ومع نفسي ومع "تسنيم".. لكنني لم أكره ذلك الفضول.. ولم أعاديه.. بل حاولت أن أضع له حدوداً حتى لا يتمادى فأعيش حياتي في عذاب مقيم!

أغمضت عيني فتجولت في جنتي مع "ياقوت".. ثم اتسعت عيناي لأرى "تسنيم" بجواري.. وآمنت بواقعي الذي يسكن داخل رأسي.. وكفرت بما هو دون ذلك.. فلا توجد حقيقة ثابتة.. لكنها دوماً تسكن قلبي وتطمئنه.. فقد رضيت بكل ما هو موجود.. ولا أسعى لشيء مفقود.. فلا أتحسر على شيء.. ولا أطمع في شيء لكنني أفتقد "تسنيم".. وأفتقد "ياقوت" و"عنبر" و"سهيل".. وأفتقد ذو الأسماء المتعددة.. بل لا أفتقد ربي لأنه دوماً معي وحولي وبداخلي.. لا يتركني لحظة.. حتى الشاب الذي يساعدني رأيته واقفاً أمامي فاغرورقت عينيّ بالدموع ودنوت منه محاولاً لمسه متسائلاً:

- لماذا جئت يا بني؟!

- جئت لك حتى تسامحني ولأخبرك أن الله قد غفر لك ذنبك.. فاغفر لي ذنبي.. لتعيش معي في سلام.. أرجوك

فاقتربت لأحتضنه ولكنه تلاشى فوقعت أرضاً.. ثم تصالحت مع ما مضى من عمري وأدركت أنه جزءاً مني وإن عدت إلى الجنة.. لفعلت نفس الشيء مرة أخرى.. فتوقف شلال أفكاري وتساؤلاتي بعد مسامحتي لنفسي.

أعرف أن الله لا يتحدانا.. وصراعنا ليس مع أقدارنا.. ولكن مع أنفسنا.. مع أفكارنا وقلوبنا.. والسؤال الذي لا أستطيع أن أفهمه حتى هذه اللحظة.. وأعلم أنه ليس له إجابة.. سؤال يذكرني بفضولي اللعين.. لماذا لم يأكل "آدم" من الشجرة في بداية الأمر حتى نهبط منها جميعاً فيعفينا من شعورنا بالذنب الذي نعيشه طيلة العمر؟!

لم يعد يحركني فضولي.. ولم أعد أندم على شيء.. وعرفت أن الله يريدنا أن نذنب ونستغفر مراراً وتكراراً ولا يمل حتى نمل ونتعلم.. وما تعلمته أن الفضول لن يقودني إلى شيء.. وسيجعلني لا أهدأ إلى أن يلهمني الله الرضا الذي سيقودني إلى كل شيء حسن.. فلعلي قد فقدت عقلي.. ولازال قلبي متعلقاً.. بل أصبحت متقبلاً. تقبلت كل ما حدث وكل ما بدر مني.. ولولا كل ذلك.. ما كنت عرفت نفسي وما كنت عرفت ما الذي أستحقه!

تمت بحمد الله

شكر خاص

شكراً للكاتب الروائي "محمد صادق" الذي وضعني على الطريق الصحيح وقام بتعليمي أساسيات الرواية وقام بتشجيعي وجعلني أشعر أنني أستحق لأن أكون كاتباً روائياً.. وشكراً لسعة صدرك ولضميرك الحي حيث أنك لا تبخل بمعلومة وتجاوب على جميع الأسئلة مهما كانت صعوبتها ومهما كانت سخافتها وشكراً لإيمانك بي وشكراً لوجودك ولدعمك...